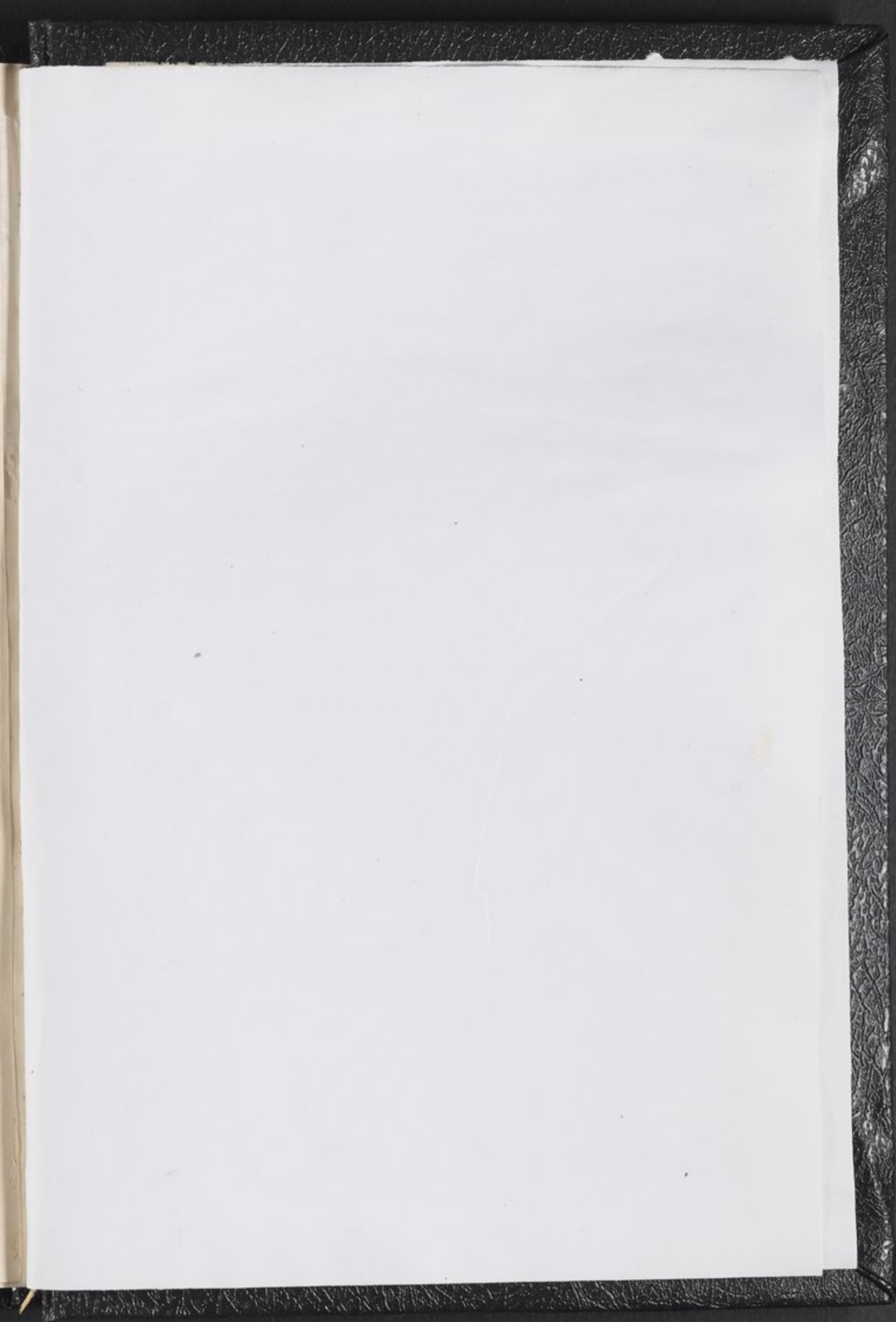


AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

38534018804959







لجنة الجامعيين لنشر العلم

أدب الحروب الصليبية

PJ
7517
H3
1948

دكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ الأدب المصري المساعد
بكلية الآداب . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى — ١٩٤٨

الناشر

دار الفكر العربي

طبعة الاعتماد بمصر

بمطالعته في هذا المجلد

٨١٠, ٩
محررة. أدب

مكتبة

مكتبة

مكتبة

٨٣٦١ — مكتبة

40245

مكتبة

مكتبة

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

١

ما الحروب الصليبية؟ ومتى تسمى بهذا الاسم؟

من المؤرخين الأوربيين من يعود بتاريخ الحروب الصليبية إلى أول صدام حربي بين المسلمين والمسيحيين، « فينظر إلى هرقل، أمبراطور الروم، على أنه أول رب صليبي، وإلى موقعة «اليرموك»، على أنها أول موقعة صليبية انتصر فيها عمر الخطاب على هرقل عام ٦٣٦ م؛ أعني قبل قيام الحروب الصليبية المعروفة بمدة قتل عن خمسة قرون.

غير أن الحروب الصليبية - أو قصة الصراع الديني العنيف بين المسلمين والمسيحيين - اسم أطلقه الأوربيون على الوقائع التي نشبت بين هؤلاء وهؤلاء في فترات طويلة متقطعة، لاشك أن أشهرها تلك التي كان المركز الرئيسي لها «فلسطين»، التي يقع معظمها في القرنين الحادى عشر والثاني عشر للميلاد.

فكثيرا ما حاول البابوات أن يجرؤوا المسيحيين على طرد المسلمين من شبه جزيرة أيبيريا، وأقحموهم في حروب كثيرة لهذه الغاية؛ ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية؛ لأنها لم تتجه صوب الأماكن المقدسة.

وكثيرا ما فكر الأباطرة البيزنطيون منذ عهد «نقفور»، في الاتجاه إلى الأماكن المقدسة، ونخليصها من أيدي المسلمين، وخاضوا حروبا طاحنة من أجل هذه الغاية؛ ومع هذا لم يصف التاريخ هذه الحروب بأنها صليبية، لأن أصحابها لم يحملوا الصليب. ومعنى ذلك إذن أنه يشترط لتسمية الحروب الدينية حروبا صليبية شرطان مجتمعان؛ هما الاتجاه إلى الأماكن المقدسة، وحمل شارة الصليب، التي تدل على أن صاحبها في حروب دينية لا دنيوية.

أما في القرن الثالث عشر الميلادي - أعني بعد انتهاء تلك الفترة التي أشرنا إليها - فيرى المؤرخون أن الحروب الصليبية بالمعنى العام ، نشبت في كل مكان إلا في فلسطين ؛ إذ انتقل منها مركز الجاذبية الصليبية إلى القسطنطينية . فمن حقنا إذن أن نهمل تلك الحروب الأخيرة التي لا يصح أن توصف بأنها صليبية ، لا شيء إلا لأنها فقدت شرطاً هاماً من الشرطين اللازمين لهذه التسمية ، وهو الاتجاه إلى الأماكن المقدسة . وعلى هذا ، نحن مضطرون إلى أن نقصر حديثنا هنا على الفترة التي كانت فيها فلسطين مركز الجاذبية الحقيقية للحروب الصليبية ، والتي كانت فيها المسيحيون الأوروبيون يحملون شارة الصليب . وهذه الفترة التي نعنيها إنما بدأت بالخمس الأخير من القرن الخامس الهجري ؛ أعني حول ٤٨٩ هـ ، واستغرقت القرن السادس كله ، ثم وصلت من القرن السابع إلى عام ٦٦٦ هجرية .

٢

ولكي نفهم قصة الحروب الصليبية ، ونمضي في دراستها على الوجه الذي نريد ، نجد أنه لا غنى لنا عن كتابة هذا التمهيد ، الذي نلقى به ضوءاً على العالمين الإسلامي والمسيحي ، في القرنين السادس والسابع للهجرة ، أو الحادي عشر والثاني عشر للميلاد . وعسى أن يفيد هذا الضوء أيضاً في بيان الأسباب التي من أجلها قامت هذه الحرب الضروس في فلسطين - تلك البقعة من أرض الله التي كتب عليها أن تكون مكاناً تقتتل فيه ديارتان ، هما المسيحية والإسلام ، وتلتقي فيه حضارتان ، هما الحضارة الغربية ، والحضارة الشرقية . وليس يعلم إلا الله متى تظل هذه البقعة من الأرض مثاراً للنزاعات الدينية العنيفة بين البشر ، وسبباً في تعكير الصفاء بينهم !

أما المسلمون فكانوا في أثناء تلك الفترة التي نشير إليها ، مذهبين عظيمين ، هما أهل السنة والشيعة . وأما المسيحيون فكانوا في أثناءها كنيستين عظيمتين ، هما الكنيسة الشرقية البيزنطية ، والكنيسة الرومانية الغربية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن العداء كان على أشده بين كل مذهبين من تلك المذاهب الدينية السابقة ؛ فالعداوة بين السنيين والشيعة من المسلمين ، كانت عداوة مخضبة بالدم الذي لم يكديجف إلا في العصور الحديثة ، وكذلك الشأن بين الكنيستين الشرقية والغربية .

أما العاطفة الدينية العليا ، وهى عاطفة المسلمين جملة ضد المسيحيين جملة - أو بالعكس - فهى التى من أجلها قامت هذه الحروب ؛ وكان قيامها إذ ذاك فى منطقة متوسطة بين بلاد المسيحية وبلاد الإسلام ؛ ونعنى «منطقة بحر الروم» ، وهو البحر الأبيض المتوسط ، فى شرقى ذلك البحر قام الإسلام ، وإلى جواره إحدى الكنيستين المسيحتين ، وهى الكنيسة البيزنطية . وفى غربى ذلك البحر - بحر الروم - قامت الكنيسة الرومانية التى تولت بنفسها إثارة الحروب الصليبية ، وأشعلت جذوتها .

٣

ولا زبد أن نخلو هذه المقدمة أولا من بيان لموقف الامبراطورية البيزنطية من الدول الإسلامية ، ثم من الدول المسيحية الأوربية ، وذلك فى أثناء الحروب الصليبية . فأما موقف البيزنطيين من المسلمين فظاهر منذ أيام عمر بن الخطاب ، ومنذ استطاع العرب بعد ذلك الاستيلاء على ممتلكاتهم فى مصر والشام وفلسطين ، ثم لم يكتفوا بعد بذلك حتى حاولوا فتح القسطنطينية نفسها أكثر من مرة ، وكل ذلك فى أيام الخلافة الأموية . فلما كانت الدولة العباسية كثرت غارات البيزنطيين على أراضى المسلمين ، وساعد على ذلك نقل العاصمة الإسلامية إلى بغداد ، ومع ذلك كان للعباسيين اسم عظيم يلقى الرعب فى نفوس البيزنطيين ، الذين أرغمهم الخلفاء العباسيون على دفع الجزية ؛ ولا تذكر الدولة العباسية والدولة البيزنطية إلا ذكر معهما انتصار الخليفة المعتصم على الروم انتصارا حاسما فى عمورية ، وهو الانتصار الذى سجله أقوى تسجيل وأبرعه ، شاعر العباسيين غير مدافع - أبو تمام - وذلك فى قصيدته الخالدة التى أولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وفى العصر العباسى الثانى ، وهو عصر الدول المستقلة - ومن أهمها بالنسبة للصليبيين دولة الحمدانيين - طال النزاع بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان النصر سجالا بينهما . ذلك أنه كان لهؤلاء البيزنطيين آمال صليبية لم تخف على أذهان المسلمين ، وكانت تهدف دائما إلى الظفر بالأماكن المقدسة فى فلسطين . ومن أجلها خاضوا حروبا كثيرة ضد الإسلام ، استطاعوا بها فتح كثير من حصونه ، والاستيلاء على كثير من بلاده .

فهذا ، نقفور ، يطرد العرب من جزيرة كريت^(١) ، ويستولى على بعض بلاد الشام في أثناء ذلك الصراع الهائل الذي كان بينه وبين الحمدانيين ، والذي أسرف فيه أبو فراس الحمداني الشاعر ابن عم سيف الدولة .

ثم هذا هو ، الدمستق ، Zimiskis الذي أتى بعد نقفور ، وكان يرمى إلى فتح بيت المقدس ، فاستولى من أجل ذلك على بعض حصون الشام ، ودفعت له حصن الجزية .

وكما قلنا لايهمنا من الوجهة الأدبية الخالصة من مراحل هذا الصراع السابقة غير المرحلة التي اشترك فيها سيف الدولة الحمداني ، ذلك الأمير العربي الذي صمد للروم ، وأصلاهم نارا حامية من سيفه ، وأجبرهم أحيانا على الفرار من وجهه . فلقد بقي هذا عشرين عاما وهو شجاعا في حلق الدولة الرومانية الشرقية ، لم تخدم نار الحرب بينهما سنة واحدة ، وكانت له في الروم نكبات ، وانتصر عليهم مرات ، وأوغل سنة ٣٣٩ هـ في بلادهم ، حتى كان على سبعة أيام من القسطنطينية^(٢) .

وكان في بلاد سيف الدولة شاعر العربية في عصره أبو الطيب المتنبي ، يمدحه إذا انتصر على الروم ، ويعتذر عنه إذا انهزم أمامهم ، فما قاله المتنبي في الاعتذار عن سيف الدولة قصيدته التي أولها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع
إن قاتلوا جَبَسُوا وأوحدوا شَجَعُوا
ومنها قوله :

وهل يشينك وقت كنت فارسه
وكان غيرك فيه العاجز الضرع
من كان فوق محل الشمس موضعه
فليس يرفعه شيء ولا يضع
الدهر معتذر والسيف منتظر
وأرضهم لك مصطاف ومرتبوع
وانتصر هذا البطل العربي مرات على الروم ، فمدحه الشاعر بعدة قصائد ، منها قصيدته التي أولها :

ليالي بعد الظاعنين شكول طوال
وليل العاشقين طويل
وقصيدته التي أولها :

(١) بعد أن احتلها المسلمون من ٥٢١٠ - ٥٣٥٠ .

(٢) أبو الطيب المتنبي لعبد الوهاب عزام ص ٩٩ .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وقصيدته التي منها :

أنت طول الحياة للروم غاز فتي الوعد أن يكون القفول
وسوى الروم خلف ظهرك روم فعلى أي جانبيك تميل ؟
وتوفي سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ بحلب ، ونقل إلى ميفارقين ، وكان قد جمع ماتراكم
عليه من غبار الحرب ، فصنع منه لبنة أوصى أن توضع تحت رأسه في قبره ! وطويت
بموته صفحة رائعة من صفحات الجهاد المرير ضد آل الصليب .

ولا ننسى مع ذلك أن نشير إلى خطب ابن نباته ، ذلك الداعي الكبير من دعاة
الحروب التي خاض غمارها المسلمون من أجل الدين . وجدير بنا أن نرجى الحديث
عنها إلى الفصل الذي نتحدث فيه عن الخطبة المنبرية زمن الحروب الصليبية . وهكذا
ظل البيزنطيون يتقدمون في فتوحهم ، ويمرزون النصر على أعدائهم ، حتى وقف هذه
الفتوح ظهور الفاطميين أولاً ، والسلجوقيين بعد ذلك . وقد كان هؤلاء وهؤلاء قوة
كبيرة للإسلام ، ودما جديدا في عروقه ، استعان به على القضاء التام على الآمال
الصليبية لتلك الإمبراطورية البيزنطية في الشرق الإسلامي .

فأما الفاطميون فقد استردوا من البيزنطيين دمشق ، وحلب ، وحمص ، وشيزر ،
وفلسطين ، وبيت المقدس .

وأما السلجوقيون فقد ملكوا جرجان ، وطبرستان ، واستردوا كذلك
بيت المقدس ، وحلب ، وأنطاكية ، والرملة . والتقى السلطان ألب أرسلان بالإمبراطور
البيزنطي أرمانوس ، في موقعة من أهم المواقع الفاصلة في التاريخ : موقعة (منازجرد)
أو (ملازكرد) عام ١٠٧١ م ، فهزمه السلطان السلجوقي هزيمة نكراء ، وأسره ثم أطلق
سراحه بغرامة كبيرة .

٤

ذلك موقف البيزنطيين من المسلمين قبيل الحروب الصليبية . وأما موقف هؤلاء
البيزنطيين من إخوانهم المسيحيين الوافدين عليهم من المملكة اللاتينية ، فقد ظهر بجلاء
منذ اللحظة الأولى من تاريخ هذه الحروب التي أشعلها الصليب . فصحيح - فيما رجح

المؤرخون — أن البيزنطيين استنجدوا بإخوانهم «اللاتين» . وكان موقف هؤلاء وهؤلاء يومئذ أشبه بموقف المسلمين شيعة وسنيين من عامة المسيحيين ، أى أنه كانت ثم عاطفة دينية عالية ، هى التى أشرنا من قبل إليها ، والتقى النداءان : نداء المسيحية الشرقية ، ونداء المسيحية الغربية ، وتجهز الأوريون لاولى الحملات الصليبية التى وصلت إلى البلاد الشرقية ، واستقبلها عاهل الإمبراطورية البيزنطية ؛ وهناك أحب هذا العاهل البيزنطى الكبير أن يستغل الحملة لنفسه ؛ فكان يأخذ العهود والمواثيق على أمراء الحملة الصليبية الوافدين عليه من المملكة اللاتينية ، أنهم يردون إليه كل مايفتحون من البلاد الشرقية التى كانت يوما ملكا له . فحلف له بعضهم ، وأبى الآخرون ذلك كل الإباء ؛ لأن معنى هذه اليمين التى يأخذهم بها الإمبراطور ، أن كل أمير من أمراء الصليب إنما خرج من بلاده باذلا روحه ودمه وماله فى سبيل غاية سياسية لا دينية ، هى أن يسترد بسيفه للأمبراطور البيزنطى ما سلبه السلاجقة إياه . «وكان الغرب الكاثوليكي بذلك لا يعدو أكثر من مخالب قط فى يد هذا الإمبراطور الشرقى ، يحقق بها أطماعه السياسية .

ومع هذا فالغريب أن ذلك الإمبراطور الشرقى الأريب ، استطاع أن يحمل كبار أمراء الصليب ؛ مثل جودفرى وبوهمند ، وكانا من أعظم الصليبيين حينئذ ، إن لم يكونا أعظمهم على الإطلاق — على حلف اليمين ، فلفاها أمامه فى جمع كبير من رجالات الدولة ، وعقدا معه اتفاقا على ذلك فى مايو عام ١٠٩٧ م . ثم لما نجح الصليبيون فى التغلب على البلاد الشرقية ، وفى تكوين الإمارات اللاتينية ، طالبهم الإمبراطور بتنفيذ الوعد ، فأبوا عليه ذلك ، بحجة أنه لم يشاركهم بنفسه فى هذه الحروب ، برغم أنه وعدم تقديم المساعدة اللازمة لهم عند الحاجة .

ذلك باختصار موقف الكنيسة الشرقية ، والإمبراطورية البيزنطية من مسيحي أوربة.

٥

ولا نريد أن تخلو هذه المقدمة أيضا من بيان وجيز لحالة المسلمين فى الشرق والغرب مع قبيل الحروب الصليبية . فأما المسلمون فى الغرب فقد انبثوا فى جنوب إيطاليا ، وفى صقلية ، وفى أسبانيا .

وهناك كان للعرب اسم عظيم ، يلقى الرعب فى نفوس الأوربيين ، إلى بداية القرن

الحادى عشر الميلادى . ثم منذ ذلك تدهور المسلمون قليلا قليلا فى الغرب . وكان من مظاهر هذا التدهور سقوط طليطلة العربية أمام جيوش ألفونسو السادس أمير قشتالة ، ثم سقوط جنوب إيطاليا فى أيدي النورماندين ، ثم سقوط صقلية فى أيديهم كذلك . ولم يكد القرن الحادى عشر ينتهى حتى لم يعد فى قبضة العرب سوى جنوب إسبانيا ، وشمال إفريقيا ، ولم يعد قرصان المسلمين شبعا للعرب فى بحر الروم ، (١) .

وأما المسلمون فى الشرق ، فقد كانوا موزعين بين خلافتين : خلافة فنية فى مصر ، أتت إليهم من بلاد المغرب ، هى الخلافة الفاطمية ؛ وخلافة عجوز هرمة انحصرت أو كادت تنحصر فى بغداد وما حولها من البلاد ؛ هى الخلافة العباسية .

غير أنه فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، حدثنا التاريخ أن الخلافة العباسية تخلصت نهائيا من سلطان بنى بويه المعروفين بالتشيع ، ووقعت تحت سلطان الأتراك السلجوقيين المعروفين بالتمس الشديد لمذهب أهل السنة ، فاستطاع هؤلاء السلاجقة — فوق سيطرتهم على الخلافة العباسية فى بغداد — أن يملكوا إرمينية ، وآسيا الصغرى ، وسورية ، وفلسطين ، وبيت المقدس ، فalcوا بذلك العرب فى قلب الخلافة الفاطمية ، كما ألقوا كذلك رعبا أشد فى قلب الإمبراطورية البيزنطية ، وخاصة منذ هزموا عاهلها الأكبر — كما قلنا — فى موقعة « مناز جرد » .

منذ ذلك الوقت شالت كفة الخلافة الفاطمية فى ميزان العظمة والمجد ، ورجحت عليها كفة السلاجقة ، الذين اقترن بظهورهم تاريخ الحروب الصليبية فى الشرق .

٦

ولقد شاع أن السبب الأول فى قيام هذه الحروب إنما هو تعصب السلاجقة لدينهم تعصبا شديدا ، أدى بهم إلى أن أساءوا معاملته الحجاج المسيحيين ؛ فعاد هؤلاء الحجاج من فلسطين ، وبالعوا فى وصف الإهانات التى لحقتهم فى أثناء قيامهم بفريضة الحج . وهنا ثار رأى الأوربي العام ، وكان أول من أوقد جذوته ، وأعان على إثارتها ، البابا أوربان الثانى urban وسيتضح ذلك بعد .

أجل ، ربما كان تعصب السلاجقة وتمسكهم للدين ، سببا قويا من أسباب هذه

(١) إقرأ تراث الإسلام ج ١ ص ٩٠ .

الحروب ، ولكن لابد أن تكون هناك أسباب أخرى حفزت الأوربيين إلى حمل
شارة الصليب ، والمضى في هذه الحروب . ومن تلك الأسباب - فضلا عن الوازع
الديني الذي أهاب بالمسيحيين أن يذودوا بأنفسهم عن بيت المقدس :

أولا : رغبة الأمراء والسكنيسة في الاستفادة من النشاط الحربي الذي عم البلاد
الأوربية ، وكان نتيجة من نتائج النظام الإقطاعي ونظام الفروسية .

ثانيا - حرص الأوربيين بوجه عام على أن تكون الحروب الصليبية بمثابة حل
لمشكلة زيادة السكان في أوربة .

ثالثا : أمل الأوربيين في أن تكون الإمارات التي عزموا على إنشائها في الشرق
الأدنى ، سوقا تجارية للشعور الإيطالية التي رافقت سفنها أول حملة صليبية .

رابعا : رغبة العبيد في التخلص من ظلم الأشراف ، واضطهادهم لهم اضطهادا كان
يبرره النظام الإقطاعي .

خامسا : استنجدت الكنيسة البيزنطية بالغرب اللاتيني منذ انتصر الأتراك السلجوقيون
انتصارهم الرائع في منازجرد ، ومنذ استيلائهم من الدولة البيزنطية على إرمينية وآسيا
الصغرى . ومهما تكن الدواعي التي دعت الأوربيين إلى التفكير في هذه الحروب ،
أو تسكن البواعث التي حملت رجال الدين والدنيا معا في أوربا على التنظيم والسعي
لها ، فالذي حدث بالفعل هو أن الأوربيين صاح بهم صائح من الدين عجيب ، دفعهم
إلى خوض هذه الحروب المقدسة . التي أرادوا بها قبل كل شيء تحرير البيت المقدس ،
وفسح الطريق للحجاج الوافدين عليه من أوربا .

وهذا معنى قول الأستاذ باركر : إن هذه الحروب كانت بمثابة حج كبير يحميه
السلاح .

وبلغت الحروب الصليبية التي ثارت من أجل القدس غايتها ، وتناهت مدتها ، وهي
المدة التي قلنا إنها تقع في حدود القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد . ثم في
القرن الثالث عشر ظهر المغول ، وكونوا لأنفسهم أربع إمارات كبيرة لم تكن في أول
أمرها مسيحية ولا إسلامية ، ففسكر كل من المسلمين والمسيحيين في استمالة المغول
اليهم ؛ أما المسيحيون فقد اعتمدوا على طريقة سلبية ، هي طريقة التبشير . وأما

المسلمون فقد ظلوا في حروب طويلة بينهم وبين أولئك المغول ؛ وهي حروب أبدى فيها المماليك المصريون من أعمال الشجاعة والبطولة ما خلد ذكرهم في التاريخ .

٧

مما تقدم نعلم أن الاحتكاك بين المسيحية والإسلام كان قديما منذ عهد عمر بن الخطاب ، وأنه استمر إلى أيام الأمويين والعباسيين فالحمدانيين فالسلاجقة فالفاطميين ، ثم قامت أولى الحروب الصليبية الحقيقية ، فنجحت في تكوين مملكة لاتينية ، كانت أشبه شيء برقعة أجنبية في ثوب العالم الإسلامي . وبقيت هذه الرقعة لاصقة بهذا الثوب حتى أزالها المسلمون على يد نفر من ملوكهم وزعمائهم ، نخص بالذكر هنا ثلاثة من أبطالهم ، وهم :

عماد الدين زنكي : حاكم الموصل .

ونور الدين محمود : حاكم دمشق .

وصلاح الدين الأيوبي : حاكم مصر .

فأما الحملات الصليبية التي أتت من أوروبا إلى الشرق لتكوين إمارات لاتينية ، فأهمها في أول الأمر ثلاث :

الأولى — في سنة ٤٩٠ — ٤٩١ (المقابلة) لسنة ١٠٩٦ — ١٠٩٧ م — وهي الحملة التي نجحت في تكوين المملكة اللاتينية وسط الخلافتين العباسية والفاطمية ، وكان البطل زنكي أول من ندب نفسه لهدم هذه المملكة .

والثانية — في سنة ٤٥١ — ٤٥٢ هـ (المقابلة) لسنة ١١٤٧ — ١١٤٨ م — وهي الحملة التي حدثت في عهد الملك نور الدين محمود ، وصدها هذا البطل العظيم ، فلم تصب من النجاح ما أصابته الحملة الأولى .

والثالثة — في سنة ٥٨٣ — ٥٨٤ هـ (المقابلة) لسنة ١١٨٧ — ١١٨٨ م وهي الحملة التي عجزت عن أن تنقض ما فعله صلاح الدين بعده ، إذ أفلح هذا البطل الكبير في امتلاك مصر ، وتمسك من طرد الفرنج من إماراتهم اللاتينية في الشرق ، وحصرهم في شريط ضيق على الساحل .

ثم أتى خلفاء صلاح الدين ومن بعدهم سلاطين المماليك ، فأجهزوا على البقية الباقية

من الفرنج ، واستطاعوا أن يطردوا آخر صليبي من الشرق ، وذلك بعد أن حاول الصليبيون في ثلاث حملات أخرى من حملاتهم على مصر ، أن تستنقذ الملك الذي كونه لأنفسهم في الشرق ، فعجزوا عن ذلك كل العجز ، ولم يروا بدا من العودة إلى بلادهم ، والعدول نهائيا عن التفكير في هذا الأمر .

٨

بقي أن نشرح الخططة التي وضعناها لأنفسنا في كتابة هذا البحث ، ولم نجد خيرا من أن نتحدث حديثا تاريخيا موجزا عن كل مرحلة من مراحل الحروب الصليبية ، وذلك في فصل خاص بهذه المرحلة ، ننبهه بفصل آخر في وصف الحركة الشعرية التي اقترنت بها .

وسنرى أن الحرب الصليبية الأولى مرحلة ، وأن الحرب الثانية مرحلة ، وأن الثالثة مرحلة ، وأن الحروب الصليبية الثلاث التي وجهت إلى مصر وحدها بعد موت صلاح الدين يمكن أن تعتبر مرحلة ، فإذا خصصنا كل واحدة من هذه المراحل بفصلين ، أحدهما في وصف الوقائع التاريخية ، والآخر في وصف الحركة الشعرية ، كان مجموع الفصول الأولى لهذا الكتاب ثمانية .

وتأتى بعد ذلك فصول أخرى تكمل البحث ، يختص أولها بالرسائل الديوانية والإخوانية ، ويختص الثاني بالخطبة الصليبية ، ثم يأتي ثالث في وصف الكتب التي ألقت في موضوع الجهاد والفروسية ، ثم رابع في موضوع فضائل البلاد الإسلامية . ثم تأتي الخامسة ، وبها ينتهى البحث الذى بلغت فصوله اثني عشر فصلا غير المقدمة والخاتمة .

وكنيت أود أن أضمن الكتاب فصلا عن الحركة التاريخية التي نشأت عن الحروب الصليبية . غير أنى وجدت أن ذلك يخرج بي عن نطاق الأدب الصرف ، وإن كنت أعلم أن من الكتب التاريخية التي نسبت إلى عصر الحروب الصليبية ، ما كتب بلغة أدبية لا علمية ، روعيت فيها الصناعة اللفظية أكثر من مراعاة الحقائق التاريخية ، ومن هذه الكتب ، على سبيل المثال ، كتاب الفتح القسى ، في الفتح القدسى ، للعماد الأصفهاني .

وللقارىء أن يسأل : لم خصصنا الحركة الشعرية بالعناية فى بحثنا هذا ، حتى أفردنا لكل مرحلة من المراحل الصليبية فصلا مستقلا بعرض نماذجها الشعرية دون النثرية ؟

وجوابنا عن ذلك : أن الشعر كان فى رأينا أهم من النثر الفنى فى تلك الفترة من تاريخ الأدب العربى ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن الشعر كان تعبيرا شعبيا عن عواطف المسلمين فى أثناء تلك الحروب ، بخلاف الرسائل الديوانية ، التى كانت مجرد تعبير رسمى عن عواطف الحكومات الإسلامية فى تلك العصور .

وهل تبلورت الفكرة الصليبية أحسن ما تبلورت إلا فى أذهان الشعراء ؟ وهل استعان الأبطال فى تصوير المثل الأعلى لهذه الحروب كلها بغير هؤلاء الشعراء ؟ وهل كان يحمس قادة المسلمين ويعبر لهم عن آمالهم فى الفتوح غير الشعر الذى كان يقوم مقام الصحافة السياسية فى ذلك العصر ؟ وهل كان يهنى عماد الدين أو نور الدين أو صلاح الدين بالنصر ، فى هذه الموقعة أو تلك ، ويبشروهم بقرب دخول القدس غير الشعر ؟ أجل ، سنرى أن الشعراء فى تلك الحقبة لم ينوا لحظة ما عن تذكير الأبطال المجاهدين بالغاية الرئيسة من تلك الحروب الإسلامية المسيحية ، وهذه الغاية هى طرد الفرنج من جميع البلاد الشرقية ، وأهمها القدس . . .

وثانيهما : أنه حين كان الشعر العربى يقوم بوظيفته فى ذلك الوقت ، وهما إثارة الشعور ، وتسجيل النصر الذى يحرزه المسلمون على الصليبيين ، إذا بالرسائل الديوانية تنهض بالمهمة الرسمية ، لاتعدوها إلى غيرها . وهذه المهمة الرسمية هى هنا تسجيل الحوادث السياسية ، ثم إبلاغها الخليفة من جهة ، وأكابر الأمراء المسلمين من جهة ثانية . والغريب — كما سنرى — أن الجهد الفنى الذى بذله الشعراء إذ ذاك فى الشعر ، لم يكن شيئا بالقياس إلى الجهد الفنى الذى بذله رجل كالقاضى الفاضل أو العمد الأصفهاني فى النثر . ومعنى ذلك بوضوح أن الشعر — كما قلت — كان أقرب فى أسلوبه إلى عامة الشعب الإسلامى من النثر ، وذلك بالطبع فيما عدا كتب الجهاد والفروسية التى كتبت لتحسيس القادة ، وتشجيعهم على المضى فى تلك الحرب الدينية فى شجاعة وبسالة .

ومن هذا الذى أشرنا إليه منذ حين ، وهو أن الأدب العربى فى أثناء الحروب الصليبية كان شعرا ، ورسائل ديوانية وإخوانية ، وخطبا حماسية ، وكتبا فى الجهاد والفروسية ، وكتبا فى فضائل البلاد العربية ، نعلم كيف عنى هذا الأدب الصليبي بالنواحي النفسية الثلاث من نواحي العقل الإسلامى ؛ وهى نواحي الإدراك والوجدان والإرادة ؛ وهى النواحي التى تجب العناية بها عند ما يراد إعداد الرجل العربى للخوض فى هذه الحروب ، وذلك بصرف النظر طبعا عن الغريزة التى فطر العربى عليها ، وهى الغريزة التى توجب عليه الذود عن حياضه ضد العدو الخارجى .

فأما ناحية الإدراك ، فقد كان يغذيها من ذلك الأدب الصليبي ، ما كتبه العلماء فى موضوع فضائل البلاد . وليس شك فى أن العربى الذى يطلب منه أن يجاهد فى سبيل بلاده ، ينبغى له أن يعرف أولا مقدار هذه البلاد وقيمتها وفضائلها ، وما تمتاز به عن غيرها من بلاد الله ؛ فإذا أدرك ذلك بوضوح تام ، أعانه هذا على تقبل فكرة الحرب ، والمضى فيها إلى أبعد حد ، لأن البلاد التى يحارب من أجلها لها كل ذلك الفضل .

وسنرى أن العلماء الذين وصفوا هذه السكتب الأخيرة فى فضائل البلاد ، قد اتبعوا فيها خطة فى غاية اليسر والبساطة ، ولسكنها فى الوقت نفسه فى غاية القوة والتحريك والإثارة . وتتلخص هذه الخطة فى أنهم اعتمدوا على الأحاديث النبوية التى وردت فى مدح كل بلد من بلاد الإسلام على حدة ، فكان مجرد الأتيان بهذه الأحاديث كافيا لإنهاض الهمم ، على نحو ما تفعل الصحف والراديو وغيرهما من وسائل الإعلان ، أو تهيشة رأى العام لقبول فكرة من الأفكار .

وأما الناحيتان الوجدانية والإرادية ، فيغذيها من هذا الأدب الصليبي ذلك الشعر الحماسى الرائع ، الذى صاغه الشعراء فى جميع الأقطار ، وخاصة مصر والشام ، كما تغذيها فى نفس المقاتل العربى كتب الجهاد والفروسية ، وما فيها من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والسير التاريخية ، وكلها تحث على الاستشهاد فى سبيل الله ، وتعد المجاهدين من عباده جنات عرضها السموات والأرض .

وليس معنى ذلك أن الشعب الإسلامىبقى جامدا صامتا حتى كتب له الكتاب

في الفروسية والجهاد وفضائل البلاد ، ونظم له الشعراء ما نظموه من القصائد التي تدعو إلى القتال الخ ؛ لا ، ولكن معناه أن شعورا إسلاميا فياضا كان يثور في نفوس المسلمين ، وأن رأيا عاما نشأ بينهم في ذلك الحين ، وأنه كان لابد من تغذية هذا الشعور قبل أن يموت ، وإذ كاه تلك الجذوة قبل أن تتمد ؛ وطريق هذه التغذية وذلك الإذكاء هو هذا الأدب الصليبي ، وهو الأدب الذي عبر تعبيراً صحيحاً عن رغبات المسلمين المجاهدين وآمالهم ، وغاياتهم وأهدافهم ، وذلك منذ ظفر أوائك المسلمون المجاهدون بزعماء يجمعون كلمتهم ، ويقودونهم إلى غايتهم ، وهؤلاء الزعماء هم — كما قدمنا — عماد الدين ، فنور الدين ، فصلاح الدين ، ثم خلفاء هذا الأخير من بعده .

١١

ونريد في هذه المقدمة أن ننبه على أمر له خطره عندما نؤرخ للأدب العربي في ظل الحروب الصليبية . هذا الأمر هو الفرق الواضح بين المسلمين والمسيحيين في تاريخ هذه الحروب . فليس شك في أن كل فريق من هؤلاء وهؤلاء تعصب لدينه تعصبا ظاهرا . وليس هذا التعصب في ذاته عيبا من عيوب المؤرخ ، الذي يستحيل عليه أن يتخلص من شعوره الديني ، أو يخفف من حدة هذا الشعور في عصر عرف بشدة التحمس الديني . ومن أجل هذه العصبية الدينية كان المؤرخون من المسلمين يصفون المسيحيين بأنهم كفرة ومشركون ، كما كان المؤرخون المسيحيون يصفون المسلمين بأنهم كفرة وثنيون . ومثل هذا كثير في كتب هؤلاء وهؤلاء ، لا محل لتوجيه اللوم لهم من أجله . ولكن ليس معنى هذا أن الحق في هذا التاريخ الصليبي ضاع أو كاد ، إذ أنه ليس من الصعب على المؤرخين المحدثين استخلاص الصدق من كتابة الفريقين معا ، وبخاصة إذا علمنا ما عليه المؤرخون المسلمون القدماء من التحرج الشديد ، والتحري الدقيق في سرد الوقائع التاريخية ، وهو تحرج يشبه في جملته ما كان يفعله رجال الحديث منذ ظهورهم على مسرح الثقافة الإسلامية إلى اليوم .

والذي نريد أن نصل إليه من وراء هذا التنبيه ، هو أننا نؤرخ للأدب العربي في زمن الحروب الصليبية ، والأدب في ذاته إنما هو فن التعبير عن العواطف الإنسانية ، قبل أن يكون فن التعبير عن الحقائق العلمية ، ومعنى ذلك أننا مضطرون

في تصوير هذه الحروب ، ووصف الظروف المحيطة بها ، إلى الاعتماد الأكبر على المصادر العربية ، التي تصف وجهة النظر الإسلامية الشرقية ، لا المسيحية الأوروبية . وإذا علمنا أن الأدب العربي في ذلك الوقت إنما يمتاز بأنه أدب العاطفة قبل كل شيء ، كان معنى ذلك أن المصادر العربية وحدها كفيلة بخلق الجو العاطفي ، الذي يعين على فهم الأدب العربي الصليبي . ولو فعلنا غير ذلك ، فغولنا في هذا التصوير على المصادر المسيحية أكثر من المصادر الإسلامية ، أو على الأقل ساوينا بينهما ، لقصرنا كل التقصير في ذات الأدب العربي لتلك الفترة ، ولعجزنا كل العجز عن أن نتذوقه أو نقدره ، ولأصبحنا بهذا الصنيع أشبه بالمؤرخ الذي لا هم له إلا استخلاص الحقائق التاريخية المجردة ، وعرضها عرضاً فيه ظل ضعيف من شخصيته . وليس هذا القدر كافياً لكتابة التاريخ الأدبي العربي لهذه الحروب . ومن ثم كان حقنا واضحاً فيما أخذنا به أنفسنا من الاعتماد على المصادر العربية ، وخاصة ما كان منها قريباً جداً من الزمن الذي وقعت فيه هذه الحروب .

وهنا ينبغي أن نذكر أنه كان من أجل الكتب التي رجعنا إليها في التاريخ الأدبي لهذه الحروب ، كتاب واحد لم نجد له نظيراً في المكتبة العربية الإسلامية ؛ وهو كتاب « الروضتين » ، في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، لشهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن المقدسي ، المعروف « بأبي شامة » . وقد جمع هذا المؤلف في كتابه بين الأدب والتاريخ . بل لا نبعد عن الحق إذا قلنا إن عنايته بالنصوص الأدبية كانت في هذا الكتاب مقدمة على العناية بالنصوص التاريخية ، وتلك هي الصفة التي قل أن يساويه فيها كتاب عربي آخر من الكتب المنسوبة إلى ذلك العصر .

ومن ثم نحن مدينون في بحثنا هذا لطائفة من العلماء القدماء ، أولهم أبو شامة - سقى الله ثراه - ويليه عميد المؤرخين المصريين في العصر الوسيط ، وهو المقرئ ؛ وإلى أبي المحاسن بن تغري بردي يرجع الفضل في كثير من المعلومات التاريخية والأدبية التي اشتمل عليها هذا البحث ، في الجزء الذي يؤرخ لما بعد صلاح الدين الأيوبي .

وبعد ، فإن من العدل أن نرد الفضل لصاحب الفضل ، فنعترف أن الباعث الحقيقي لكتابة هذا البحث ، إنما هو « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ، بالقاهرة ، فقد رغب هذا المجمع منذشهور إلى جمهور الأدباء والباحثين ، أن يقدموا إليه بحوثاً قيمة في موضوعات أدبية ، منها « أدب الحروب الصليبية » ، فعجبت لنفسى كيف لم أسبق المجمع إلى هذه الفكرة ، أو كيف أبطأ بى التفكير فيها حتى أعلن المجمع نفسه عنها ؟

ثم لم أكد أضع خطة البحث ، ولم أكد أفرغ منه ، حتى وجدت فى أعماق نفسى هاتفا عجيباً يهتف بى إلى إهداء هذا الكتاب إلى أرواح الشهداء فى فلسطين العربية المجاهدة ، وإلى التبرع بالربح الذى قد تأتى به الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، فى سبيل القضية التى تشغل بال المسلمين اليوم فى جميع أقطار الأرض ، وهى قضية فلسطين .

وسرعان ما استجبت لهذا الهاتف النفسى دون إبطاء ، وقلت فى نفسى يومئذ : إذا لم أقتد بسيرة المشتغلين بالأدب والعلم من قبلى ، بمن بذلوا أموالهم وأقلامهم فى محنة الحروب الصليبية ، وإذا لم أهدت بهديهم ، أو أتأثر بقولهم وفعلهم ، فلا خير فيما قرأته من أخبارهم ، وعرفته من أخلاقهم ، وشهدته من حسن بلائهم . والعلم الذى لا يثمر فى نفس صاحبه عملاً ما يعتبر علماً باطلاً ، فوق أنه مما يحاسب عليه المرء أمام خالقه . على أننى لا مطمع لى فى التشبه بهؤلاء القوم ، ولست من الجرأة على الخلق والتأريخ بحيث أضع نفسى مكانهم ، أو أقرنها بنفوسهم ، فأولئك إنما بذلوا دماءهم وأرواحهم ، وقضوا فى الجهاد حياتهم ، ولم ييخلوا عليه بمواهبهم ، وأما أنا فلا حيلة لى فى شيء من هذا قل أو كثر .

أسأل الله العلى القدير أن يمنح العرب فى فلسطين قوة ينتصرون بها على عدوهم ، ويملكون بها بلادهم ، ويطمثون بها على أرواحهم وأموالهم ، ويكرمون بها إخوانهم اليهود المقيمين معهم إكراماً يتفق مع مروتهم العريضة ، وشهامتهم الإسلامية ، وشرفهم القومى ؟

عبد اللطيف صمزه

مصر الجديدة ١٩٤٨

الفصل الأول

المرحلة الأولى من قصة الحروب الصليبية

وقف البابا أوربان الثاني في مجمع الأساقفة بمدينة كليرمنت ، في اليوم الثامن والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وخطب القساوسة خطبة طويلة مؤثرة ، لعب فيها على وتر ديني حساس ؛ ووجه الحديث أيضا إلى الفرسان والشجعان ، فأيقظ فيهم النعرة العسكرية ، والحمية الحربية ، وشهامة الفروسية ، وأشار لهم بيده إلى الميدان الذي يظهرون فيه شجاعتهم ، ويشحذون فيه بطولتهم ؛ كما وجه الحديث إلى الأمراء ، مخاطبهم يومئذ بلغة المجد التي يفهمونها ، ولوح لهم بالسلطان الذي ينتظرهم هناك ، حيث البلاد التي وطئتها أقدام المسيح ، وتعذب فيها جسده الشريف في سبيل المسيحية . فعلى هؤلاء الأمراء ، وغيرهم من أفراد الشعب الأوربي ، أن يستهينوا بالمخاطر التي يلقونها في سبيل هذه الغاية ، وهي تخلص البيت المقدس من أيدي الكفرة ، وقد كان البابا يسمى المسلمين إذ ذاك بهذا الاسم .

وانظر إلى البابا يقول في خطبته هذه :

« يجب عليكم أن تتعذبوا كثيرا لأجل اسم المسيح ، وأن تتحملوا المشقة والفقر ، وتكابدوا الخفاء والاضطهاد ، وتقاسوا الذل والمرض والجوع والظما وجميع الشرور في الدنيا ، كما قال السيد المسيح لتلاميذه : سأريكم كم ينبغي أن تتألموا من أجل اسمي ؛ وكما قال أيضا : إني أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معاشريكم أن يقاوموها أو يناقضوها ؛ وكما قال أيضا : إنكم ستأخذون ميراثا عظيما . »

ثم اتجه البابا إلى الحاضرين ، وصرخ فيهم قائلا :

« عبدوا طريق الرب ، واجعلوا سبله مستقيمة . »

وما كاد ينتهي البابا من خطبته حتى صاح الجميع صيحة واحدة زلزلت أركان

المؤتمر ، وقالوا في هذه الصيحة :

« هكذا أراد الله . . . ! »^(١) .
ومنذ ذلك اليوم أصبحت هذه الكلمة صيحة عامة للمحاربين الصليبيين تقابل
في كل موقعة من المواقع صيحة من المسلمين : « الله أكبر ، الله أكبر ! » .
وطالما كانت تسمع الصيحتان دائما عند الصدام الأول بين الفريقين .
وتسابق الأمراء المسيحيون في ركوعهم بين قدمي البابا ، وأسرع في أن يضع
شارة الصليب على كل واحد منهم ، وأقسم الجميع له يمين الإخلاص للمسيح ، وتعهدوا له
بالألا يلقوا السلاح حتى يظفروا بهذا الشرف الديني ، وهو تحرير الأماكن المقدسة ،
وتعبيد طريقهم للحجاج المسيحيين ، ليقوموا بحجهم دون أن يتعرض لهم أحد
من الأتراك .

أما الشعب في خارج المؤتمر ، فوصلت إليه أنباء هذه الخطة ، وتولى القساوسة إفهامهم
غايتها ، والغرض منها ، وكان أشدهم تحمسا في إثارة الشعور ، وأوسعهم علما بنفسية
الجماهير ، قسيس عظيم يقال له بطرس الناسك PeteroThe Hermet الذي أخذ يذرع
البلاد الفرنسية طولا وعرضا ، وينشر دعوة الجهاد في سبيل المسيح . وكان من أثر
ذلك أن تحولت فرنسا في وقت قصير إلى أتون من النار يؤججه الدين ، وتحركة
مطامع الأمراء المسيحيين ، وتعين عليه رغبة الفقراء والمساكين في أن يتخلصوا من
غير النظام الإقطاعي .

وإلى هذا الرجل الروحي الكبير ، وهو بطرس الناسك ، يرجع الفضل في إقناع
الدهماء بسلامة الفكره الصليبية ، حتى كان من أثر خطبه الكثيرة ، التي امتزجت فيها
الحقيقة بالخرافة ، أن خرج وراه في أبريل سنة ١٠٩٦ جيش مؤلف من خمسة عشر ألف
صليبي ، قوامه غوغاء أوربا ، فكان أول جيش تألف فيها لهذه الغاية ، وهي استنقاذ
القبر المقدس من أيدي الكفرة . ووصلت هذه الحملة الشعبية التي لا نظام لها إلى آسيا
الصغرى ، وارتكبت هناك طائفة من الفظائع الكبرى ، فتركهم الأمباطور البيزنطي
يجتازون بلاده ويلتقون بالأتراك ؛ وهناك حصدهم هؤلاء الأتراك حصدا حتى أفنوهم ،
ولم يكذب منهم إلا عدد يسير كان فيهم ذلك الناسك الكبير .

(١) اقرأ حوليات مؤرخ مجهول ، نقلها حسن حبشي في كتاب الحروب الصليبية الأولى من ١٠١ ، ١٠٢ .

منذ ذلك الوقت ابتداء تاريخ الحروب الطويلة ، بل الجهود الغنيمة التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين ، وتحملوا في سبيلها من آلام الجوع والعطش ، والعري والمرض ، ما لم يدر بخلد البابا نفسه حين كان يهون عليهم هذه الخطوب ، وينظر بعين الغيب إلى ما ينتظر جنوده وأتباعه في الشرق الإسلامي ، من صنوف العذاب والويل .

إذن لولا ذلك الروح الديني القوي الذي بثه البابا ورجاله في نفوس الأوربيين ، ولولا الغفران وما إليه من الأطماع الروحية التي وعدهم إياها البابا إذا انتصروا على الكفرة الوثنيين - ما استطاع هؤلاء الصليبيون أن يتحملوا عشر معشار الألم الذي تحملوه ، أو يقاسوا جزءا يسيرا من الاضطهاد الذي قاسوه حتى كتب لهم النصر على المسلمين ، وهو نصر زعموا أحيانا أن الفضل فيه ليس للجيش السكيفة التي حاربت بكل قوتها ، ولا للأمراء الصليبيين الذين أنفقوا على الحملة من حسابهم الخاص ؛ وإنما الفضل فيه للقديسين الذين نزلوا فيه « بزعمهم » من السماء ، وعاونوا بأنفسهم في القتال ، وكتب بعضهم يقول : إنه « أبصر كتيبة من السماء وعليها هالات قدسية من النور ، تقدمت الصفوف ، وتسلفت السلام والأسوار المحيطة بمدينة أنطاكية ، ورمت وأصمت »^(١) . وكتب كذلك يقول :

ولما أقبل الليل لاحت في السماء نار مقبلة من الغرب ، حتى إذا دنت سقطت وسط الجيش التركي ؛ فاستولى الدهول الشديد على رجالنا وعلى الترك معا ، فلما تبلى الصباح ، فر الترك المذعورون جزءا من هذه الظواهر العلوية ، وتركوا الحصار الذي ضربوه على أنطاكية في يونية سنة ١٠٩٨ م .

ولئن دلت هذه الأخبار كلها على شيء ، إنها تدل على الروح المعنوي القوي الذي نفثه البابا ورجاله في أولئك القوم ، حتى جعلوهم يرون هذه الأمور الخرافية رأى العين . وتلك حالة عقلية لا شك أن لها نظيرا في المعسكر الإسلامي ، وقد سمعنا بمثلها مرتين في تاريخ الإسلام ؛ أولاها في أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله تعالى : « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » . وقوله تعالى : « إذ تقول

(١) انظر Gesta Francorum نقلها إلى العربية حسن حبشي في كتابه الحروب الصليبية ص ١٤٢ .

للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين .
والمرة الثانية في عهد الحروب الصليبية . ولكن العرب المسلمين لم يقولوا مثل ما قال الفرنج الصليبيون إنهم رأوا الملائكة في كتبية من السماء وعليها هالات من النور الخ . ولا قالوا مثلهم إن نارا لاحت في السماء ، ونزلت في ميدان القتال الخ . ولكنهم اكتفوا بالإشارة إلى أن الله تعالى أعان المسلمين بإنزال الملائكة والروح ، وذلك منهم كناية عن الروح المعنوى القوى الذى شعر به المسلمون في قتالهم ضد الصليبيين ، لا تصريحاً برؤية الملائكة ينزلون في كتبية من السماء ، كما قال بذلك الصليبيون .

ومهما يكن من شيء ، فإننا نسوق مثل هذا القول لغرض واحد فقط هو الوقوف على مدى التأثير الذى تركته الخطط البابوية في نفوس الجيوش الصليبية .

وعندنا أنه بفضل هذه الخطط أولاً نجح الصليبيون في تسكوين الإمارات اللاتينية .
ولكن قبل الكلام على هذه الإمارات ، يحسن بنا أن نشير إلى بعض الطرق التى عمد إليها رجال الدين المسيحى في إثارة الأمم المسيحية ، حتى هبت هبتها لاستنقاذ القبر المقدس .

فمن هذه الطرق مثلاً : أنهم رسموا صورة لقبر المسيح ، وعليه فارس مسلم يدوس القبر بجواده ، ويسمح لهذا الجواد ، فيبول عليه أيضاً (١) !
وقيل : بل صوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا معه صورة عربى يضربه ، وجعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا : « هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين ، وقد جرحه وقتله » (٢) .

ومنها — أى من الطرق — الأحلام والرؤى . فمن ذلك أن أحد الأمراء الصليبيين وهو ريموند الضنجبلى ، لما رأى الخور والضعف اللذين استوليا على قلوب المقاتلين وهم يحاصرون عكا ، رتب مع راهب حيلة ، فقال له : اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا ، ثم قل للفرنج بعد ذلك : رأيت المسيح في منامى وهو يقول : فى المكان

(١) انظر كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٠

(٢) انظر كتاب مفرج الكروب ج ١ ص ٣٣٦

الفلاحي حربة مدفونة - فاطلبوها ، فإن وجدتموها فالظفر لكم ، وهي حربتي . هذه هي الرواية الإسلامية لقصة الحربة المقدسة . وأما الرواية الصليبية فتقول : إنه كان هناك حاج في جيشنا اسمه بطرس ، تراءى له القديس أندراوس الرسول قبل دخولنا المدينة (يريد أنطاكية) وقال له :

ماذا تفعل أيها الصنديد ؟ فأجابه : وأنت من أنت ؟ فقال له الرسول : أنا الحواري أندراوس . اسمع يا بني : حين تدخل المدينة عرج على كنيسة القديس بطرس ، وستجد بها الحربة التي طعن بها مخلصنا يسوع المسيح حين رفع على الصليب . ثم اختفى الرسول بعد أن أخذه وسار به شطر الناحية التي كانت الحربة مطمورة فيها تحت الأرض ^(١) . هذا وغيره من طرق الإثارة والتشجيع على الأتراك السلجوقيين من المسلمين ، الذين أصبحوا شجا في حلق الأوربيين ، وقذى في عيونهم منذ ذلك الحين . هكذا فعلت الخطط الباباوية ، فعلها في نفوس الأوربيين ، فاجتمع للبابا بعد الفراغ من خطبته ألوف مؤلفة من الناس الذين أخذوا على أنفسهم ميثاقا غليظا لينذرون عن البيت المقدس بالأموال والأنفس والثرات .

وسرعان ما أخذ الأوربيون أهبتهم للقيام بالحملة الصليبية الأولى ، وفيها بلغ عدد المحاربين ميتين وثلاث مئة ألف مقاتل ؛ لم يكن لهم قائد واحد ، وإنما كانت قيادتهم موزعة بين عدة أمراء ، كان من أهمهم يومئذ : جودفري Godfrey وأخوه بلدوين Baldwin ، وريموند Raymond ، وبوهمند Bohemont وغيرهم . وسار الجميع حتى وصلوا إلى البسفور ، ثم التحموا بصاحب سلطنة الروم من السلاجقة ، وهزموا جيوشه عند نيقية . ثم ظهر الخلاف بينهم ، ودبت الفرقة في صفوفهم ؛ كل يريد لنفسه القيادة ، ولجنده الصدارة . ثم انفصل عنه بولدوين ، فذهب إلى جهة الرها « Edessa » ، إجابة لطلب أميرها ، وأسس بها أول إمارة لاتينية ، ونصب نفسه أميراً عليها . أما الأمراء الآخرون فقصدوا إلى أنطاكية ، وحاصروها تسعة أشهر كاملة ، ثم دخلوها عنوة ، وقتلوا من أهلها عشرة آلاف أو يزيدون ؛ وأسسوا لهم إمارة لاتينية ثانية ، واختاروا من بينهم بوهمند لتولى أمرهم .

(١) انظر كتاب الحرب الصليبية الأولى ص ١٥٠ . نقل عن Gesta Francorum .

ثم ما كاد المقام يستقر بهم في هاتين الإمارتين قرابة عامين ، حتى اشتاقت نفوسهم إلى الهدف الذي أتوا من أجله إلى بلاد المشرق ؛ وهو دخول بيت المقدس . فجمعوا صفوفهم ، ووجدوا كلمتهم ، واستأنفوا جهودهم ، واستطاعوا أخيرا أن يؤسسوا لهم إمارة صليبية ^{ثالثة} ؛ هي أهم في نظرهم من جميع الإمارات اللاتينية السابقة ، لأنها قامت في بيت المقدس . وانتخبوا جودفرى ليكون ملكا على هذه الإمارة الهامة ؛ فلم يرض جودفرى لنفسه هذا اللقب ، واختار بدلا عنه لقب (حامي قبر المسيح) ، ولم يكتف الصليبيون بذلك ، بل أخذوا يمدون سلطانهم إلى بعض الثغور ؛ ومن أهمها عكا وصور ، وتيسر لهم بعد ذلك تأسيس الإمارة اللاتينية الرابعة ، وهي إمارة طرابلس . وهذا موجز لما وصف به المؤرخون الأوربيون الحملة الصليبية الأولى ، وذلك بصرف النظر طبعاً عن أوصاف الجوع والعطش والعري ، والصعوبات المادية والمعنوية التي اعترضت الصليبيين في هذه الحملة ، إلى أن وفقوا أخيرا إلى تأسيس هذه الإمارات اللاتينية

فبم أجاب المسلمون عن هذه الحركة ؟

نشأت المقاومة الحربية التي أجاب بها المسلمون عن هذه الحركة أولا (بالموصل) ، وثانيا (بجلب ودمشق) ، وثالثا (بمصر) .

ومعنى ذلك أن الأتراك السلجوقيين هم أصحاب الفضل الأول في مهاجمة الصليبيين ؛ وبعبارة أخرى : إذا كان على الإسلام والمسلمين أن يشكروا الدولة التي جاهدت في سبيلهم ضد الصليبيين ، فإنهم يشكرون الدول التركية وحدها ، قبل أن يشكروا الخلافة العباسية نفسها ، أو الخلافة الفاطمية التي كانت وقت قيام الحرب الصليبية في غاية العظمة والقوة .

وكم يتعجب الباحث حقا من إهمال الخلافة الفاطمية يومئذ مع قوتها وعظم هيبتها ، حتى لسكان الدولة الفاطمية في مصر نظرت إلى انتصار الصليبيين في الشرق على أنه مانع قوى للترك من محاولة غزو مصر .

أجل ؛ لقد أهملت الخلافة الفاطمية الدفاع الحقيقي عن الإسلام ، وهاك البرهان : أشرنا أولا إلى أن الفرنج نجحوا في أخذ الرها وأنطاكية . فلما وقع ذلك اجتمع

من ملوك الإسلام صاحب الموصل ، وصاحب ماردين ، وصاحب سنجار ، وهم جميعاً من ملوك السلاجقة . أمامصر - وكان أمرها يومئذ إلى الوزراء دون الخلفاء - فإن وزيرها (الأفضل بن بدر الجمالي) لم ينهض بإخراج العساكر المصرية . قال التاريخ : وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجهم مع قدرته على المال والرجال (١) ؟ .

ثم قال التاريخ : والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوات ، حتى إنهم أكلوا الميتة ، وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة ، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم ، وانكسر أصحاب الجرد السوابق ، ووقع السيف في المجاهدين والمتطوعين ، فكتب أمراء السلاجقة إلى الخليفة المستظهر العباسي يستنصرونه ، فأمر الخليفة من ذهب من قبله إلى (بركياروق) (٢) بن السلطان ملك شاه السلجوقي يستنجده . كل ذلك وعساكر مصر لم تهباً للخروج (٣) .

وحينما كان الفرنج يحاصرون بيت المقدس كان به (افتخار الدولة) من قبل المستعلي بالله خليفة مصر ؛ فبقى الفرنج في حصاره أربعين يوماً ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي ، فأبطأ في الخروج ، ثم خرج بعشرين ألفاً من عساكره ، ووصل القدس بعد إذ نجح الفرنج في دخوله والاستيلاء عليه فعلا . فعاد الأفضل إلى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج الذين بقي القدس في أيديهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولما تم للفرنج أخذ بيت المقدس وضعوا السيف في أهله ، ووصلوا بخيولهم إلى معبد سليمان ، وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم ، وأقاموا تلك المذبحة الشنيعة ، التي وصفها جودفري في خطاب له بعث به إلى البابا قائلاً : إن خيولنا كانت تخوض إلى ركبتيها في بحر من دماء الشرقيين في إيوان سليمان ومعبد .

فعل الصليبيون المسيحيون بالقدس كل ذلك ، فلما وصلت هذه الأخبار السيئة كلها إلى دمشق ، هاج الناس فيها وماجوا ، وخرج المستنفرون منها ، ومعهم قاضي المدينة

(١) اقرأ النجوم الزاهرة : (ج ٥ ص ١٤٧ وما بعدها ، طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) كان بركياروق السلجوقي بن ملك شاه صاحب النفوذ المطلق في بغداد إذ ذاك . وكان يذكر اسمه في الخطبة بعد الخليفة .

(٣) النجوم الزاهرة : (ج ٥ ص ١٤٨) .

« ووصلوا إلى بغداد ، وحضروا في الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا وبكوا .
وقام القاضي في الديوان ، وأورد كلاماً أبكى الحاضرين ، وندب من الديوان من يمضي
إلى العسكر السلطان ، ويعرفهم بهذه المصيبة ، فوقع التقاعد لأمر يريده الله تعالى .
ومن الشعر الذي قيل إذ ذاك في ديوان الخلافة ، قول أب المظفر الأيوودي ، من
قصيدة نثبتها على رواية ابن الأثير ، وأولها : (١)

مزجنا دماءً بالدموع السواجم	ولم يبق منا عرضة للراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فياها بني الإسلام إن وراءكم	وقائع يلحقن الذرا بالمناسم
اتهوية (٢) في ظل أمن وغبطة	وعيش كنوار الخيلة ناعم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشأم يضحي مقلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي	توارى حياة حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا	وسمر العوالي داميات اللهازم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة	تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها	ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم
يكاد لهن المستجن بطيية	ينادي بأعلى صوته يالهاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدا	رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعراب بالأذى	ويغضى على ذل كُماة الأعاجم ؟
ومنها : فليتهم إذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإذ زهدوا في الأجر إذ حسم الوغى	فهل أتوه رغبة في المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى	فلا عطسوا إلا بأجدع راغم

(١) انظر ابن الأثير ج ١٠ في حوادث سنة ٤٩٢ هـ .

(٢) التهويم والتهوم هز الرأس من الغاس .

دعوناكم والحرب تنو ملحمةً إلينا بألحاظ النور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية تظيل عليها الروم عضاً الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رُمينا إلى أعدائنا بالجرائم
ثم انبرى للقول شاعر آخر فقال (١) :

أحلّ الكفر بالإسلام ضيماً يطول عليه للدين النجيبُ
فحقّ ضائع وحمى مباحٌ وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليباً ومسلمة لها حرمٌ سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوقٌ وتحريق المصاحف فيه طيب !
أمور لو تأملهن طفلٌ لطفل في عواقبه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذن يطيب ؟
أما لله والإسلام حق ؟ يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا أجيئوا الله ويحكم أجيئوا

وقال الناس في هذا المعنى مرات .

قال التاريخ : ولكن القاضى ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة ، ولا
قوة إلا بالله (٢) .

أرأيت إذن كيف تقاعدت عن الجهاد كل من الخلافة العباسية من جانب ، والخلافة
الفاطمية من جانب آخر ؟ أرأيت إذن كيف تركت كل منهما بلاد الإسلام للفرنج
يا كلون منها ما يا كلون ، ويتركون منها ما يتركون ؟

فهذا الخليفة العباسى يشهد بنفسه ذلك المآثم الإسلامى الكبير الذى أقامه المستنفرون
من دمشق فى ديوان الخلافة نفسه ، فلا يفعل الخليفة شيئاً أكثر من أن يبعث إلى
السلطان السلجوقى يستنجده !

وهذا الخليفة المصرى يعتمد على وزيره الأفضل بن بدر الجمالى ، ويتقاعد هو عن
الجهاد ، ويتهاون فى أمر البلاد ، حتى يأخذها الفرنج عنوة ، وبغير دفاع يذكر .

(١) النجوم الزاهرة (ج ٥ ص ١٥٢) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

قال المؤرخ : من ذلك يظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه :

الأول — من تقاعدهم عن المسير في هذه المدة الطويلة .

والثاني — لضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر ، ولو كان لعسكر

الأسطول قوة لدفع الفرنج .

والثالث — لم لا خرج الوزير الأفضل بن أمير الجيوش بالعساكر المصرية (يريد

في الوقت المناسب) هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة ، فله الأمر من

قبل ومن بعد ^(١) .

ولننص في عرض قضيتنا والتدليل عليها ، فنقول :

ولما حاول الفرنج امتلاك صور — وكان ذلك في عهد خليفة مصر الأمر بالله

الفاطمي — دافع أهل المدينة دفاعا مجيدا عن أنفسهم ، وكتب أميرها سيف الدولة

إلى الأفضل بن بدر الجمالي يستنجد به ، فانظر بهم أجابه الوزير ؟ لقد أجابه بقوله :

« لقد رد دنا أمرها — يريد أمر صور — إلى الآتابك ظهير الدين طغتكين صاحب

دمشق ، ليتولى حمايتها والذب عنها ، وبعثنا له منشورا بذلك ^(٢) » .

بالضعف الذي أصاب مصر في ذلك الوقت ! يستنجد بها أمير من أمرائها في ثغر

من الثغور التابعة لها ، فيجاب — في بساطة — بأن أمر هذا الثغر قد رد إلى الآتابك

الذي يلي حكم دمشق !! .

في ذلك الوقت كان شيء من نزاع قد دب بين أولاد السلطان ملكشاه السلجوقي ،

ثم وقع الصلح بينهم ، وقسموا الملك عليهم بما أرضى كل واحد منهم ، ولم يبق إلا أن

يبدأ هؤلاء الأبطال السلاجقة عملهم ؛ فكان أول ما فعلوه من ذلك ، أن اجتمع منهم

— كما ذكرنا صاحب الموصل ، وصاحب حلب ، وصاحب ماردين ؛ ونازلوا

الصلبيين ، ونصر الله المسلمين ، وقتلوا من أعدائهم عشرة آلاف ، وكان ذلك عام

٤٩٧ هـ ^(٣) .

(١) نفس المصدر المتقدم ص ١٧٩ — ١٨٠

(٢) » » » ص ١٨١

(٣) » » » ص ١٨٨

وفي عام ثلاثة وخمسة اجتمع من ملوك السلاجقة صاحب إرمينية ، وصاحب الموصل ، وصاحب ماردين ؛ وبدءوا جهادهم (بالرها) ، وانتصروا يومئذ على الصليبيين الذين اجتمعوا هنالك من القدس وطرابلس وأنطاكية .

غير أن النصر لم يكن في الموقعتين السالفتين نصرا حاسما ، فلم يستطع السلاجقة يومئذ استخلاص الرها ولا غيرها من أيدي الصليبيين .

وحدث بعد ذلك أن مات الأتابك ظهير الدين طغتكين حاكم دمشق ؛ فتولى أمرها من قبل السلطان السلجوقي أول بطل حقيقي من أبطال المسلمين المعروفين في تاريخ هذه الحروب ، وهو الأتابك عماد الدين زنكي حاكم الموصل . وذلك في عام ٥٠٧ هـ فلم يزل هذا البطل العظيم منذ ولى أمر دمشق يجاهد الصليبيين حتى نجح في طردهم من أول إمارة لهم ، وهى إمارة الرها ، فافتتحها ، وهدم أسوارها ، وأمن من بها من النصارى على أنفسهم ، وأحسن إليهم ، وكان ذلك عام ٥٣٩ هـ (١) .

وبذلك طويت أول صفحة من صفحات الجهاد الذى كتب على أبطال المسلمين ضد الصليبيين . ومات هذا البطل الأول من أبطالهم ، وهو زنكى ، عام ٥٤١ هـ .

وكان له بنون ثلاثة وهم : سيف الدين غازى ، وقطب الدين مودود ، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد ، والآخر هو بطل المرحلة الثانية من مراحل هذا الجهاد الصليبي المرير .

وقبل الانتقال إلى هذه المرحلة الثانية التى اقترنت باسم نور الدين ينبغى لنا أن ننظر إلى الشعر الذى قيل فى المرحلة الأولى التى أوجزنا فيها الحديث ، ونحن نعلم أن الشعر والتاريخ كانا يتعاونان دائما على تحميس الجند فى الميدان ، وعلى إثارة الرأى الإسلامى العام بين آن وآن ، وعلى أغراض أخرى تدور كلها حول معنى واحد ، هو معنى الاستشهاد فى سبيل الله .

(١) النجوم الزاهرة : (ج ٥ ص ٢٧٥)

الفصل الثاني

الشعر في خدمة عماد الدين

كان أمام زنكي قوتان كبيرتان ، هما : قوة الروم الشرقيين المستقرين في بيزنطة ، وقوة الفرنج الصليبيين الذي أغاروا على الشرق ، وكونوا فيه إماراتهم الصليبية كما رأينا . وحدث أن استولى ملك الروم عنوة على حصن يقال له (حصن بزاغا) ، وذلك عام ٥٣٢ هـ . ثم قصد حماة وشيزر في جموع كثيرة من الفرنج ، ألقت الرعب في قلوب المسلمين الذين علموا أن الروم إذا ملسكوا شيزر لم يبق لمسلم معهم مقام .

ولم يكن لزنكي بالفرنجة قوة لسكوتهم ، فأخذ يدس إلى الإمبراطور (ملك الروم) من يخوفه على نفسه شر الفرنج الذين أتوا من أوربا ، كما أخذ يدس على الفرنج من يخوفهم على أنفسهم من الروم ، حتى اشتد شعركل منهما الخوف من الآخر ، فرحلوا إلى بلادهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وانتصر عليهم زنكي بهذه الحيلة ، ثم بغتهم وظفر بطائفة منهم ، وأقبل الشعراء على زنكي يتغنون بانتصاره عليهم . وكان من أولئك الشعراء رجل يقال له (أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم الحموي) الذي قال (١) :

بعزمك أيها الملك العظيم	تذل لك الصعاب وتستقيم
ألم تر أن كلب الروم لما	تبين أنك الملك الرحيم
جاء يطبق الفسلاوات خيلا	كأن الجحفل الليل البهيم
فحين رميته بك في خميس	تيقن أن ذلك لا يدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشا	فأحزن لا يسير ولا يقيم
كأنك في العجاج شهاب بور	توقد وهو شيطان رجيم
أراد بقاء مهجته فسوَّى	وليس سوى الحمام له حميم
يؤمل أن تجود بها عليه	وأنت بها وبالدينيا كريم
أيلتمس الفرنج لديك عفوا	وأنت بقطع دابرها زعيم

وكم جرعتها غصص المنايا يسوم فيه يكتهل الفطيم
إلى آخر مقال .

وهان أمر الفرنج بعد ذلك على زنكي ، فاستطاع أن يأخذ منهم حصنا في طرابلس ،
اسمه (حصن عرفة) ، ثم أخذ منهم قلعة (دارا) . وفتح بلدة (شهر زور) ، ومدينة
(بعلبك) . ثم التقى زنكي بالفرنج عند حصن يقال له (حصن بارين) ، وصبر الفريقان
صبرا لم يسمع بمثله ، ثم نصر الله المسلمين نصرا . ووقع في أسرهم بعض ملوك
الفرنج ، وفيهم ملك البيت المقدس نفسه . كل ذلك والنجدة التي كان لا بد أن تأتي
للفرنج من إخوانهم بالساحل لم تصلهم . في أثناء الحصار الذي ضربه زنكي على حصون
الفرنج بالشام ، استطاع أيضا أن يأخذ منهم (المعرة) و (كفر طاب) . فطابت نفسه ،
وقرت بذلك عينه ، وجلس لسماع الشعراء يهنئونه بما من الله عليه من النصر ، فقدم
عليه الشاعر أبو عبد الله محمد بن نصر بن صفير المعروف (بابن القيسراني) فأنشده قوله : (١)

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقى ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلوا سيوفا كأعماد السيوف بها صالوا فما أغمدوا نصلا ولا شهروا
حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم في مازق من سنه يبرق البصر
ولوا تضيق بهم ذرعا مسالكهم والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الإفرنج قاطبة فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٣٤) .

وابن القيسراني هو محمد بن نصر بن صفير بن داغر بن محمد بن خالد ، من ولد خالد بن الوليد الصحابي
الجليل ، شرف الدين الخزومي الحلبي . كان شاعرا مجيدا ، وأديبا متفتنا . وكان هو وابن منير الطرابلسي
شاعري الشام في عهد الملك العادل بن زنكي . ولهما القصائد الطنانة في مدحه ، قرأ الأدب على توفيق بن
محمد الدمشقي وابن الحياط الشاعر ، وسمع بحلب من هاشم بن أحمد الحلبي ، وأبى طاهر الخطيب ، وسمع منه
أبوسعد السمعاني والحافظ بن عساكر وأبو المعالي الخطيري الأديب الشاعر وغيرهم .

وكان هو وابن منير يشبهان بالفرزدق وجريير ، للمناقضات والوقائع التي جرت بينهما ، واتفق موتهما في
جمادى الآخرة . وفي ثاني عشر شعبان وصل إلى دمشق ابن القيسراني باستدعاء الأمير مجير الدين . فمات
بعد وصوله بعشرة أيام . وذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٤٨ هـ وكانت ولادته
سنة ٤٧٨ هـ ، وله شعر كثير مدون أجاد في أكثره .

(معجم الادباء لياقوت ط أوربا ج ٧ ص ١١٢) .

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا
وطالما استفحل الخطب بهم حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف مفترع أبكار أنفسهم ومن هنالك قيل الصارم الذكر
وكان في طرابلس شاعر آخر بقى هو وابن القيسراني — كما يقول القدماء — فرسى
رهان ، وفارسي ميدان . وكان يقرن بعضهما ببعض كما يقرن الفرزدق بجريز في العصر
الأموي ، وحافظ وشوقي في العصر الحديث . وهذا الشاعر الآخر هو أبو الحسن
أحمد المعروف بابن منير أنشد يومئذ (١) قوله :

فدتك الملوك وأيامها ودام لنقضك إبرامها
وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها
ولولم تسلم إليك القلوب هداها لما صح إسلامها
أيا محي العدل لما نعاها أيامي البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة أزال المحاريب أصنامها
جزرت جزيرتها بالسيوف حتى تشاءمها شامها

وأراد الفرنج بعد ذلك أن يتسداركوا أمرهم ، ويجبروا كسرهم ، فأتوا بجموعهم
ينزلون مدينة حلب . ثم رأوا أن يرحلوا عنها خوفا من عماد الدين زنكي الذي فتح
بعد ذلك آمد ، وحمص ، وديار بكر ، يريد بذلك كله أن يخدع صاحب الرها ، فيفهم
هذا خطأ أن عماد الدين مشغول عنه بهذه الفتوح ، وأن في استطاعة صاحب الرها أن
يترك بلاده إلى حين . ثم ما كاد صاحب الرها يفعل ذلك حتى زحف على بلاده عماد الدين
زنكي — كما يقول ابن الأثير :

بجيش جاش بالفرسان حتى ظننت البر بحرا من سلاح
والسنة من العذبات حمر تخاطبنا بأفواه الرماح
وأروع جيشه ليل بهم وغرته عمود للصباح
صفوح عند قدرته ولكن قليل الصفح ما بين الصفاح
وكان ثباته للقلب قلبا وهيئته جناحا للجناح (٢)

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٣٥)

(٢) الروضتين ، نقلا عن ابن الأثير : (ج ١ ص ٣٧) .

وتم لعماد الدين زنكي فتح هذه المدينة العظيمة ؛ وهو فتح توج به حياته ، وخلد به ذكره بعد وفاته . وكان ذلك الفتح عام ٥٣٩ هـ بعد حصار دام ثمانية عشر يوما .
يقول أبو شامة : « وهذه الرها من أشرف مدن النصارى ، وأعظمها محلا ؛ وهي إحدى السكراسى عندهم ؛ فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية ثم الرها . »

ولهذا كان فتح الرها من أعظم الفتوح الإسلامية التي طار ذكرها في الآفاق ، وطرب المسلمون لسماعها في جميع الأقطار ، وشهدوا طائفة كبيرة من رجال الدين ، وذلك على عادة المحاربين في تلك العصور من استصحاب الفقهاء والمتصوفة والصالحين معهم بقصد التبرك بهم ، والالتفاف بدعواتهم ، والتحمس بوجودهم بين الصفوف .
وقد أتاح هذا النصر فرصة عظيمة للشاعرين الكبارين : ابن القيسراني وابن المنير ، فصلا وجالا ، وأكثرنا من قول الشعر . ومن ذلك ما قاله ابن القيسراني (١) :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده	وهل طوق الأملاك إلا نجاده ؟
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا	سناها وإن فات العيون اعتقاده
سمت قبة الإسلام نفرا بطوله	ولم يك يسمو الدين لولا عماده
وذاقسيم الدولة (٢) ابن قسيمها	عن الله ما لا يستطيع زياده
ليهن بني الإيمان أمن ترفعت	رواسيه عزرا واطمأن مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه	شهى إلى يوم المعاد معاده
لقد كان في فتح الرهاء دلالة	على غير ما عند العلوج اعتقاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة	يفل حديد الهند عنها حداده
وجاححة عز الملوك قيادها	إلى أن ثناها من يعز قياده
فأضرمها نارين حربا وخدعة	فما راع إلا سورها وانهداده
فصدت صدود البكر عند افتضاضاها	وهيات كان السيف حتما سفاده

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٣٧) .

(٢) قسم الدولة آق سنقر هو أصل البيت الأتابكي ، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه السلجوقي وأترابه ، فولاه مدينة حلب وأعمالها ، ثم ملك الموصل وديار بكر والجزيرة بأسرها ، وظهرت له كفاية نادرة ، ثم مات عام ٤٨٧ هـ وخلفه ولده عماد الدين زنكي . ومات هذا خلفه ولده نور الدين محمود .

فياظفرا عمَّ البلاد صلاحه بمن كان قد عم البلاد فساده
فلا منبر إلا ترنج عوده ولا مصحف إلا أنار مداده
إلى أين يا أسرى الضلالة بعده لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدها مالمسكها إن البلاد بلاده
ولله عزم ماء سيحان ورده وروضته قسطنطينية مستتراده

أما ابن منير فقال يومئذ قصيدة منها ^(١) :

وما يوم كلب الروم إلا أخوالذي أزحت به مافي الجناحين من نبل
أتاك بمثل الروم حشدا وإنه ليفضل أضعافاً كثير أعن الرمل
فقاتلته بالله ثم بعزمه تصك قلوب العاشقين بما يسلي
توهم أن الشام مرعى وما درى بأنك أمضى منه في الشزر والسحل ^(٢)

فطار وخير المغنمين ذماؤه إذا رد عنه مخم المال والأهل

ومدح ابن منير عماد الدين زنكي كذلك بقصيدة أخرى عقب فتح الرها ،
ومنها قوله ^(٣) :

ملك أسهر عيننا لم تزل همها تشريد هم الراقين
لا خلت من كحل النصر فقد فقأت غيظاً عيون الحاسدين
كل يوم مر من أيامه فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الإنصاف في أوصافه كان أولاهها أمير المؤمنين
ومنها : والرها لو لم تكن إلا الرها لكفت قطعاً لشك الممترين
هم قسطنطين أن يفرعها ومضى لم يحو منها قسط طين
ولكم من ملك حاولها فتحلى الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلا أنها منه كالنجم لرأى المبصرين
ومنها : شام منه الشام برقاً ودقه مؤمن الخوف مخيف الآمنين

(١) نفس المصدر ص ٣٣

(٢) شزر الحبل فتله عن اليسار ، وغزل شزر على غير استواء والسحل الحبل الذي على قوة واحدة .

(٣) نفس المصدر المتقدم ص ٣٩

كم كنيس كنست قد رامها منه بعد الروح في ظل السنين ؟
ومنار يجتلى صلبانه بين بيض تتبارى في البرين
قرعته البيض حتى بدلت قرعة الناقوس تشويب الأذين
ومنها : قل لقوم غرهم إمهاله ستذوقون شذاه بعد حين
من يطع ينبج ومن يمكر يكن من غداة عبرة للآخرين
أقسم الجد بأن تبقى لكى تملك الأرض يمينا لا يمين
وتفيض العدل في أقطارها منسيا مؤلم عسف الجائرين
لا تزل دارك كيف انتقلت كعبة محفوظة بالطائفين
كل يوم يتحلى جيسدها من نظيم المدح بالدر الثمين
كلما أخلص فيها دعوة لك قالت ألسن الخلق : أمين

وقد أجاد ابن منير في نونيته الأخيرة ، ووشحها بالبديع ، ولسكنه لم يسرف إسرافاً
يذهب بجمال المعاني التي مدح بها عماد الدين ، ولا بجمال الموسيقى التي اختارها لهذه القصيدة
ولا بأس عندي هنا بالجناس في قوله :

هم قسطنطين أن يفرعها ومضى لم يحو منها قسط طين

ثم مات عماد الدين زنكي ، ورثاه الشعراء ، ووصفه المؤرخون . فن ذلك ما قاله
أبو شامة (١) :

لاقي الحمام ولم أكن مستيقنا أن الحمام سيبتلى بحمام
فأضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، فأى نجم الإسلام قد أفل ، وأى
ناصر للإيمان رحل ، وأى أسد افترس ، ولم تنجحه قلة حصن ولا صهوة فرس ،
فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته ، وكم أذهبها في حفظه وحراسته ، فأتاه مبيد الأمم
ومهيئها في الحدث والقدم ، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا ، وبعد وثير المضاجع
في التراب معفرا مقبورا . الخ . وأتى أبو شامة على شيء من سيرة عماد الدين ،
فوصفه بالعدل والاستقامة والحكمة والزهد في اقتناء الأملاك والنهي عن ذلك .

وكان من حسن سياسته ، أن الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم من أحوالها شيئا . وكان عماد الدين زنكي يقول في ذلك : إن البلاد كبستان عليه سياج ، فمن هو خارج السياج يهاب الدخول ، فإذا خرج منها من يدل على عورتها ، ويطمع العدو فيها ، زالت هيبتها ، وتطرق الخصوم إليها .

« وأما شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما ، وبه كانت تضرب الأمثال . ويكفي في معرفة ذلك أن ولايته أحرق بها المنازعون والأعداء من كل جانب : الخليفة المسترشد ، والسلطان مسعود ، وأصحاب إرمينية ، وركن الدولة ، وصاحب حصن كيفا ، وابن عمه صاحب ماردين ، ثم الفرنج ، وصاحب دمشق . وكان ينتصف منهم ، ويغزو كلا في عقر داره ، ويفتح بلادهم ، ماعدا السلطان مسعودا فإنه كان لا يباشر قصده . »
ومن الذين رثوا عماد الدين زنكي شاعر يقال له (أبو الحسكيم المغربي) في قصيدة له ، منها (١) :

عين لا تذخرى المدامع وابكى	واستهلى دما على فقد زنكى
لم يهب شخصه الردى بعد أن كا	نت له هيسة على كل تركى
إن دارا تمدنا بالرزايا	هى عندى أحق دار بترك
فاسكبوا فوق قبره ماء ورد	وانضحوه بزعفران ومسك
كل خطب أتت به نوب الدهر	ر يسير فى جنب مصرع زنكى
بعد ما كاد أن تدين له الرو	م ويحوى البلاد من غير شك

ومن رثوا عماد الدين شاعر يقال له (الرئيس أبو يعلى التيمى) في قصيدة له منها (٢) :

كذلك عماد الدين زنكى تناثرت	سعادته عنه وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر	وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
ومن صافنات الخيل كل مطهم	يروع الأعادى حليه وبراجمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه	وشاخ حصن لم تفته غنائمه
ودانت (٣) لالة الأرض فيها لامره	وقد أمتهم ككتبه وخواتمه
وأصبح سلطان البلاد بسيفه	وليس له فيها نظير يواحه

(١) نفس المصدر ص ٤٦ . (٢) نفس المصدر ص ٤٥ . (٣) فى الأصل : وكانت .

فلما تنهى ملكه وجلا
أتاه قضاء لا ترد سهامه
وأضحى على ظهر الفراش مجدلا
وقد كان في الجيش اللهم مبيته
وسمر العوالي حوله بأ كفهم
وكم رام في الأيام راحة سره
وكم نغر إسلام حواه بسيفه
فمن ذا الذي ينجو من الدهر سالما
ومن رام صفو في الحياة فمأثرى
فياك لا تغبط مليكا بملكه
وقل للذي يبني الحصون لحفظه
وراعت ولاية الأرض منها لوائمه
فلم تنجيه أمواله ومغانمه
صريعا تولى ذبحه فيه خادمه (١)
ومن حوله أبطاله وصوارمه
تذود الردى عنه وقد نام نأمة
وهمة تعالو وتقوى شكائمه
من الروم لما أدركته مراحمه
إذا ما أتاه الأمر والله حاتم
له صفو عيش والحمام يحاومه
ودعه فإن الدهر لا شك قاصمه
رويدك ما تبني فدهرك هادمه !!

وهكذا انقضت المرحلة الأولى من مراحل الحروب الصليبية ، وهي مرحلة
أكسبت المسلمين كسبا عظيما بافتتاح الرها ، ولو أن بطل هذه المرحلة ، وهو زنكي ،
مُد له في عمره ، لسار على خطته التي اختطها لنفسه ، حتى أزاح الفرنج عن إمارات
أخرى . ولكنه مات وترك تنفيذ ذلك لولده نور الدين . وسنرى كيف استطاع هذا أن
يحقق للمسلمين بعض آمالهم في طرد الفرنج الصليبيين .

أما الأدب فقد ظفر بشاعرين عظيمين من شعراء الشام ؛ وهما ابن القيسراني
وابن منير ؛ كانا من طلائع الشعراء الصليبيين ، بل كانا ثمرة من ثمرات الجهاد الصليبي
المرير ، وباكورة هذا الحقل الأدبي الجديد : حقل الحروب الصليبية ؛ وهو الحقل
الذي تعهده المسلمون جميعا بالثناء . حتى طلع علينا بزهور يانعة هي « الأدب الصليبي » .

وليس عندنا ما نلاحظه على شعر هذين الشاعرين إلى الآن ، إلا أنهما كانا - كما
رأيت - يميلان نوعا ما إلى البديع ، وخاصة الجناس والطباق .

فمن ذلك ما قاله ابن القيسراني :

وأصبح الدين لا عيننا ولا أثرنا يخاف والكفر لا عين ولا أثر

(١) إشارة إلى أن الذي قتله أحد مماليكه وهو نائم بقلعة جعبر ، وكانت آخر ما اشتغل زنكي بمحصار
قبل موته .

وقوله :

فيا ظفرا عم البلاد صلاحه بمن كان قد عم البلاد فساده
وفي البيتين السابقين طباق ، وإن كان ابن القيسراني غير كلف به ولا بالبديع إلى
الحد الذي وصل إليه ابن منير حيث يقول :

وزلت لعيشك أقدامها وزال لبطشك إقدامها
وقوله :

جزرت جزيرتها بالسيو ف حتى تشاءمها شامها
وقوله — كما قدمنا :

هم قسطنطين أن يفرعها فمضى لم يحو منها قسط طين
وكل هذا من الجنس الذي كان ابن منير أحرص عليه من صاحبه ابن القيسراني .
وقد كلف ابن القيسراني أحيانا في شعره بالتقسيم الموسيقي ، في مثل قوله :

إن قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا

أو طاردوا طردوا أو حاصروا حاصروا

وهو تقسيم يذكركنا بقول مسلم بن الوليد في وصف بطل :

موف على مهج واليوم ذو رهج

كأنه أجل يسعى إلى أمل

ولكن الفرق عظيم جدا بين البيتين السابقين ، فبيت مسلم بن الوليد أقوى وأجمل ،
وذلك لخلوه من هذا العيب الذي لحق بيت ابن القيسراني ، وهو تكرار المعنى الواحد
أربع مرات بألفاظ مختلفة ، فالقتال والمحاربة والمطاردة والحصار كلها بمعنى واحد ؛
ومن ثم كان هذا البيت عيبا من عيوب ابن القيسراني لا مزية له .

ولابن القيسراني كذلك عناية أشد بالمعنى أو الفكرا في مثل قوله :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وقل رشاده

رويدكم لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده

وقل للملوك الكفر تسلم بعدها مما لكها إن البلاد بلادها

فالعناية بالمعنى هنا أشد من العناية بالبديع ، وإن كان المعنى الذي أورده في البيت

الثاني من هذه الأبيات الثلاثة ، مما لا يتفق وذوق أهل السنة ، وإنما يتفق وأذواق الشيعة .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من قصة حروب الصليبيين

مات زنكي وترك أولادا ثلاثة، وهم: سيف الدين غازي، ونور الدين محمود، وقطب الدين مودود. أما أولهم وهو غازي، فخلف أباه على الموصل. وأما الثاني، وهو نور الدين محمود، فأشار عليه صديقه أسد الدين شيركوه، وهو عم صلاح الدين الأيوبي، بالسير إلى مدينة حلب (لأن ملك الشام يحصل بمدينة حلب، ومن ملكها استظهر على جميع بلاد الشرق^(١)). ففعل نور الدين ذلك تاركا الموصل لأخيه الأكبر غازي، ولم ينازعه فيها.

وبموت هذا البطل الأول من أبطال المسلمين، وهو عماد الدين زنكي، عام ٥٤١ هـ أسدل الستار على الدور الأول الذي لعبته أول مدينة إسلامية على مسرح الحروب الصليبية، وهي مدينة (الموصل). وانتقلت المقاومة الإسلامية العنيفة ضد الصليبيين إلى مركز آخر من مراكز الإسلام، وهو مدينة (حلب)، التي ملكها نور الدين محمود، المعروف كأبيه بالشهيد. وبقيت حلب مركز هذه المقاومة حتى ملك نور الدين (دمشق) عام ٥٤٩ هـ، فانتقل مركز المقاومة إلى هذه المدينة الأخيرة. وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه كان يأخذ حصونهم ومعقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوى بها؟^(٢).

واشتد خوف الفرنج من هذه الدولة الإسلامية الناشئة، وهي دولة الأتابكة، الذين منهم عماد الدين ونور الدين، وبخاصة منذ استطاع زعيمهم (زنكي) الاستيلاء على الرها. ولذلك فإن أميرها جوسلين (وهو الاسم الذي أطلقه المسلمون على بلدوين) لم يكذب يسمع بموت البطل عماد الدين، حتى قصد بنفسه مدينة الرها، بموافقة النصارى المقيمين بها، فدخلها واستولى عليها، وقتل من فيها من المسلمين، وبلغ ذلك نور الدين

(١) الروضتين ج ١ ص ٤٧.

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٩٥.

بحلب ، ولم يكن قد استقر بها أكثر من أسبوع ، فنهض في عسكره ، وهجم على المدينة ، وأزاح الأمير الصليبي عنها ، وانكفأ المسلمون بالغنائم ، ورجعوا إلى حلب قبل أن تصل إليهم النجدة من غازي صاحب الموصل .

وازداد انزعاج الفرنج من الأتابكة ، وخوفهم من قوتهم وشجاعتهم ، فبعثوا يستنجدون بأخوانهم في أوربة ، ليعمل هؤلاء على تجهيز حملة صليبية أخرى ، لأنه مادام المسلمون قد استطاعوا أن يستردوا الرها ، فليس بعيدا عليهم أن يستردوا الإمارات الاتينية الباقية .

وما أسرع ما استجاب الأوربيون لإخوانهم المسيحيين في الشرق ، وأخذوا يعدون العدة لهذه الحملة الثانية من حملات الصليب ؛ وكان من قوادهم في هذه المرة ، ملك الألمان ، والفونسو صاحب صقلية ؛ وكان العرب يطلقون على هذا الأخير اسم (ألفنش) . وأقبل هؤلاء الصليبيون في العدد الجم والجوع التي يهول منظرها ، بحيث قيل إن عدتهم بلغت ألف ألف من الرجال والفرسان ، وقيل أكثر من ذلك . وغلبوا على أعمال قسطنطينية ، واحتاج ملكها إلى الدخول في مداراتهم ومسامحتهم ، والنزول على أحكامهم . وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم ، شرعت ولاية الأعمال المصاغبة لهم والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهب للدفاع . . . وواصلوا شن الغارات على أطرافهم ، واستحرق القتال فيهم والفتك بهم ، إلى أن هلك منهم العدد الكثير ، وحل بهم من عدم القوت والميرة وغلاء السعر ، ما أفتى الكثير منهم بالجوع والمرض . ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم وفناء أعدائهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة للهجرة (١١٤٨ م) ، بحيث سكنت النفوس بعض السكون ، ^(١) ؛ وهكذا شاء القدر ألا تصل هذه الحملة الصليبية الثانية إلى بلاد الإسلام كاملة أو كالكاملة . ومن يدري لو أنها وصلت بقوتها يومئذ ماذا كانت نتيجة الصدام الأول بينها وبين جنود نور الدين ، ذلك الشاب الذي لم يمض على استقراره بحلب إلا بضعة أسابيع . لا شك أن هذه الحملة الصليبية الثانية كان مصيرها الفوز في إعادة الرها ، وربما في تجديد إمارات صليبية غيرها . ولكن فلول هذه الحملة ما كادت تصل إلى ساحل الشام ، وتنجح في الاستيلاء على صور ،

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٢ .

ويلتقى أفرادها بفرنج الساحل ، ويجتمع الجميع بالقدس ، ويعود من عاد منهم إلى بلاده بعد قضاء مناسك الحج ، حتى اجتمع رأيهم ، بإشارة الأمبراطور الألماني ، على قصد دمشق . وكان صاحب الأمر فيهارجلا من ممالك طغتكين ، اسمه (معين الدين أنر) فاستعد لمحاربتهم ، واستظهر الفرنج على المسلمين يومئذ بوفرة عددهم ، واستشهد في ذلك اليوم فقيهان من أكبر فقهاء الشام ؛ وهما الإمام يوسف الفندلاوى المالكي ، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحلحول ، إذ ما كاد هذان الفقيهان يعلمان بقدوم الصليبيين في جموعهم ، حتى تقدما إلى معين الدين ، فسلبا عليه ، واستأذناه في الجهاد ، فقال لهما معين الدين : أنتما معذوران ونحن نكفيكما ، وليس بكم على القتال قوة . فقالا له : قد بعنا واشترى إشارة إلى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم — الآية » . ثم قاتلا حتى قتلا في مكان واحد ، وأحدث استشهادهما في نفوس المسلمين شجاعة ، وأذكى في قلوبهم حمية ، فهجموا على الصليبيين هجمة صادقة ، وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ، وألحوا في مضايقتهم ، حتى أتت النجدة من سيف الدين غازي ، فواصلوا حربهم ، واضطروا الفرنج إلى الرحيل عن دمشق .

ولكن لم لم يستنجد معين الدين يومئذ بنور الدين ؟ إنه لم يفعل ذلك خوفا من نور الدين ، لأن هذا البطل الكبير كان يترصد لدمشق ، ويتدبص الفرصة المواتية له لأخذها ؛ فهو يعلم حق العلم أن من ملك دمشق فقد ملك الشام ، ومن ملك الشام أصبح دراعا على طرد الفرنج .

من أجل ذلك اشتغل نور الدين يومئذ بأخذ حصون أخرى كانت للفرنج . فأخذ من هذه الحصون حصن فامية ، ثم حصن بصرى ، ثم مدينة آنب . والظاهر أن انتصاره الأخير على الفرنج في آنب كان رائعا ، لأنه أطلق السنة الشعراء في مدحه ، وأطمعه في دمشق ، وقوى عنده الأمل في أخذها ، فطفق يخطب ودها ، فتمنعت عليه مدة من الزمان ، ملك في أثناءها حصونا أخرى ، من أهمها حصن عزاز ، وأصبح بهذا قريبا كل القرب من إمارة الرها وصاحبها جوسلين (بلدوين) . فخاف هذا على نفسه ومملكته ، وجمع جموعا كثيرة من الفرنج ، ولقي بهم نور الدين ، وهزمه في بداية الأمر ، ثم احتال نور الدين بعد ذلك حتى أخذ جوسلين أسيرا ، (وكان أسره من أعظم الفتوح

على المسلمين)، وأصبحت النصرانية كلها بهذا الأسر، وعظمت المصيبة عليهم بهذا الفقد، وكان ملكا كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نور الدين وهادنه، فإذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر (١)

ولما تم لنور الدين أسر بلدوين، تيسر له بعد ذلك فتح كثير من قلاع الفرنج وحصونهم. وعاد إلى التفكير مرة أخرى في دمشق، فلم يزل بها وبصاحبها حتى غلبه عليها. وكان الذي حمله على التعجيل بها، والتلف الشديد على أخذها، أن الفرنج تمكنوا يومئذ من أخذ مدينة هامة من مدن فلسطين، وحصن كبير جدا من حصونه؛ وهي مدينة عسقلان، وقد عجز الأسطول المصري نفسه عن استنقاذها، وكان في هذا الثغر من العدد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يمكن حصره. ومن ثم لم يجد نور الدين بدا من الهجوم على دمشق وأخذها قبل أن يأخذها الفرنج. وتم له ذلك عام ٥٤٩ هـ، وكان فتحا عظيما سجله الشعراء ورجال الأدب.

ومنذ ذلك الوقت اشتد خوف الفرنج من نور الدين، فوهنوا واستكانوا حين صار جميع الشام في قبضة يده. ثم غالبوا بأسهم، وأجمعوا رأيهم على مباغتته وهو مشغول بفتح حصن منيع يقال له (حصن الأكراد). فهزموا المسلمين، ووصلوا إلى خيمة نور الدين، وكادوا يظفرون به لولا عناية من الله. حلف الرجل ليحاربهم في نفس البقعة التي كادوا يقتلونه بها، ولأمة المسلمون على ذلك، فأسكتهم ووبخهم، وحلف لا يستظل بجدار حتى يأخذ بثأر الإسلام. ثم تحرك لأخذ حمص، وتبعه الفرنج إليها، ولكنهم لما وجدوه سبقهم إلى هذه المدينة رجعوا خائفين منه.

وأخذ نور الدين بعد ذلك يفكر جديا في موقفه السياسي الدقيق حيال الصليبيين، ونظر فإذا الإسلام كله ثلاث قوى يجب أن يقع عليها عبء قتال الفرنج، وطردهم من الأراضي الإسلامية. وهذه القوى الثلاث هي: قوة الخلافة العباسية في بغداد، وقوة الخلافة الفاطمية في مصر، وقوته هو في الشام.

فأما الخلافة العباسية فقد أعلنت — كما رأينا — عجزها عن مدافعة القوم. وأما الخلافة المصرية، وكانت هي الأخرى — كما رأينا — من الضعف بحيث لم

تعد قادرة على شيء ، بل إن من الصليبيين من أخذوا يفكرون في امتلاك الديار المصرية للتعوى بها على الدولة النورية ، أو لتكون خط الدفاع الأقوى لمجموعة الإمارات اللاتينية .

وإذن فعلى نور الدين أولا أن يسقط من حسابه الخلافة العباسية ، وعليه بعد ذلك ألا يعتمد كثيرا على الخلافة الفاطمية . لا ، بل عليه أكثر من ذلك أن يسبق الفرنج أنفسهم إلى امتلاك الديار المصرية ، لأن من ملكها فقد ملك ناصية الأمور في ميدان الحروب الصليبية .

والعجيب أن مصر هي التي ألحت على هذين الغريمين المترصدين لها للتدخل في شئونها . ذلك أن مصر تعرضت في هذه الفترة العصبية لمحنة الوزراء ، ونعني بها تلك المحنة التي أخذ فيها هؤلاء ينافس بعضهم بعضا في الحصول على الوزارة ، يستعين كل واحد منهم تارة بنور الدين وأخرى بالصليبيين . وسرعان ما انتقل الميدان الرئيس للقتال بين المسلمين والصليبيين إلى مصر .

وفي هذا الميدان المصري التقت جيوش الفريقين ، وكانت الحرب سجالا بين الجيشين ، حتى أذن الله بالنصر لجيش نور الدين ؛ وكانت قيادته إذ ذاك لرجل عرف بإخلاصه وإخلاص أسرته للبيت النوري العظيم ؛ وهذا الرجل هو أسد الدين شيركوه : عم صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وغازى الفرنج هذا النصر ، فأخذوا ينقضون على مصر ، ووصلوا في هجومهم إلى بليس ، فخاف الوزير المصري (شاور) من نتائج هذا الفتح ، فأضرم نارا عظيمة في مدينه القسطنطينية ، حتى تكون النار حائلا بينه وبين هذا العدو . وفي ذلك الوقت بعث الخليفة المصري العاضد بالكتب تلو الكتب إلى نور الدين ، ووضع في بعضها خلاصا من شعور نسائه ، مبالغة منه في التوسل والضراعة . إذ ذاك لم ير نور الدين بدا من أن يبعث إلى مصر مرة ثانية أو ثالثة بقائده العظيم أسد الدين شيركوه ، ومعه كذلك ابن أخيه الشاب صلاح الدين الأيوبي . فوصلا إلى مصر ، وتمكنا فيها من طرد الفرنج ، ثم بدا لهما بعد ذلك أن يقوموا بقتل هذا الوزير المصري الذي جر على بلاده كل هذا الويل ؛ وهو هنا شاور . فتم لهما ما أراداه ، وما أسرع ما تقدم الخليفة العاضد بعد ذلك إلى أسد الدين شيركوه بخلعة الوزارة ، فلبسها شيركوه ، ولكن الأجل لم يمهل في

وزارته أكثر من شهرين وبضعة أيام . فمات وخلفه في الوزارة المصرية ابن أخيه صلاح الدين ، وذلك في خطوب كثيرة نستطيع أن نقرأها في غير هذا البحث ^(١) . ومهما يكن من شيء فقد نجح نور الدين في امتلاك مصر قبل أن يملكها الفرنج ، وأصبحت له قوة أزعجتهم ، وأضاعت كثيرا من أملهم في البقاء بالشرق . وفيما بين الحملات الثلاث لشيركوه على مصر ، كان نور الدين يشغل نفسه بأخذ حصون الفرنج حصنا حصنا ، وكان قصده من ذلك عدا الظفر بهذه الحصون — أن يشغل بال الفرنج ، فلا يتفرغوا لمصر ، ولا يحصروا فيها همهم . وبالفعل استطاع نور الدين أن يظفر من حصون الفرنج في هذه الفترة بـ حصن (بانياس) ، وحصن (منيطرة) ، وحصن (جعبر) ، وحمص والرحبة الخ .

وهكذا دان الشام كله للملك واحد ، هو نور الدين ، ودانت مصر كلها لرجل واحد ، هو صلاح الدين التابع لنور الدين ، وبينهما منطقة صغيرة ، هي منطقة السكرك بيد رجل من الصليبيين اسمه إرنات Renauld .

غير أنه حدث في ذلك الوقت أن دبت الجفوة بين هذين البطلين من أبطال الإسلام ، وهما صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام . وأخذ كل واحد منهما يخاف صاحبه . ففكر نور الدين من جانبه في الأمر ، فرأى أنه أخطأ في إنفاذ أسد الدين شيركوه إلى مصر بعد ما علم من شدة حرصه وحرص أسرته عليها . وفكر صلاح الدين من جانبه كذلك في الأمر فرأى أن تظل منطقة السكرك فاصلا بينه وبين سيده نور الدين بدمشق . وبالفعل كان نور الدين يرسل إلى صلاح الدين في طلب العساكر المصرية ، فيعتذر له هذا بعدم قدرته على ذلك ، بسبب الفتن الداخلية ، وذلك منذ موت العاضد الفاطمي وزوال الخلافة المصرية .

ولندع هذا الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين فما بنا سرده أو النظر إليه . ولننظر بهم أجاب الفرنج عن هذه الحركات التي انتهت بأخذ مصر ؟ لقد كاتبوا إخوانهم بأوربا وصقلية ، وأخبروهم بظفر نور الدين بمصر ، وقالوا لهم

(١) اقرأ في ذلك كتاب (صلاح الدين) للمؤلف ، بالفصل الذي عنوانه (وزارة) ص ١٩ والفصل الذي عنوانه (مؤامرة) ص ٢٤ .

إنهم أصبحوا يخافون الخوف كله على القدس ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة . واجتمع رأيهم إذ ذاك على النزول بدمياط ؛ ظنا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهرا لهم يملكون به الديار المصرية .

هنا لك استنجد صلاح الدين بسيد نور الدين الذي كان يشغل بال الفرنج بالإغارة على بلادهم ، واستباحة حصونهم ، حتى لقد وصلت غاراته إلى ما لم تكن تصل إليه من قبل ، فخلو بلاد الفرنج من يحميها في ذلك الوقت . فلما رأى الفرنج ذلك رجعوا سراعا إلى مصر . وقال فيهم المسلمون يومئذ : « ذهب النعمة تطلب قرنين ، فعادت بلا أذنين » .

حدث بعد ذلك أن مات العاضد الفاطمي في مصر ، واستطاع صلاح الدين أن يزيل الخلافة الفاطمية من هذه البلاد . ثم وقعت الجفوة بينه وبين نور الدين ، فحمل ذلك صلاح الدين على العدول عن محاربة إرناط صاحب السكر ، معتقدا أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ مصر ^(١) . إذ ذاك فقط عزم نور الدين على قصد الديار المصرية وإخراج صلاح الدين منها ، ولكن الأجل المحتوم عاجل هذا البطل العظيم ، فمات وب نفسه من تابعه ما بها .

قال التارخ : « ولو علم نور الدين ماذا ادخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يد صلاح الدين من بعده لقرت عينه ؛ فإنه بنى على ما أسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها ، رحمهما الله تعالى ، » ^(٢) .

مات نور الدين فانظر إلى هذه الصفحة النقية الرائعة التي كتبها له التاريخ : قال ابن الأثير : وكان أسمر طويل القامة ، ليس له لحية إلا في حنكه ، وكان واسع الجبهة والعينين ؛ حسن الصورة . ولم يكن مثله إلا الشاذ النادر رحمه الله ، مع ما جمع الله له من العقل المتين ، والإقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ، وقد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه ، فكان

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٨ . (٢) نفس المصدر ص ٢٢٨ .

فكان رحمه الله يصلي كثيرا من الليل ، ويدعو ويستغفر ويقرأ ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب . وكان عارفا بالفقه على مذهب أبي حنيفة رضى الله عنه ، ليس عنده تعصب ، بل الإنصاف سجيته في كل شيء . وعلى الحقيقة فهو الذى جدد للبلوك سنة العدل والإنصاف ، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك

وأما عدله ، فإنه كان أحسن الملوك سيرة ، وأعدلهم حكما . فمن عدله أنه لم يترك في بلد من بلاده جزية ولا مكسا ولا عشرا ، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام والجزيرة والموصل وديار مصر وغيرها ... وهذا لم تتسع له نفس غيره . وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائنا من كان ، القوى والضعيف عنده في الحق سواء . وكان يسمع شكوى المظلوم ، ولا يكل ذلك إلى صاحب أو إلى أمير . ومن عدله أنه كان يعظم الشريعة ، ويقف عند أحكامها ، ويقول : نحن مسخرون لها ، نمضى أوامرنا .

فمن اتباعه أحكامها أنه كان يلعب بدمشق بالكرة ، فرأى إنسانا يحدث آخر ، ويومئ إليه بيده ، ويقول لصاحبه : أريد أن يحضر القاضى هذا الأمير ليحكمه على شيء . أخذه منى . فلما علم نور الدين ذلك ألقى (الجوكان) من يده ، وخرج من ميدان اللعب ، وسار بنفسه إلى القاضى - وهو يومئذ كمال الدين الشهرزورى - وقال له : قد جئتكم محكما ، فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ؛ ووقف بين يدي القاضى ، وساوى خصمه به . فلم يثبت عليه حق . فقال نور الدين للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . فقال : اشهدوا أنني قد وهبت له هذا الشيء ، الذى حاكنى عليه ، وهو له دونى ، وإن كنت أعلم أنه لاحق له عندي ، وإنما حضرت معه لئلا يظن أنى ظلمته ، فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له .

قال ابن الأثير : وهذه درجة وراء العدل ، فرحم الله هذه النفس الزكية المنقادة إلى الحق .

ثم قال ابن الأثير : وحكى لى من أثق به أنه دخل يوما إلى خزانة المال ، فرأى فيها مالا أنكره ، فسأل عنه ، فقيل له : إن القاضى كمال الدين أرسله ، وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء . وأمر برده

وإعادته إلى كمال الدين ، ليرده على صاحبه . فأرسله متولى الخزانة إلى كمال الدين ، فردمه كمال الدين إلى الخزانة ، وقال : إذا سأل الملك العادل عنه ، فقولوا له عني إنه له . فدخل نور الخزانة مرة أخرى ، فرآه ، فأنكر على النواب ذلك ، وقال : ألم أقل لكم : يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين . فردده إليه وقال للرسول : قل لكمال الدين : أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فربقتي دقيقة لا تطيق حمله ، والمخاصمة علنية بين يدي الله تعالى . يعاد قولاً واحداً !

ومن عدله أنه أول من بنى داراً للعدل في دمشق . وكان سبب بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق ، ومقام أمرائه معه ، وفيهم أسد الدين شيركوه ؛ وهو أكبر أمير معه ، وقد عظم شأنه ، وعلامكانه ، حتى صار كأنه شريك في الملك ، واقتنى الأمراء والأملأك ، وكثر تعدى كل واحد منهم على من يجاوره ، كثر الشكاوى إلى كمال الدين ، فأنصف بعضهم من بعض ، ولم يقدم على الإنصاف من أسد الدين . فأنهى الحال إلى نور الدين ، فأمر حينئذ ببناء دار العدل . فلما سمع أسد الدين بذلك ، أحضر نوابه جميعهم ، وقال لهم : اعللوا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي . والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه ؛ فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في ملك ، فافصلوا الحال معه ، وأرضوه بأى شئ . يمكن ، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي . فقالوا له : إن الناس إذا اعللوا هذا اشتطوا في الطلب . فقال : خروج أملاكى من يدي أسهل على من أن يرانى نور الدين بعين ظالم ، أو يساوى بينى وبين أحد العامة في الحقوق . وبقي الحال على ذلك مدة ، فقال نور الدين للقاضى ، ما أرى أحدا يشكو من أسد الدين ؟ فعرفه الحال ، فسجد لله شكراً ، وقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا .

ونقول : تلك درجة فى العدل لم نسمع بها إلا فى تاريخ عمر رضى الله عنه ، ومن أجلها كان نور الدين خليفاً بزعامة المسلمين فى عصر سيطر على نفوسهم مثل هذا الروح الدينى العالى .

وقال لنور الدين أصحابه يوماً : إن لك فى بلادك إدارات كثيرة ، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقراء ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . فغضب من

هذا وقال : والله إنى لأرجو بأولئك النصر ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ؛ كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم فى فراشى بسهام لا تخطى . ، وأصرفها إلى من يقاتل عنى إذا رآنى بسهام قد تخطى . وتصيب . ثم هؤلاء القوم لهم نصيب فى بيت المال أصرفه إليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

ونقول ذلك هو الروح المعنوى الذى كانت مسيطرًا على حياة الشرق فى العصور الوسطى . وهو الروح الذى صدر الناس عنه ، شعبا وحكومة . ومعنى ذلك أن الناس لم يلقوا بأنفسهم فى أتون هذه الحرب من أجل المال والثراء ، ولا من أجل السيطرة والسلطان . ولكن من أجل الدين والوطن ، وحمايتهما من العدوان الخارجى . بل معنى ذلك أيضا أن الزهد والتصوف وأخذ النفس بهذه الحياة الروحية القوية ، كان من بين آلات الحرب فى ذلك الوقت ، لأنه كان ينشر فى الناس روحا شديدا بالروح الذى نشره القرآن الكريم فى أول عهد المسلمين بالحروب ، يوم نزل عليهم مثل قوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . الآية » ، فاندفع المسلمون فى هذه الحروب ، وكتب لهم النصر بسبب ذلك .

وحين هزم نور الدين الفرنج فى (حصن الأكراد) ، أقسم لياخذن بثأر الإسلام ، ودعا فى البلاد الإسلامية بالنفير العام . فوصلت الدعوة إلى الأمير (نور الدين قرارسلان) ، فسأله خواصه : على أى شىء عزمت ؟ فقال : على القعود (فإن نور الدين قد تقشف من كثرة الصوم والصلاة ، فيلقى نفسه والناس معه فى المهالك . فكلهم وافقه على ذلك . فلما كان الغد أمر بالتدأ فى العسكر بالتجهز للقتال . فقال له أولئك : ما عدا بما بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ، ونرى الآن ضدها .

فقال : إن نور الدين قد سلك معى طريقا إن لم أتخذه خرج أهل بلادى عن طاعتى ، وأخرجوا البلاد عن يدي ، فإنه كاتب زهادها وعبادها والمنقطعين عن الدنيا يذكركم لهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، وما نالهم من القتل والأسر والنهب ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب منهم أن يحشوا المسلمين الغزاة . فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه أتباعه وأصحابه ، وهم يقرءون كتب نور الدين ويبكون ويلعنون ويدعون على ، فلا بد من إجابة دعوته (١) .

وكسر نور الدين أعداءه من الروم والآرامن والفرنج عند (تل حارم) ، وكانت عدتهم ثلاثين ألفا ، ووقع اليمند (بوهمند) صاحب أنطاكية أسير في يده ، وباع نفسه بمال عظيم أنفقه نور الدين في جهاد الصليبيين . وحين التقى الجمعان ، وتحقق النصر للمسلمين ، إذ ذاك رأى نور الدين تحت تل حارم ساجدا لربه عز وجل ، وقد مرغ وجهه وتضرع ، وقال : يا رب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك ، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك . إيش فضول محمود في الوسط ؟ وروى أنه قال إذ ذاك أيضا : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ، ومن هو محمود الكلب حتى ينصر (١) ؟ !

وحكى أن إماما لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : اعلم نور الدين أن الفرنج قد رحلوا عن دمياط في هذه الليلة . فقال : يا رسول الله ، ربما لا يصدقني ، فاذا ذكر لي علامة يعرفها . فقال : قل له بعلامة ما مسجت على تل حارم وقلت : يا رب انصر دينك ولا تنصر محمودا ، ومن هو محمود الكلب حتى ينصر ؟ فانتبه الإمام من نومه ، ونزل إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أنه كان ينزل إليه بغلس ، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلي الصبح . قال الإمام : فتعرضت له ، فسألني عن أمري ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين : اذكر العلامة كلها ، وألح في ذلك . فقلت : فبكى رحمه الله وصدق الرؤيا . فأرخت تلك الليلة ، وجاء الخبر برحيل الفرنج فيها (٢) .

وبلغ من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أن قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية . فجاء في جملة الحديث حديث مسلسل بالتبسم . فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم ، لتتم السلسلة ، على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك ، وقال : إني لا أستحي من الله تعالى أن يراني مبتسما والمسلمون محاصرون بالفرنج !

وثبت في سيرة نور الدين الشهيد أنه روى حديث النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه . وذهب ابن الأثير إلى أن نور الدين هو أول من بنى دارا

(١) نفس المصدر ص ١٤٣ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨١ .

للحديث في دمشق ، ووقف عليها وعلى من بها وقوفا كثيرة .

تلك أطراف يسيرة من سيرة نور الدين الشهيد ، ذلك القائد الإسلامي الكبير ، بل ذلك الزاهد الرباني العظيم ، الذي كان كثير التوسل بربه في الحرب ، حتى لكان هذا التوسل في ذاته وسيلة من وسائل النصر على العدو ، وطريق من طرق الهجوم عليه ؛ وما أصدق ما قيل في وصف هذا الرجل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب !
أجل — ما أجمل البطل المحراب ، وهو يصلي قبل الموقعة وبعدها في المحراب ! ذلك بأنه إنما يجاهد لغاية دينية خالصة ، وغرض معنوي بحت ، لا يرضيه النصر إلا إذا عاد بالفائدة العظمى على الإسلام والمسلمين ، وأظهرهم على أعدائهم من الصليبيين .

الفصل الرابع

الشعر في خدمة نور الدين

قيل إن نور الدين كان قليل الابتهاج للشعر ، زيادة في تواضعه ، على طريقة عمر ابن عبد العزيز . ومصدر ذلك أنه كان لا يبذل أموال المسلمين إلا في الجهاد . أي أنه كان جوادا حيث يحب الله ، وبخيلا حيث يحب الناس ، وأكثر الناس كما قال تعالى : « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » ، ومعنى ذلك أن نور الدين كان لا يشغل قلبه إلا بأمر واحد ، هو جهاد الفرنج . وكان لا يرى لإنفاق مال الدولة غير وجه واحد ، هو محاربة الصليب .

وعاش في زمانه رجل اسمه (الوهراني) واشتهر بأدبه الساخر ، وتهكمه المرير . وكتب عدة رسائل في السخرية برجال الإسلام في عصره . وذكر نور الدين في إحدى هذه الرسائل متهمًا به على عادته ، فقال : « هو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمير زاهد ، وملك مجاهد ، تساعد الأفلاك ، وتعصده الجيوش والأماك . غير أنه عرف بالمرعى الويل ، لابن السبيل ، وبالحل الجديب ، للشاعر الأديب ، فما يرزى ، ولا يعزى ، ولا لشاعر عنده من نعمة تجزى . وإياه غنى أسامة بن منقذ بقوله : سلطاننا زاهد والناس قد زهدوا له فكل على الخيرات منكش أيامه مثل شهر الصوم طاهرة من المعاصي وفيها الجوع والعطش ^(١) »

وانظر إلى هذا البيت الأخير كيف تضمن نكتة بارعة وصفت أيام نور الدين بل وصفت حياته كلها ، وما لهذه الحياة من طابع الصرامة والجد والعنف على النفس ، ومع هذا فما نطن أن نور الدين كان كما قال الوهراني أو أسامة إلى هذا الحد من البخل أو الحرص على مال المسلمين ، بحيث لا ينفق منه شيء في غير الحرب . ولو كان ذلك ما قامت للشعر دولة إلى جانبه ، ولا ازدحم الشعراء على بابه يسجلون انتصاراته كلها احتسابا لله أولا ، وطمعا في جائزة الأمير بعد ذلك .

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩ . وصدق جوستاف لوبون حيث يقول :

« نحن جميعا نحب العدل ولكن لانحب العادلين » .

نعم ؛ لم يكن نور الدين بخيلا على الشعراء ، ولسكنه كان ، فيما يظهر ، لا يعطيهم إلا بقدر ، ولولا ذلك ما أجمع الشعراء في عصره على مدحه بالكرم والجود ؛ حتى أسامة بن منقذ نفسه ، فقد قال في مدح نور الدين :

في كل عام للبرية ليلة فيها تشب النار للإيقاد
لكن لنور الدين من دون الورى ناران : نار قرى ، ونار جهاد
أبدا يصرفها نداه وبأسه فالعام أجمع ليلة الميلاد
ملك له في كل جيد منة أبهى من الأطواق في الأجياد
أعلى الملوك يدا وأمنعهم حمى وأمدهم كفا ببذل تلاد
يعطى الجزيل من النوال تبرعا من غير مسألة ولا ميعاد (١)

وسنرى كيف كان نور الدين محببا من الشعراء ، وإلى أى حد أطلقوا فيه مدائحهم التى شحذوا فيها القرائح ، فجادت عليهم بذلك الشعر (٢) .

وقد أحصينا الأشعار التى مدح بها نور الدين ، واقتبسها أبو شامة في كتابه الروضتين ، وانتقاها من كلام الشعراء المادحين ، فقاربت عدتها نحو من ألف بيت من الشعر فإذا كان ذلك هو ما اختاره أبو شامة ، وانتقاه من شعر طائفة خاصة من شعراء نور الدين ، فكيف يكون عدد الأشعار التى قيلت في مدحه كلها ؟ وكيف يكون عدد القصائد التى قيلت في مدحه أيضا ، مما ذكره أبو شامة وما لم يذكره .

أجل ؛ ربما كان الرجل قليل الابتهاج بالشعر تواضعا منه ، وتشبها بسيرة الخلفاء

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٢٢٩) .

(٢) يحس القارىء ، للأدب والتاريخ في ذلك العصر ، أنه كان هناك شعور عام عند الشعراء بأن الأتراك كانوا أقل كرمًا وجودا على الشعراء من الفواطم ؛ يدلنا على ذلك ما وقع لصالح الدين الأيوبي مع شاعر من الشعراء الذين مدحوا الدولة الفاطمية ؛ وهو المذهب بن أسعد الموصلى . فقد وفد على صالح الدين وهو يحاصر دمشق ، فمدحه بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى السكرى إلا ليظرفه الخيال إذا سرى

فقال القاضي الفاضل لصالح الدين : هو الذى يقول من قصيدة مدح بها الصالح بن رزيك :

من أرتحى يا كريم الدهر تنعشنى جدواه إن خاب سعي في رجائيكا

وأمدح الترك أبغى الفضل بينهم والشعر مازال عند الترك متروكا ؟

فعجل جائزته لتكذيب قوله ، وتصديق ظنه . فشرفه السلطان ، وجمعه بين الخلعة والضيعة . (الروضتين

الراشدين وسيرة عمر بن عبد العزيز ، وغيرهم ممن لم يأخذهم بهرج القول ، ولم يسرفوا من أجله في الأخذ من بيت المال . ولكن الشعر كان يتدفق تدفقا من السنة الشعراء في دولة نور الدين ، وكان يتجمع كله حول هذا البطل العظيم ، فيسمع له في غير زهو ولا خيلاء ، ويتخذ منه وسيلة من وسائل الدعاية التي لا بد منها لمحاربة الأعداء .

وأما الشعراء الذين ظهرُوا في الدولة النورية ، فكان أشهرهم في ذلك الوقت خمسة نفر : ثلاثة منهم ورثهم نور الدين عن أبيه عماد الدين زنكي ، وهم :
أبو المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي .
وابن القيسراني أبو عبدالله محمد بن نصر ^(١) .
وابن منير الطرابلسي أبو الحسن أحمد ^(٢) .

والشاعران الآخران هما فارسا هذه الحلبة ، وقد بقيا على ذلك حتى هلكا ، وخلفهما الشاعر الرابع ، وهو :

ابن أسعد الموصلی — الذي ظل يعمل في خدمة نور الدين ، حتى ظهر في دولته الشاعر الخامس والآخر : عماد الدين الأصفهاني .

وإلى جانب هؤلاء الخمسة ظهر شعراء آخرون ، أسهموا بشعرهم في جهاد المسلمين ضد الصليبيين ، ومنهم :

شاعر يقال له (الفرقة) .

وآخر هو الأمير أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر .

وهذا كله في الشام . أما في مصر فقد مدح نور الدين . وشجعه على جهاده ضد الصليبيين شعراء ، منهم (المذهب بن الزبير) ، ومنهم وزير الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وقد دارت بينه وبين أسامة بن منقذ رسائل شعرية طويلة ، مدح فيها الرجال نور الدين ، وسنأت في هذا الفصل بشيء منها .

ولنتظر أولا إلى ابن القيسراني يقول في مدح نور الدين محمود :

ذو الجهادين من عدو ونفس فهو طول الحياة في هيجاء
قد هدبت الملوك للعدل لما سرت في الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت في الناس حتى لقسمت التقى على الاتقياء

أنت حينما تقاس بالأسد الور د وحينما تعدد في الأولياء
صاغك الله من صميم المعالي حيث لا نسبة سوى الألاء
أنت إلا تسكن نيبا فما فك إلا خلأق الأنبياء !!
رأفة في شهامة في عفاف في اقتدار وسطوة في حياء
وإذا ما الملوك خافت سهام الـذم زرت عليك درع الشاء
تلك صورة البطل نور الدين في أذهان المسلمين ، الذين كانوا يؤمنون إيماناً صادقاً
ببطولته ، وعظم حظه من القوى المادية والروحية ، وتلك طبقة عالية من الشعر ، توصف
بالجزالة وحسن اختيار الألفاظ ، والملاءمة التامة بينها وبين الممدوح ، بحيث لا يوصف بها
غيره . وهكذا وجد الشعراء في سيرة نور الدين الشهيد مادة غزيرة ، أعانتهم على القول ،
ولم يحتاجوا معها إلى الزخرف ، واختراع المعاني البعيدة ، أو اختلاق الصفات المديدة ،
فانطلقوا ، كما سنرى ، يقولون ويبدعون ، وتركوا لنا ثروة أدبية خليقة بالإعجاب
والتقدير :

راض الخطوب الصم بعد جماحها وألان من قلب الزمان القاسي
وأعاد نور الحق في مشكاته وأقام وزن العدل بالقسطاس
وأذل سلطان النفاق بعزة خضعت لها الأساد في الأخياس
ولو ان فيض النيل فائض نيله لم تفتقر مصر إلى مقياس^(١)
ذلك مثل آخر من أمثلة الشعر الذي مدح به ابن القيسراني نور الدين ، وانظر إلى
منافسه ابن منير يمدح نور الدين كذلك ، فيقول :

محمود المرني على أسلافه إن زاد في حسب الحسين نجار
عنى جهادك رسم كل مخوفة وصفت بصفوة عدلك الأكدار
غضبان للإسلام مال عموده فلنوره مما عراه نوار
كم سيرة أحييتها عمرية رفعت لها في الخافقين منار
تقفو طريق الصالحين مسابقا لهم وتطلع خلفك الأبرار
لله ما ظفرت به منك المنى وتكففت من ركنك الأستار

وسقى الغمام ثرى أبيض فإنه
شهدت نضارة عودك الغض الجنى
أزكى ثرى قطرت عليه قطار
أما نهارك فهو ليل مجاهد
أن الذى استخلصت منه نضار
والليل من طول القيام نهار^(١)
وانظر إليه كذلك يقول :

عقل الحق ألسن المدعينا أنت خير الملوك دنيا وديننا
وأسد الأنام قولا وأفعلا لا ونفسا ونية وبقينا
بسط الرزق فى البسيطة كفا ك فكلنا يدك تلقى يميننا
فيد تحسم النوائب عنا ويد تقسم الرغائب فينا
تدسنى من الفتوح ألوفا أنت أعلى من أن تعد المثينا
صرف الله عنك صرف زمان أنت علمت صرفه أن يهونا
يا بن من طبق البسيطة آثا را وعل المناذيه الأجونا
كان صنو الرشيد أبقاك للحكم حمة والبأس بعده المأمونا
سمع الله فيك دعوة سكن أوطنوا من حماك حصنا حصينا
سهرت عينك السكوة وناموا تحت أكناف رعيها آمينا^(٢)

قال أبو شامة : فهذا أنموذج من أشعار هذين الفحولين فيه ، مع أنهما ماتا سنة ثمان وأربعين وخمس مئة ، قبل أن يفتح نور الدين دمشق . وبقى نور الدين حيا بعدهما إحدى وعشرين سنة ، يترقى كل سنة فى ازدياد ، من جهاد واجتهاد .

ولو كانا أدركا ذلك لأتيا فى وصفه بعجائب المدائح . مع أنه قد تولى ذلك غيرهما ، ممن لم يبلغ شأوهما ،^(٣) . وصدق أبو شامة : لو عاش هذان الشاعران لنور الدين ، لتركنا لنا من روائع الشعر الصليبي ، ما قد يزرى بشعرنا العربى فى أزهى عصوره . فإن شخصية البطل نور الدين كانت من القوة بحيث توحى إليهما مثل هذا الشعر .

والآن لارجع بأنفسنا إلى فتوح نور الدين ، ثم لننظر إلى الشعور الذى سار معه فيها ،

(١) الروضتين : (ج ١ ص ٢٢) .

(٢) : (ص ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) : (ص ٢٤) .

ونحن نعلم أنه ما كاد الفرنج يسمعون بموت أبيه زكي ، حتى هجموا على الرها ، واستولوا عليها . وسمع بذلك نور الدين ، فعاجلهم قبل أن يتمكنوا من هذه البلدة ، واسترجعها منهم ، فهناك شاعر من شعراء أبيه ، هو أبو المجد المسلم بن الخضر ابن قسيم الحموي إذ يقول :

هذا الذي في الله صح جهاده	هذا الذي بالله صح يقينه
هذا الذي بخل الزمان بمثله	والمشمخر إلى العلا عرينه
ملك الوري ملك أغر متوج	لا غدره يخشى ولا تلوينه
إن حل فالشرف التليد أنيسه	أو سار فالظفر الطريف قرينه
والدهر خاذل من أراد عناده	أبدا وجبار السماء معينه
والدين يشهد إنه لمعززه	والشرك يعلم إنه لمهينه
ما زال يقسم أن يبدد شمسهم	والله يكره أن تمين يمينه
فتح الرها بالأمس فانفتحت له	أبواب ملك لا يزال مصونه ^(١)

وذكر ابن القيسراني فتح الرها على يد نور الدين في قصيدة بعث بها إلى وزير الموصل ، منها قوله :

ليهنك ما أفرج النصر عنه	وما ناله الملك العادل
فقل للحقاق ^(٢) الطريق الطرب	ق فقد دلف المقرم البازل
وجاهد في الله حق الجها	د محتسب بالعلا قافل
وهل يُمنع السور من طالع	يشايعه القَدَرُ النازل
فإن يك فتح الرها لَجَّةً	فساحلها القدس والساحل ^(٣)

فانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف يحض فيه الشاعر نور الدين على فتح بيت المقدس ؛ أو على الأقل يطمعه في ذلك ، ويقويه عليه . وسنرى أن هذه الأمنية من

(١) نفس المصدر : (ص ٢٤) .

(٢) الحقاق : جمع حق ، وهو من الأبل : ما دخل في الرابعة من سنه . ويقال حقة أيضا ، وجمعها حقق . والمقرم ككرم : البعير الذي لا يحمل عليه ولا يذلل . والبازل والبرول (للذكر والأنثى) : الذي يُطلع نابه ، بدخوله في السنة التاسعة .

ومعنى البيت : قل للصغار من الإبل تخل الطريق للفحول المسنة .

(٣) الروضتين : (ج ١ ص ٤٩) .

أعز أمانى المسلمين يعبر عنها كل شاعر من شعرائهم في ذلك الوقت ، كلها سنحت
الفرصة له .

ولابن منير في فتح الرها قصيدة ، منها قوله :

ملك ما أذل بالفتح أرضا قط إلا أعزها إغلاقه

والرها في الرها^(١) أزجى إليها عارضا شَيْبَ الدجى إبراقه

تلك بكر الفتوح فالشام منها شامة والعراق بعهد عراقة

سنة سنه أبوه بكتب الروم لما أظله إرهابه (٢)

وكان نور الدين قد أفلح في استيلائه بعد ذلك على عدة مدن منها (بصري)، و (هاب)، و (العريمة) بعد أن حاول أهل هذه المدن الاستنجاد بالفرنج. فأشار ابن منير إلى ذلك في نفس القصيدة التي سقنا أبياتاً منها قائلاً:

نطق الحاسدون بالعجز عن ملكك مُحَسِّلٌ بالنيرات نطقه

غَضُ أَبْصَارِهِمْ لِحَاقِ جَوَادٍ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْمَعَالَى سَبَاقِهِ

سل بصير أكم أعتقت يوم (بصرى) من أسارى الموت الزوام عتاقه

كم عسرام على (العريمة) شبت ضاق منه على الصليب خناقه

ولكم هبة (بهب) وأختيها لها صكَّت الأسارى رباقه (٣)

* * *

والتقى نور الدين بالفرنج عند حصن يقال له (حصن يغرا) فهزمه الفرنج ، ثم انهزموا بعد ذلك . فأقبل عليه ابن القيسراني ينشده قصيدة يعتذر فيها عن هزيمته في أول الموقعة ، ويهنته بالانتصار في آخرها . منها قوله :

تفي بضمائها البيض الحداد وتقضي دَيْنَهَا الشُّمْرُ الصُّعَاد

وتدرك ثأرها من كل باغ فوارس من عزائمها الجلال

أظنوا أن نار الحرب تخبو ونور الدين في يده الزناد؟

ومنها :

وجند كالصقور على صقور إذا انقضوا على الأبطال صادوا

(١) الموضع الرهاء كالسماء : الواسم .

(٢) » » ص ٥١ أيضا

(٣) بصرى والعريمة وهاب: كلها من حصون الشام التي أخذها نور الدين من الفرنج عام ٥٤٢ هـ.

إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا وإن أبدوا عداوتهم أبادوا
جرت بالنصر أعلام العسالى وليس سوى النجيع لها مداد
وطالت أرؤس الأعلاج خصبا فنادى السيف قد وقع الحصاد
ومنها: فسر واستوعب الدنيا فتوحا فلا هــضـبٌ هناك ولا وهاد
وأذعنت الممالك واستجابت مليية لدعوتك العباد^(١)

رئيس عليك أن تلاحظ هنا أن ابن منير أشد من صاحبه ابن القيسراني كلفا
بالطباق والجناس ، وخاصة الجناس بالاشتقاق ، كما فى قوله :

كم عرام على (العريمة) شبت الخ
وقوله : ولكم هبوة (بهاب) الخ

وسنرى أن هذا اللون من الجناس كثير فى شعر الشعراء السوريين ، أوحى به
أسماء الحصون التى يفتحها الأبطال المسلمون بين حين وحين ، وكان له وقع فى الآذان
جميل ، يحسنه من كان قريبا من تلك الحصون ، ويستجيده الأبطال ، الذين قيل فيهم ذلك
الشعر الحماسى الجميل .

* * *

والتحم جيش نور الدين فى موقعة حاسمة بجيوش الفرنج ، وذلك فى موضع يقال
له (آنب) . وفيه انتصر نور الدين انتصارا كبيرا ، وخر صاحب أنطاكية صريعا ،
وحز رأسه وحمل إلى نور الدين ، فسر به سرورا عظيما . وكان الذى حز رأسه ،
وقتل جماعة من أصحابه ، وظفر بحامل الصليب ، البطل المعروف أبو المظفر (أسد الدين
شيركوه) ، فأقبل عليه شاعر من حلب ، وأنشده قصيدة منها :

إن كان آل الفرنج أدركوا فـلـكـجـاً فى يوم (يغرا) ونالوا منية الظفر
ففى (الخطيم) خطمت الكفر منصلتا أبا المظفر بالصمصامة الذكر
نالوا (بيغرا) نهايا وانتهيت لنا على الخطيم نفوس المعشر البتر
واستقودوا الخيل عـرـيا واستقدت لنا قواص الكفر فى ذل وفى صغر^(٢)

(١) نفس المصدر ص ٥٦

(٢) » » » ص ٥٨

وأما نور الدين فقد أكثر الشعراء في مدحه ، وتمنّته بهذا الفتح ؛ وفي مقدمتهم ابن القيسراني الذي أنشده هذه القصيدة الجليلة :

هذي العزائمُ لا ماتدعى القُضْبُ وذى المكارمُ لا ما قالت الكتبُ
وهذه الهممُ اللاتي متى خطبتُ تعثرت خلفها الأشعار والخطبُ
لله عزمك ما أمضى وهمك ما أقضى اتساعا بما ضاقت به الحِقَبُ
أغرّت سيوفك بالإفرنج راجفةً فؤاد روميّة الكبرى لها يجب
ضربت ككشهم منها بقاصمة

أودى بها الصّلبُ وانخطت بها الصّلبُ
ما يوم (آب) والأيام دائلة من يوم (يغرا) بعيدا لا ولا كشَبُ
غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دينُ الهدى مرضاته الغضبُ
طهرت أرض الأعدى من دماهم طهارة كل سيف عندها جُنُبُ
حتى استطار شرار الزند قاذفه فالحرب تُضرم والآجال تحتطب
والسيف هام على هام بمعركة لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلابُ
والنبيل كالوبيل هطّال وليس له سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبا ظفر حلو مذافيه كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم مصادر ، ألوب تلك أم قلب ؟
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دماهم مسلوبة وكأن القوم ما سلبوا
أبناء ملحمة لو أنها ذكرت فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الترك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب
أفعاله كاسمه في كل حادثة ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفسكري في وقائعه شغل فكل مديحي فيه مقتضب
من باتت الأسد أسرى في سلاسله هل يأسر الغلب إلا من له الغلب
فلما كوا سلب الإبرنس قائله وهل له غير أنطاكية سلب ؟
عجبت للصعدة السمرام مشمرة برأسه إن أثمار القنا عجب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا بدا لشعلها من نحره سرب

ومنها :

كنا نعدُّ حمى أطرافنا ظفرا فلكبتك الظبا ما ليس نحتسب
عمّت فتوحك بالعدوى معاقلمها كأن تسلیم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رفق كما التوى بعد رأس الحية الذنب

ومنها :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وأذن لموجك في تطهير ساحله فإنما أنت بحر لجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة من الظبا عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها حتى أقمت وأنطاكية حلب (١)
فأسعد بما نلته من كل صالحة يأوى إلى جنة المأوى لها حسب
وهي قصيدة طويلة لعلها من أروع ما قيل من الشعر في ذلك الوقت . فهي تذكرنا
ببائية أبي تمام المشهورة ، ولها نفس الوزن والروي . ولعل البيتين الأولين من أبياتهما
ترجمة وأهتمام ، لقول أبي تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

وما نشك في أن ابن القيسراني كان يتمثل في ذهنه هذه القصيدة البائية لأبي تمام ،
وأنه كان يتأثر بها إذ ذاك كل التأثر . ولألفاظ هذه القصيدة جزالة وخامة تلائم
الموضوع الذي قيلت فيه . وبها من الطباق والجناس شيء كثير ، وسنعود إليها بعد حين .
وفرغ ابن القيسراني من إلقاء قصيدته بين يدي نور الدين وكان خيما قرب حلب ،
في جمه يقال لها (جسر الحديد) ، فأتى بعده ابن منير ، وأنشد هذه القصيدة :

أقوى الضلال وأفقرت عرصاته وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده من بعد ما علمت دما عبراته
ردت على الإسلام عصر شبابه وثباته من دونه وثباته
أرسي قواعده ومدَّ عماده صعدا وشيد سورته سوراته
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصلاته ووصلاته وصلاته

ملك مجالس لهوه شداته
ويروقه ثغر العدا قان دما
فتح تعممت السماء بفخره
سبغت على الإسلام بيض حجوله
منها :

نبدوا السلاح لضيغم عادته
لمجرب عمرية غضبته
فليحمد الإسلام ما جدحت له
وسقى صدى ذاك الحياصوب الحيا
ما ضر هذا البدر وهو مخلق
في كل يوم تستطيل قناته
أين الآلى ملثوا الطروس زخارفا
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحه
ومنها : صدم الصليب على صلابه عوده
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة
فانقاد في خطم المنية أنفه
ومضى يؤنب تحت (آنب) همة
تمشى القناة برأسه وهو الذى
ما انقاد قبلك أنفه بخزامة
لما بدا مسود رأيك فوقه
ترك الكنائس والكناس لناهب
والآن ملقى بالعرا يقاته
لا زال هذا الملك يشمخ شأنه
ما أخطأتك يد الزمان فدونه
فرس الفوارس والقنا غاباته
لله معصية غزواته
شربات غرس هذه مخباته
خير الثرى ما كنت أنت نباته
أن السكواكب فى الذرا ضراته
فوق السماء وتعالى درجاته
عن نرف بحر هذه قطراته
سخرت بما افتعلوا لهم فعلاته
فتفرقت أيدى سبا خشباته
بالروح محقر ما جنت غدراته
يوم (الخطيم) وأقصرت نزواته
أمست زوافر غيها زفراته
نظمت مدار النيرين قناته
كلا ولا همت لها هدراته
مبيض نصر ك نكست راياته
بالببيض ينهب ما حواه عفاته
ما كان قبل يصيده يقاته
أبدا وبلقى فى الحضيض وشاته
من شاء فلتسرع إليه هناته (٢)

(١) مشوق: جمع مشق، وهو سرعة الطعن والضرب. والشذا: كسر العود الذى يتبخر به، الواحدة: شذاة. يريد أن سرعة طعنه للأعداء هى طيبه الذى يتطيب به.
(٢) الروضتين: (ج ١ صفحات ٦٠، ٦١، ٦٢).

وهي قصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة ثلاثة وستين بيتا .
وهي كما ترى مثقلة بأنواع البديع . ومن أهمها الجناس الذي قلنا إن ابن منير أشد
كلفا به من صاحبه ابن القيسراني . وانظر إلى قول ابن منير في هذه القصيدة :

وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا إصلاته وصلاته وصلاته .
وأما الطباق فكثير أيضا في هذه القصيدة . وقد انتفع به الشاعر في السخرية من
صاحب أنطاكية ، والتشفي في مقتله ، كما في قوله :

تمشي القناة برأسه وهو الذي نظمت مدار النيرين قناته
وتسنى لنور الدين بعد ذلك فتح (فامية) ، وهو من أمنع الحصون التي كانت بأيدي
الفرنج ، ثم تمكن من فتح (سنجار) و (الرحبة) و (الفرات) ، وحصون أخرى
كثيرة . فأنشد ابن منير قصائد طويلة ، منها رائيته التي أولها :

أسنى الممالك ما أطلت منارها وجعلت مرهقة الشفار دثارها
وأحق من ملك البلاد وأهلها رؤف^(١) تكنف عدله أقطارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد من بعدما شمل البلى أصحارها
في كل يوم من فتوحك سورة للدين يحمل سفره أسفارها
همم تحجلت الملوك وراها بدم العثار وما اقتضت آثارها^(٢)
ومنها رائيته الأخرى ، وفيها قوله :

خنس الثعالب حين زجر مصحر ملأ البلاد هماهما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لجاذق جعلت مخافته القصور قبورا
أسد إذا ما عاد من ظفر برف ترس أحد لمثله أظفورا
يتناذر الأعداء منه سطوة ملأ الزمان تغيظا وزفيرا
عرفوا لنور الدين وقع وقائع وفي بها الإسلام أمس ندورا
أبدا يظافرك القضاء على الذي تبغى فترجع ظافرا منصورا^(٣)
وأما ابن القيسراني فقال يهني نور الدين بهذه الفتوح :

(١) الرؤف ، بفتح الهمزة وسكونها وضمها : بمعنى الرؤوف .

(٢) الروضتين : (ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤) .

(٣) الروضتين : (ص ٦٤) .

هذا الذي ولدت له الأفكار وتمخضت فألا به الأشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة وردت وصفو ضميرها المضمار
فانظر إلى هذين البيتين السابقين ، لقد جاء مصداقا لقول أبي شامة : إنه لو عاش
لنور الدين شاعراه ابن القيسراني وابن منير ، لأتيا فيه بالغرائب ؛ لأن شخصية نور الدين
كما قلت ، توحى لمثل هذين الشاعرين بتلك الغرائب .

ومنها : يا ابن السيوف وهل نخرت بنسبة إلا سما بك للجدود نثار
فارقت دار الملك غير مفارق لك من علاك بكل أرض دار
في عسكر يخفى كواكب ليله نفع فيطلعها القنا الخطار
حتى ملأت الخافقين مهابة دانت لعظم نظامها الأقطار
وملست (سنجارا) وما من بلدة إلا تمت أنها (سنجار)
وبسطت بالأموال كفا طالما طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها جرى السيول وما سواك قرار
وثى (الفرات) إلى يدك عنانه والبحر ما اتصلت به الأنهار
وملكت (رحبة مالك) فتبرجت منها لعينك كاعب معطار
نثرت عليك هوى القلوب محبة وتود لو أن النجوم نثار
فأقمت كالشمس المنيرة إن نأت عن أفقها فلها به أقرار
إن تمس في (حلب) رياحك غضة فلها بأنطاكية إعصار
وغدت جيادك بالشآم مقيمة ولها بأطراف الدروب مغار
ملك له من عدله ووفائه جيش به تستفتح الأمصار
وإذا الملوك تشاقلت عن غاية وأرادها خفت به الأقدار
وإذا انتفضته إلى الشغور عزيمة قامت مقام جنوده الأخبار^(١)

✽ ✽ ✽

ومن هاتين القصيدتين اللتين سقناهما في مدح نور الدين وتهنئته بتلك الفتوح ،
يتضح لنا كيف أن (ابن منير) كان حقا أشد من صاحبه (ابن القيسراني) كلفا
بالبديع ، ولكن هذا الأخير ربما كان أكثر اعتمادا من ابن منير على الجزالة اللفظية ،

وهما بعد يتساويان في إذكاء العاطفة الدينية في نفوس المسلمين ، بما يمدحون به البطل نور الدين ، بعد صدق جهاده للفرنج ، وسرعة استيلائه على حصونهم وبلادهم ، لا بقصد الكسب أو الملك ، ولكن لغاية دينية خالصة :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا من الملوك فنور الدين محتسب وبما يصورون من هبة هذا الملك الكبير ، وشدة خوف الفرنج منه ، حتى إن عدوى الفتح لتصيب حصونهم ، فتسلم نفسها إليه قبل أن يصل هو إليها :

عمت فتوحك بالعدوى معاقلها كأن تسليم هذا عند ذا جرب والحق أن معاني ابن القيسراني كانت أكثر من معاني ابن منير ، على حين أن بديع ابن منير كان أكثر من بديع ابن القيسراني ، على أن هذا الأخير كان أشد حرصا ، وأكثر دورا نأحوّل المعنى الرئيس ، الذي تدور حوله جميع القصائد الصليبية ، وذلك منذ انبرى أبطال المسلمين لمحاربة الصليبيين ، ووضعوا لأنفسهم خطة تهدف لغرض واحد ، هو استخلاص البيت المقدس ، ورده كما كان منذ أول الأمر بلدا إسلاميا بحتا . وانظر هنا إلى قول ابن القيسراني في هذا المعنى :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب وإلى قوله من قبل في قصيدة سابقة أتى فيها نفس هذا المعنى :

فإن ياك فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل وإلى قوله كذلك من قصيدة سيأتى ذكرها :

كأنى بهذا العزم لا فلّ حده وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر على حين أننا نرى أن ابن منير — كما قلنا كذلك — أكثر اهتماما بالجناس والطباق وغيرهما من ألوان البديع . وقد أتاح له ذلك الإفادة في مدح نور الدين ، فأحسن المقابلة بينه وبين الصليبيين ، وقد أصيبوا منه بملك أذهم ، وخطم أنوفهم ، ونهب ديارهم ، وكسر صليبهم ، وترك أميرهم نهبا للطيور التي كان ينهبها في حياته بالصيد ؛ فذلك قول ابن منير :

صدم الصليب على صلابة عوده فتفرقت أيدي سميا خشباته
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلة بالروح ممقر ما جنت غدراته
فانقاد في خطم المنية أنفه يوم (الخطيم) وأقصرت ثرواته

والآن ملق بالعرا يقاته ما كان قبل يصيده يقاته !
وبحسبنا ذلك تعقيبا على هاتين القصيدتين ، اللتين نعجب بهما إعجابا يزداد في
نفوسنا كلما استعدنا قراءتهما ، وأنعمنا النظر في حظهما من الجمال الفني ، وسرت إلينا
روحهما المعنوية العالية ، وحملتنا ألفاظهما الجزلة حملا سريعا إلى الجو الذي قيلتا فيه .
نقول بحسبنا ذلك تعقيبا سريعا على هاتين القصيدتين الرائعتين ، لننتقل إلى غيرهما
من الصقائد التي قيلت في مدح هذا البطل ، الذي نتبعه وقلوبنا وعقولنا تشارك الشعراء
في عاطفة الإعجاب به ، والثناء على موقفه ، والتقدير لبطولته .

اتجهت همة نور الدين بعد ذلك إلى دمشق ، فخطب ودها ، وأناخ بخيله في مكان
قريب منها ، أوجس صاحب المدينة منه خوفا ، فبعث إليه نور الدين برسالة يقول فيها :
« إنني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا
الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان ، بأن الفلاحين أخذت أموالهم ،
وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، لعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني
الله وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال
أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم ، مع معرفتي لعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب والتقصير
الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالفرنج على محاربتهم ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء
والمساكين من الرعية ، ظلما لهم ، وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضى الله تعالى ولا أحدا
من المسلمين . ولا بد من المعونة من ألف فارس تجرد مع من يوثق بشجاعته ، لتخليص
نعر عسقلان وغزة . . . الخ (١)

فما كان جواب (مجير الدين) صاحب دمشق عن هذه الرسالة إلا أن قال :
« ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك إن
قصدتنا ، ونزلت إلينا » .

فأنكر نور الدين هذا الرد ، وأكثر من التعجب ، وعزم على محاربة دمشق ؛
ولسكن الطبيعة نفسها أبت على البطل تنفيذ ما عزم عليه من الأمر ؛ فهطلت أمطار

كثيرة في هذا اليوم ، حالت دون تقدم الجيش ، فأضاف نور الدين إلى ذلك السبب الذي أضافه يومئذ ، وهو رغبته في حقن دماء المسلمين . ولم كان هذا الرجل العظيم بقدر ضراوته في إسالة دم الفرنج والصليبيين ، يشفق الإشفاق كله على دم المسلمين . وبعد قليل وجد صاحب دمشق أن من الخير لنفسه وللمسلمين في ذلك الوقت أن يعقد الصلح بينه وبين نور الدين ، على أن يخطب له بعد الخليفة والسلطان السلجوقي على منبر دمشق ، فرضى نور الدين بذلك الصلح ، وخلع على صاحب المدينة خلعا كثيرة ، ووزع الأموال على الضعفاء والفقراء وطلبة العلم ، وفرح الناس فرحا كثيرا بذلك اليوم ، واشترك الشعراء في التعبير عن سرورهم به . وهذا ابن القيسراني يمدح نور الدين بذلك في قصيدة منها : (١)

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح	وإن شئت صلحا عد من حزبك الصلح
وهل أنت إلا السيف في كل حالة	فطورا له حد وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها	ترنج من سكر نخل القنا تصحو
وقد علم الأعداء مذبت جانحا	إلى السلم ما تنوى بذاك وما تنحو
إذا ما دمشق ملكتك عنانها	تيقن من في (إيليا) (٢) أنه الذبح
إذا سار نور الدين في الجيش غازيا	فقلولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها	فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجرح
صبرت فكان الصبر خير مغبة	فسيق إليك الملك يسعى به النجح
كأن القنا تجلو له وجه أمره	ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرح
سخابك هذا الدهر جودا على الورى	على أنه ما زال في طبعه شح
وقد كان يحو رسم كل فضيلة	ونحن نراه اليوم يثبت ما يحو
ولم أختصر ما قلت إلا لأننى	أعبر عما لا يقوم به الشرح

وفي هذه الأبيات يحتفظ ابن القيسراني بجزالة المعروفة ، ويحرص على المعاني حرصه المعروف ، ويأتى بإشارات تاريخية ومن القرآن ، لكي توحى بمعنى خاص ، كما في قوله « ولو أمهلت بلقيس ما غرها الصرح » وقد نظر الشاعر هنا إلى صلح

(١) س ٧٠ الجز الأول كتاب الروضتين

(٢) إيليا : اسم من أسماء بيت المقدس .

دمشق على أنه تسليم ورضا منها بأن يملكها نور الدين ، ليستعين بها على الصليبيين ، كما في قوله :

إذا ما دمشق ملكتك عنانها تيقن من في (إيليا) أنه الذبح
مع أن نور الدين لم ينته بعد من هذا الأمر ، وهو امتلاك دمشق .
تحرك نور الدين بعد ذلك إلى حصن من أمتع حصون الفرنج ، يقال له (حصن
عزاز) فإزال به حتى أخذه ، وكان عسكره قد تمكنوا قبل ذلك من قتل صاحب الحصن ،
فأتى ابن القيسراني الشاعر مهتماً نور الدين بقصيدة أولها : (١)

دعا ما ادعى من غره النهى والأمر فما الملك إلا ما حباك به الأمر
ومن ثنت الدنيا إليه عنانها تصرف فيما شاء عن إذنه الدهر
ومن راهن الأقدار في صهوة العلا فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعر
إذا الجد أمسى دون غايته المنى فماذا عسى أن يبلغ النظم والنثر !
ليهن (دمشقا) أن كرسى ملكها حوى (٢) منك صدرا ضاق عن همه الصدر
خطبت فلم يحجبك عنها وليها وخطب العلا بالسيف ما دونه ستر
جلاها لك الإقبال حورية السنا عليها من الفردوس أودية خضر
خلوب أكنت من هواك محبة نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نخلة فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صاحفت يملك من بعد هجرها فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت دلالا وإن عز الحبا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصدقاها فليس له قدر وليس لها قدر
على أنها لو لم تجبك إنابة لأرهقها من بأسك الخوف الذعر
ومنها في ذكر أنطاكية وظفر نور الدين بها وبأميرها :

ومن بز أنطاكية من ملىكها أطاعته ألحاظ المؤللة (٣)
أخو الليث لولا غدره نزعت به إلى الذئب إن الذئب شيمته الغدر
أتى رأسه ركضا وغودر شلوه وليس سوى عافى النسور له قبر

(١) انظر الروضتين ١ ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ . (٢) في الأصل : حبي .

(٣) أل : نَصَبَ أذنيه وحددها . القاموس المحيط .

وقد كان في استبقائه لك مئة
كما أهدت الأقدار للقمص أسره
ثم أتى على ذكر عزاز فقال :
وأمت (عزاز) كاسمها بك عزة
فسروا ملاً الدنيا ضياء وبهجة
كأنى بهذا العزم لافل حده
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وقد أدت البيض الحداد فروضها
وصلت بمعراج النبي صوارم
وإن يقيم ساحل البحر مالكا
ومنها :

فيا كعبة ما زال في عرصاتها
خلعت على الأيام من حُلل العلا
وتوجت ثغر الشام منك جلالة
فلا تفتخر مصر علينا بديلها
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله
والقصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة أكثر من خمسين بيتا ، أكثرها جيد ، ومعظمها
آية في الجزالة . وفيها هنا الشاعر ممدوحه - كما رأينا - مرة أخرى بفتح دمشق ، بعد
إذ تمتعت عليه أول الأمر ، ثم رضيت بعد أن دفع لها المهر غاليا في نهايته ، وكسر
جيشها كسرة لا جابر لها بعد ذلك :

صدعتهم صدع الزجاجة لايد لجابرها ما كل كسر له جبر
ثم سخر في قصيدته بأبطال الفرنج ، ورماهم بالغدر ، ووازن بين غدرهم وبين كرم
نور الدين ، الذي استبقى لهم حياتهم ، كرما منه وفضلا ، ولولم يكونوا سعداء لما وقعوا
في أسره ، وبقيت لهم حياتهم على هذا النحو . ثم أتى إلى ذكر عزاز ، ولم ينسهِ كل ذلك

(١) الإشارة هنا إلى ممالك الساحل التي بأيدي الصليبيين .

أن يذكر نور الدين تذكيراً توسله بالمسجد الأقصى وبالقدس ، بعد إذ أدت السيوف ما عليها من فروض أو ندور . فقال :

كأنى بهذا العزم لا قلّ حده وأقصاه بالأقصى وقد قضى الأمر
وقد أدت البيض الحداد فروضها فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وفي كل هذه الآيات نوع من البديع يسمى (توجيهها) ، وهو هنا توجيه من الفقه ،
الذى من ألفاظه القروض والندور والشفع والوتر الخ .

ثم أتى ابن منير الشاعر يهنيء نور الدين كذلك بقوله (١) :

فدتك القلوب بالبابها وساح الملوك بأربابها
كتائب ترمى جنود الصليب منها بتقطيع أصلابها
إذا ما انثنت من قراع السكاة كست وفدها وشى أسلابها
تبرنس منها البرنس الثياب وحلته من وقع أحلابها
عشية غصت على (آنب) نفوس النصارى بغصابها
تجلى لها حيدرى المصا (٢) ع أغلب مود بغلابها
مورث أركاسها من أب أكل الفوارس شرابها
همام إذا اعصوصبت نبوة دهاها بها شم أعصابها
مضى وجنى لك حلو السها د مما تمطق من صابها
وأوصى بها لك من بعدها تجرع ممقر (٣) أوصابها
وأقسم جدك ألا يليق بغيرك ملبس أثوابها
صبحت (دمشق) بمشق الجياد زبور الوغى بين أحداها
وعزت (عزاز) فأذلتها بمجرى مضيق لأسبابها
فلاذت بمعتصم بالسكتاب وهوب الممالك سلابها
بمعتصم الذرا والهدى هموس السرى غير هياها

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٧١ ، ٧٢

(٢) المصاع هو الضرب بالسيف ، وحيدرى نسبه إلى حيدرة من أسماء الأسد أو من أسماء على بن أبى طالب .

(٣) ممقر كمحسن : معناه اللبن الحامض (القاموس المحيط)

محل المحل بوصف الفتوح ووصف التهانى وأربابها
فأيامه من حبور تكاد يطير بها فرط إعجابها
وهي قصيدة طويلة كذلك ، ذكر منها أبو شامة أربعين بيتا ، وفيها ذكر لوالد
نور الدين ، وكيف أنه ورث ابنه جهاد الصليبيين ، وأوصاه بهم بعد ما تجرع مرهم ،
وصبر على حربهم ، وكيف وجه نور الدين همه بعد ذلك إلى دمشق وعزاز ، ففتحهما ،
وأتى في سبيل ذلك بالمعجزات ، التي حيرت شعراء عصره في وصفها ، ولو تقدم الزمن
بها لمار في وصفها أبو تمام حبيب بن أوس الطائي نفسه :

بدائع لورد دهر رمين بنات حبيب بأحبائها
وأين ابن أوس وآياته من اللام أودت بحسابها
وكان من عادة الشعراء إذا أتوا لتهنئة نور الدين بفتح جديد ، أنهم يذكرون بقية
الفتوح الأخرى ، تنويعا بها ، وتثبيتا لها في أذهان المسلمين ، وتحريضاهم على المضى في هذه
الفتوح ، تحت راية البطل الغيور نور الدين . ومن ذلك الشعر ما قاله ابن القيسراني^(١) :

أما وخيال زار بمن أحبه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا ذكرت نسima بالشغور مهبه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجة يحامى عليها مدنف القلب صبه
فلا تسألن الصب أين فؤاده فإن فؤاد الصب مع من يحبه
وفي شُعب الأكوار من هو عالم غداة استطار البرق من طار له
نسيم ثغور المزن تهيم كأنها سنا بشر نور الدين تنهل سحبه
تولد بين الغيث والليث والتقى منافسة أى الثلاثة تربه
حمى قبة الإسلام بالخيال فاغتدت وأوتادها جرد الطعان وقبه
فكم هبوة أوقعن بالكفر تحتها فما انقضت إلا وللذل جنبه
كيوم (الرها) الورهاء^(٢) والهام يانع ملء برعى الهندوانى خصبه
(وشهباء) هاجتها وغي صرخدية^(٣) ثناها وليل الحرب ينقض شبهه

(١) نفس المصدر : ص ٧٤

(٢) الورهاء : بمعنى الحقاء

(٣) نسبة إلى صرخد

ومنها : (بأنب) لما أكسب المال واثني
 غداة هوى شطرين للسيف رأسه
 وقائع محمودية النصر لم تزل
 يقوم مقام الجيش فيها وعيده
 إلى أن دعت ربه كل بلدة
 فقل للملوك الخافقين نصيحة
 وحلوا عن الآفاق فالشرق شرقة
 وفي نهاية القصيدة قوله :

أمتخذ الإخلاص لله جنة
 أبوك استرد الشام بالسيف عنوة
 إذا اذب عن أضغاث دنياه مالك
 رأيت اتباع الحق خير مغبة
 وأوضحت ما بين الفريقين سمنة
 ويثبت نور الدين ما كان يبتغي
 ومن يعتصم بالله فله حسبه
 وللروم بأس طالما غال خطبه
 فأنت الذي عن حوزة الدين ذبه
 فأفرجت عن رأى يسرك غبه
 بها عرف المربوب من هو ربه
 دليلا بأن الله من أنت حزبه

وفي هذه القصيدة نظم ابن القيسراني أهم المواقع والأيام التي انتصر فيها نور الدين
 على الفرنج ، ومنها يوم (الرها) ويوم (آنب) ويوم (حلب الشهباء) ويوم (صرخد)
 ويوم (العريمة) ويوم (العاصي) ، وذلك حيث يقول :

وغارم يوما (بالعريمة) فاغتدت
 وعاصي على (العاصي) بأرعن خاطب
 إلى أن دعت ربه كل بلدة
 فليس من الأمصار من لا يربه
 بوادي ثمود إذ رغا فيه سقبه^(١)
 دم الأفك حتى أنكح النصل خطبه

وبلغ نور الدين أن أهل دمشق مازالوا يستنجدون عليه بالفرنج ، فسأه ذلك ، وعاد
 يحاصرهما ، فسكتب إليه ابن منير قصيدة يذم فيها «مجير الدين» صاحب دمشق ، ويعيره
 باستنجاهه بالفرنج ، ومنها قوله^(٢) :

(١) يطلبه ربنا له .

(٢) السقب : ولد الناقة . والاشارة إلى ناقة ثمود في القران معروفة .

(٣) نفس المصدر المتقدم ص ٧٨

صدمت ابن ذى اللغدين فأنحل عقده
 و كاسلك قد أمسى يحل ويعقد
 يقلب خلف السجن عينا سخينة
 ويبكى بأخرى ذات شتر ويسهد
 ولا غرو قد أبى أبوه وجده
 له كل يوم ثوب عجز يحدد
 فيارا كبا إما عرضت فبلغن
 بيوتا على جيرون بالذل تعمد
 وقل لمبيد الدين وهو مجيره
 بزعم له وجه الحقيقة أربد
 حملت الصليب باغيا ونبذته
 وثغرك مطووس النبات وأردد
 تنصرت حينما والبلاء موكل
 ولا بد من يوم به تهود
 تنصرت أما بل تمجست والدا
 وعما فغرق الكفر فيك مردد
 إليكم بنى العلات عن متشاوس
 له الشام مرفا والعراق مرفد
 وما مصر إلا بعض أمصاره التي
 إلى امره تسعى قاء وتحفد
 أنيوا إليه فهو أرحم قادر
 له الصفح دين واقبلوا النصيح ترشدوا

وهي من أروع ما قال ابن منير في مدح نور الدين ، أو على الأصح في هجو أعدائه . ففيها سخرية بصاحب دمشق ، وهو مجير الدين ، الذي خلع عليه الشاعر اسم (مبيد الدين) وناداه (بابن ذى اللغدين) ، وصوره لنا بهذه الصورة المزرية ، وهو يتنصر حينما ، ويتهود حينما ، ويتمجس حينما ، ولا يستحي من الاستنجاد بأعداء الإسلام على الإسلام .

* * *

وإن نور الدين ليفكر في دمشق كل هذا التفكير ، وإذا بالأسطول المصرى يصل في سبعين مركبا إلى يافا وصور ، وينهب أموال الفرنج ، وأرواحهم ، وعنادهم في تلك الثغور ، ويحاول البطل نور الدين أن يلحق بهذا الأسطول ، وأن يعينه على إبادة الفرنج المقيمين هناك لولا اشتغاله يومئذ بدمشق وبالفرنج الذين استعان بهم صاحبها على نور الدين ، حتى التقى بهؤلاء وهؤلاء في جهة يقال لها (الجولان) ، بالقرب من دمشق ، وانتصر عليهم ، فاضطر مجير الدين إلى الذهاب بنفسه إلى حلب ، حيث استقبله نور الدين ، وقبل ما بذله له من فروض الطاعة والخضوع . وهكذا تم النصر لنور الدين في هذه الموقعة على الفرنج وأهل دمشق .

وفي ذلك يقول ابن القيسراني الشاعر^(١) :

وفت لك الدنيا بميعادها باذلة أفلاذ أكبادها
وأوفدت غر سلاطينها عليك في همة أنجادها
تبغى سناء أقصدت قصده طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتد أعمارها يوم التلاقى يوم ميلادها
ومنها :

شامت دمشق بك برق العلا فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى قد أشرق الأفق بإيقادها
فيممت منك حيا مزنة بيض الأيادي ورد ورادها
فأسأل مجير الدين عن خبرة أوردتها محمود إيرادها
تنافس الناس على دولة فت بها أعين حسادها
ثم قال :

يا ملكا تزهى بأسمائه منابر تسمو بأعوادها
وتأخذ الأسماع أوصافه عن جمع الدنيا وأعيادها
كم للبعالي فيك من رغبة تفنى الأمانى دون تعدادها
لك المساعى الغر ياجامعا من طرفيها بين أضدادها
يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زهادها
فأنت نسكا غيث أبدالها وأنت فتكا ليت آساده
في أمة أنت حمى دينها حيننا وحيننا شمس عبادها
مآثر لو عديمت راويا تكفّل النظم بإسنادها

وأما ابن منير فقال يهني نور الدين بانتصاره في وقعة الجولان^(٢) :

ما برقت بيضك في غمامها إلا وغيث الدين لا بتسامها
ملك أزال الروم عن صلبانها دفاعه وكب من أصنامها
جال على (الجولان) أمس جولة صفرت الأدحى من نعامها

(١) نفس المصدر المتقدم ص ٨٣

(٢) نفس المصدر ص ٨١

وفي (الرها) صابت له سحابة صاروا جفاء خف في التطامها
 وهب في (هاب) له عواصف تجممتها الهف^(١) من جهامها
 غضبان للإسلام لا يغيظه استسلامها للقسر من إسلامها
 أمت بنا الآمال منك كعبة سلم الليالي آية استسلامها
 وأرشفتنا بك ثغر نعمة لا نسأل الله سوى دوامها
 وهي قصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة ثلاثين بيتا ، وأتبعها بقصيدة أخرى نونية ،
 أربت على الأولى في عدد أبياتها وفنها في وقت معا .

* * *

وتمكن نور الدين بعد ذلك من فتح حصن عظيم من حصون الفرنج ، هو حصن
 (أنطرسوس) ، ومن امتلاك عدة حصون أخرى ، منها حصن (يحمور) ، فجاءه ابن منير
 مهنثا بقوله^(٢) :

أبدا يباشر وجه غزوك ضاحكا	وتثوب منه مؤيدا منصورا
غسل العواصم أمس من أدرانهم	واليوم رد به السواحل بورا
أخلى ديار الشرك من أوثانها	حتى غدا ثالوثهن نكيرا
رفع القصور على نضائدها مهم	من بعد ما جعل القصور قبورا
غادرت (أنطرسوس) كالطرس انمحي	رسما وجر ردعها (يحمورا)
وهي الزناد لفتنة كانت على الله	إسلام أحكم كسره إكسيرا
هتمت (طرابلس) فأصبح ثغرها الله	بسسام من عز الثغور ثغيرا
إقليدها كانت وقد أنظيته ^(٣)	واسأل بها عن دهره خبيرا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصا	منهم ودمر أرضهم تدميرا
لا يلهمهم أن قد أمنت وشننها	شعواء تَصلي الكافرين سعيرا

إلى أن قال :

ضحكت لك الأيام واكتأب العدا قلقا فجئت مبشرا ونذيرا

(١) سحابة هف بالكسر : بلا ماء (القاموس المحيط) .

(٢) الروضتين : ص ٨٦

(٣) أنظي : كاعطى وزنا ومعنى .

لا ملك إلا ملك محمود الذى اتخذ الكتاب مظاهرا ووزيرا
تمشى وراء حدوده أحكامه تأتمن فيحكم التقديرا
يقظان ينشر عدله فى دولة جاءت لمطوى السماح نشورا

وهكذا نرى الشعراء إثر كل فتح من الفتوح يهرعون إلى البطل نور الدين يهنئونه بهذا الفتح ، ولا يكتفون بذلك حتى ينظموا فتوحه الأولى فى سلك واحد من الشعراء ، كما نظم هو لنفسه جميع تلك الفتوح فى سلك واحد من الناصر . ثم لا يقف الشعراء عند هذا الحد حتى يفتحوا أمام البطل باب الأمل فى فتوح أخرى ، أكبر شأننا وأعم نفعا له وللمسلمين ؛ وهم يعلمون أن كل بلد ينتزعها نور الدين من الصليبيين ، وكل قلعة يأخذها منهم ، إنما هى خطوة نحو النصر النهائى الذى يرجونه عليهم ، وهو إخراجهم جميعا من القدس .

فى ذلك الوقت أعنى سنة ٥٨٤ هـ استطاع الفرنج التغلب على حصن من أكبر حصون الإسلام ، هو (حصن عسقلان) ، بعد أن قاوم أهله ما استطاعوا ، واستغاثوا يومئذ بالخليفة الفاطمى فى مصر ، فجهز لهم أسطولا عظيما وصل إلى الثغر ، ولكن بعد أن ملكه القوم ، وكان فى هذا الثغر من العدد الحربية والأموال ، والميرة والغلال ، ما لا يمكن حصره ، فضاقت صدور المسلمين بهذا الخبر ، واشتد وقعه عليهم . وإذ ذاك لم يطق نور الدين صبرا على موقفه من دمشق ؛ فإنها وإن دانت له بالطاعة ، إلا أن صاحبها مجير الدين لم يزل بها ، وهو رجل لا يؤمن جانبه ، وليس بعيدا عليه أن يعود فيمالئ الفرنج عليه .

لذلك لم يجد نور الدين بدا من قصد دمشق ، وامتلاكها نهائيا ؛ فملكها يومئذ قبل أن يملكها الفرنج .

فأين الشاعران اللذان كانا ينتظران أياما كثيرة لنور الدين مثل يوم دمشق ؟ . أين هما الآن يقبلان على البطل يهنئانه بشعرهما ، ويعبران فى هذا الشعر عن آمال المسلمين والإسلام .

أين ابن القيسرانى وابن منير يتغنيان بهذا النصر المبين ؟ .

لقد ماتا قبل أن يتم لنور الدين فتح دمشق نهائيا في عام ٥٤٩ هـ ، مات ابن منير أولا في جمادى الآخرة من عام ٥٤٨ هـ ، ومات صاحبه ابن القيسراني بعده بعشرة أيام فقط . قال أبو شامة : رحل شاعرا الشام في وقتها ، وقد شبههما العماد الكاتب في الخريدة ، بجرير والفرزدق . وكذلك كانا ، واتفق موتهما في سنة واحدة ، ومات الجرير بعد الفرزدق بقليل ^(١) .

وعاد الفرنج إلى مضايقة نور الدين ، وخصوصا بعد إذ علموا أنه مريض ، وأن المرض أصبح يقعد به عن محاربتهم . فأخذوا يشنون الغارات على (حوران) والأقاليم المجاورة لها ، وإذ ذاك وردت الأخبار من مصر بأن عسكرها خرجوا إلى عسقلان ، وأغاروا عليها ، وانتصروا على من كان بها من الفرنج وقتلوه ، وأسروهم ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وفرح المصريون بهذا النصر فرحا عظيما ، وبعث وزيرهم الملك الصالح طلائع بن زريك إلى الأمير أسامة بن منقذ بقصيدة ، هي من القصائد التي عبرت عن العاطفة الدينية العليا عند المسلمين شيعة وسنيين ضد الصليب ، وكان هذا الوزير المصري طلائع بن زريك كثيرا ما يكتب أسامة بن منقذ بالشعر في معنى الجهاد ، من ذلك قوله يطلب إلى أسامة أن يعلم نور الدين بالنصر الذي أحرزه المصريون على الصليبيين ^(٢) :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم	وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم	وليس سوى سحر الرماح سلام
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها	ويوطأ حماها والأنوف رواغم
ويؤوف الكرام الناذرون بنذرهم	وإن بُذلت فيها النفوس السكراهم
نذرنا مسير الجيش في صفر فما اند	شئ حتى انثنى وهو غنام
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا	مفاوز وخد العيس فيهن دأهم
فما هاله بُعِدُ الديار ولا ثنى	عزيمته جمـد الظل والسمام
يبارى خيولا ما تزال كأنها	إذا هي ما انقضت نسور قشاعم

(١) الروضتين ص ٩١

(٢) الروضتين ص ١١٥

يسير بها ضرغام في كل مأزق وما يسحب الضرغام إلا الضراغم
وواجههم جمع الفرنج بحملة تهون على الشجعان فيها الهزائم
وما زالت الحرب العوان أشدها إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت رموس وحزّت للفرنج غلاصم
فلم ينبج منهم يوم ذاك مخبّر ولا قيل هذا وحده اليوم سالم
ثم اتجه الوزير الشاعر إلى نور الدين يحرضه على قتال الفرنج ، فقال :

فقولوا لنور الدين لا فلّ حدّه ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
تجهز إلى أرض العدو ولا تنه وتظهر فتورا إن مضت منك حارم^(١)
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا بعض عليها لليلوك الأباثم
فعندك من أطفاف ربك ما به علمنا يقينا أنه بك راحم^(٢)
أعادك حيا بعد زعم الورى بأ نك قد لاقيت ما الله حاتم
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها وحلت بها تلك الدواهي العظام^(٣)
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر فسيقت سبايا واستحلت محارم
فقم واشكر الله الكريم بنهضة إليهم فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وغاراتنا ليست تفتر عنهم وليس ينبجى القوم منا الهزائم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا إليهم فلا حصن لهم منه عاصم

فانظر إلى لطف الله تعالى بالمسلمين : يصيب المرض زعيمهم الكبير نور الدين ،
ويقعده عن قتال الصليبيين ، فينهض المصريون بقتالهم في ذلك الظرف العصيب ،
ويقدر لهم النصر الذى يمسحون به عار السكوت عن هذا العدو ، الذى سلخ منهم فلسطين
وغيرها من البلاد الشامية ، التى كانت تمتلكها الخلافة المصرية . ثم انظر كذلك إلى

(١) فى سنة ٥٥١ هـ حاصر نور الدين قلعة حارم من حصون الفرنج المنيعه ، وهى غربى حلب ، وضيق
الحصار على من بها من الفرنج ، فأخذوا يتشاورون فى الأمر ، فطلبوا الصلح ، فلم يجبههم نور الدين إليه إلا على
مناصفة هذه الولاية ، وهى ولاية حارم ، فأجابوه إلى ذلك (ص ١٠١ الروضتين ج ١) .

(٢) تشير بذلك إلى مرض نور الدين كما أشرنا إلى ذلك مرضا كاد ينتهى بموته وصادف ذلك وقوع
الزلازل العظيمة بالشام ، وهى الزلازل التى كلفت الناس خسائر كبيرة فى المال والأرواح .

المسلمين كيف ينسون أحقادهم ، ويطرحون الخلافات الدينية وراء ظهورهم ، وذلك في الوقت الذي يدهم الإسلام فيه خطر صليبي . ألا ما أبعد الشقة المذهبية بين الملك الصالح طلائع بن رزيك وبين الملك العادل نور الدين ! ولكن يجمعهما دين واحد هو الإسلام ، وغاية واحدة هي الجهاد . فلينس كل منهما مذهبه في سبيل هذه الغاية التي هي درء الخطر الصليبي .

والظاهر أن هذا النصر الذي أحرزته مصر قد أسكر وزيرها طلائع بن رزيك أكثر من هذا القدر ، فأخذ يتغنى به أمدا طويلا ، وكتب فيه لصديقه أسامة مرارا ، ومن ذلك قوله ^(١) :

يا سيدي يسمو بهم ته إلى الرتب العلية
أنت الصديق وإن بعدت وصاحب الشيم الرضية
يهنيك أن جيوشنا فعلت فعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من أبطالها مائتا سرية
فتغير هذى بكرة وتعاود الأخرى عشية
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البلية
جاءت رهوسهم تلو ح على رهوس السهرية
ومنها :

ألم بنور الدين أعلمه بهاتيك القضية
فهو الذي مازال يخلمص منه أفعالا ونيه
ويبين جمع الكفر بالبيض الرقاق المشرفيه
فعمساه ينهض نهضة يفنى بها تلك البقية
إما لنصرة دينه أو ملكه أو للحمية
ومنه أيضا قوله ^(٢) :

أيها المفتدي لأنت على البعد صديق لنا ونعم الصديق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق

(١) الروضتين ص ١١٦ ج ١

(٢) » ص ١١٦ »

وأصلتهم منا السرايا فأشجوا هم بـكـور مناهم وطروق
وأباحـت ديارهم فأبادوا قوم قتل ملازم وحريق
وانتظرونا بزحفنا بـره نورالد بن عليا منا بأن سيفيق
وهو الآن في أمان من الله وما يعتريه أمر يعوق
قل له لاعداه رأى ولا زل لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والمرموق
فاغتنم بالجهاد أجرك كي تـلـقي رفيقا له ونعم الرفيق
فأجابه أسامة بن منقذ بقوله (١) :

يا أمير الجيوش ما زال للإسـلام والدين منك ركن وثيق
أسمعت دعوة الجهاد فلبيا ها مليك بالمسكرات خـليـق
ملك عادل أنار به الدين نفعم الإسلام منه الشروق
ماله عن جهاده الكفر والعد ل وفعل الخيرات شغل يعوق
ذو أناة يخالها العز إهما لا وفيها حتف الأعادي المحيق
فاسلها للإسلام كهفين ما طر ز ثوب الظلام برق خفوق
وهنا ملاحظة لا نخفي على الناقد ، وهي هذه الأشعار التي جرى بها خيال الوزير
المصري ، والأشعار التي رد بها أسامة ، فهي كلها بالنثر أشبه ، وبالترسل أشد تعلقا ،
فانظر إلى الصالح بن رزيك يقول .

أيها المفتدى لأنـت على البـعد صدـيق لنا ونعم الصديق
وأهم المهم أمر جهاد الكفر فاسمع فغنـدنا التحـقيق
فما الفرق بين هذا الشعر وقولك في رسالة نثرية : أيأصدق وأنت على البعد نعم الصديق ،
اعلم أن أهم شيء أريد أن نهتم به هو أمر جهاد الفرنج الخ . وذلك كله بطريقة تذكرنا
حقا بأسلوب الرسائل التي تصدر عن كاتبها في غير تعمل ولا تكلف ولا تقديم ولا
تأخير ، وما إلى ذلك من الأمور التي تضطر الشاعر إليها اضطرارا بحكم الشعر .
وتبادل الرجلان أمير الجيوش طلائع بن رزيك من ناحية ، والأمير أسامة
ابن منقذ من ناحية ثانية ، شتى الرسائل الشعرية في هذا المعنى ، وكلها تصنف موقعة

عسقلان وتنتهى بمدح نور الدين بالشجاعة والإقدام ، وتحضه على مواصلة الحرب وعدم التواني فيه . وانبرى شعراء مصر كذلك يمدحون وزيرهم الملك الصالح بن رزيك ، ويشاركونه في التغنى بما أحرزه الأسطول المصرى من النصر على العدو ، وكان من أشهر الشعراء المصريين يومئذ (المذهب بن الزبير) وهو أبو على الحسن بن على بن الزبير أثنى عليه العماد الأصفهاني في كتابه الخريدة ثناء عظرا ، وأعجب بشعره ، ومنه نونية رائعة مدح بها الصالح بن رزيك ، وهنأه بانتصاره على الفرنج ، ولم ينس فيها ذكر نور الدين بالرغم من أنه ملك سنى ، والخلفاء المصريون الذين يشتغل بمدحهم المذهب شيعيون ، ومطلع القصيدة قوله (١) :

أعلت حين تجاور الحيات أن القلوب مواقد النيران
يا كاسر الأصنام قم فانهض بنا حتى تصير مكسر الصليبان
فالشام ملكك قد ورثت بلاده عن قومك الماضين من غسان

وحدث في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام ، هدمت من حصون الصليبيين جزءا غير قليل ، فانتهم الشاعر هذه الفرصة ، واستغلها استغلالا شعريا حيث قال :

مازلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود إذا غدا لعلاك يسجد شاخ البنيان

والبيت الأخير لا ذكر له في الروضتين ، وإنما ذكره العماد في الخريدة . وأحسب أن العماد ذكره أيضا وهو كاره له ، لأن فيه معنى لا يحبه السنيون ، لأنه من مألوف معاني الفاطميين . والشاعر هنا يخاطب الوزير الشيعي بما يحب ، وذلك برغم أنه ليس شيعيا مثله ، ولسكنه سنى . وكذلك كان أخوه (الرشيد أحمد بن على بن الزبير) الذي قتله شاور صبرا في سنة ٥٦٢ هـ ، ونسب إليه أنه شارك أسد الدين شيركوه في قصده (٢) . ولنعد إلى قصيدة المذهب في مدح الصالح بن رزيك فمنها قوله أيضا :

(١) الخريدة ج ١ ص ٦٢ والروضتين ج ١ ص ١٤٧

(١) الروضتين ج ١ ص ١٤٧

عجلت في (تل العجول) قراهم (وهم لك الضيفان) بالذيفان ^(١)
لما أبوا ما في الجفان قريتهم بصوارم سلت من الأجفان
وثلثت في يوم (العريش) عروشهم بشبا ضراب صادق وطعان
ولانت تخضب كل بحر زاخر من تحارب بالنجيع القاني
حتى ترى دمهم وخضرة مائه كشقائق نثرت على الريحان
وكان بحر الروم خلق وجهه وطففت عليه منابت المرجان
والشاعر في هذه الأبيات من القصيدة يصور لنا الأعداء بأنهم ضيوف هذا البطل
المصري ، الذي لم يجد لقراهم غير السيوف التي سلت من إغمادها ، لكي تخضب البحر
بدمائهم ، أو تنثر منه على صفحة هذا البحر قطعا حمراء ، كأنها شقائق الريحان أو منابت
المرجان ، أو كأنها الخلق الذي يتطيب به البحر ، كما يتطيب الناس بالطيب الجميل . ثم
قال يصف الأسطول المصري وما فعله يومئذ بالعدو :

ولقد أتى الأسطول حين غزا بما لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إلى بها شوان ^(٢) أصبحت من فتسكها ولها العداة شوانى
شبهن بالغربان في ألوانها وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها عدد القتال وقد غدت فيها القنا عوضا عن الأشطان
فأنتك موقرة بسبي بينه أسراهم مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا في كل بكر عندهم وعوان
فانظر إلى تلك السفن الحربية المصرية التي يبغضها الأعداء كل البغض لأنها تشبه
الغربان في السواد (وتشبهها كذلك في الشؤم) . وكيف لا تكون شؤما عليهم وقد
حصدتهم وصادتهم كما تصيد العقبان السكواسر صغار الطير ؟ ثم انظر إلى هذه السفن
وقد ملأها الوزير المصري بعدد القتال ، التي زادت فيها على عدد الحبال ، فعادت إليه هذه
السفن وهي مملوءة بالسبي الذين غلت أعناقهم ، وبلغت الأغلال أذقانهم ، فهم لا يستطيعون
حراكا ولا فيكاكا .

(١) الذيقان : السم الناقع .

(٢) شوان (الأولى) جمع شينى أو شينية ، وهى السفينة الحربية الكبيرة . وشوانى (الثانية) جمع
شائنة بمعنى كارهة ومبغضة ، والجناس واضح في البيت .

ومضى الشاعر في قصيدته هذه حتى أتى على ذكر الصداقة التي نشأت بين نور الدين ذلك الملك السني العظيم ، وبين الصالح بن رزيك فقال :

وأعدت رسل (ابن القسم) إليه في شعبان كي يتلامم الشعبان ^(١)
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغدو الشام وهو عليكما قسمان
وأراك من بعد الشهيد أبا له وجعلته من أقرب الإخوان
والشاعر حريص في هذه الأبيات على أن يقرب بين بطل مصر والشام ، وهو يتخذ من اسم نور الدين أو اسم جده (قسم الدولة) فألا حسنا يشهد بأن البلاد الشامية ستصبح عما قريب قسمة عادلة بينهما ، وبذلك يبشر الشاعر سيده (الصالح بن رزيك) وهو ما يفتبط به الصالح أعظم اغتباط ، وآية ذلك عند الشاعر أن ابن رزيك يتخذ من نور الدين أخا له ، بل أقرب الإخوان إليه ^(٢) .

وما دام الشاعر قد وصل إلى نور الدين أو إلى بطل المسلمين الحقيقي في تلك العصور فقد أتاح لنفسه فرصة مدحه ووصف بطولته فقال بعد ذلك مباشرة :

وهو الذي مازال يفعل في العدا ما لم يكن ليعد في الإمكان
قتل البرنس ومن عساء أعانه لما عسا في البغي والعدوان ^(٣)
وأرى البرية حين عاد برأسه مر الجنى يبدو على المران
وتعجبوا من زرقة في طرفه فكان فوق الرمح نصلا ثاني
فهذا هو نور الدين وقد طاح برأس أمير من أمراء الصليبيين ، فأظهر للناس كيف أن ربحه قد أثمر هذا الثمر المر العجيب ، وكيف أن عين هذا الأمير الصليبي — وهي زرقاء اللون — ظهرت فوق الرمح كأنها نصل آخر ركب الفصل الأصلي للرمح !!
تلك نونية المذهب بن الزبير وهي طويلة ، أثبت العماد الأصفهاني جزءا كبيرا منها في الخريدة .

(١) ابن القسم : هو نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر الذي كان يلقب بقسم الدولة .
(٢) مرجع الضمير في قوله (وأراك من بعد الشهيد أبا له) : ربما كان عائدا على الشام . ومرجع الضمير في قوله (وجعلته من أقرب الإخوان) : عائدا لاشك إلى نور الدين .
(٣) مرجع الضمير في (قتل) يعود على نور الدين بحسب رواية الروضتين — غير أن العماد في الخريدة يعود بالضمير في (قتل) على طلائع بن رزيك ، ويقول أنه نقل الأبيات المذكورة عن نسخة للمذهب ابن الزبير بخط يده .

غير أن في ترتيب هذه القصيدة خلافا عند العباد لما عليه ترتيبها عند أبي شامة .
مهما يكن الخلاف فالذى لا شك فيه أن الشاعر هنا جعل المدح قسمة بين هذين
البطلين ، وانتهاز هذه الفرصة للتعبير عن العاطفة الدينية العليا ، وهى عاطفة المسلمين -
شيعة وسنيين - ضد الصليب .

أما عن القصيدة فواضح أنه يعتمد اعتمادا كبيرا على الجناس ، ولسكنه جناس
مقبول ، لا يؤذى المعنى ، بل يزيده وضوحا فى النفس ، وعذوبة فى الجرس ، وجمالا فى
موقعه من القلب .

. . .

وحسن أن ينهض الصالح بن رزيك الهمم لمحاربة الفرنج ، وحسن أن يجتهد حتى
ينتصر عليهم فى عسقلان على هذا الوجه ، ولسكن هذه النهضة الأخيرة من جانب هذا
الوزير المصرى العظيم ، كانت أشبه شىء باليقظة التى تسبق الرقاد الاخير ، ذلك أن مصر
تعرضت بعدها للمحنة الشديدة ، التى اقترنت برجلين من رجالها ، وهما : شاور وضرغام ،
وانتهت بوقوع الديار المصرية فريسة بين غريمين كانا يقفان لها بالمرصاد ؛ وهذان
الغريمان هما نور الدين من ناحية ، والفرنج من ناحية ثانية .

وقبل الحديث عن هذه الفتنة نذكر أنه فى سنة ٥٥٨ هـ ، أعنى قبل أن يفكر نور الدين
فى إرسال حملته الأولى على مصر بقيادة أسد الدين - طمع نور الدين فى أن يملك
من الفرنج بعض الحصون . وحاول أن يحاصر بنفسه حصنا منيعا منها ، يقال له (حصن
الأكراد) ، وإنه لمشتغل بهذا الحصار - وإذا بصليبان الفرنج تظهر من وراء الجبل ،
وخلفها جموعهم وخيولهم ، تغير على المسلمين على حين غفلة ، وتصيبهم بهزيمة شديدة ،
فرقت جموعهم ، وكادت تودى بحياة زعيمهم ، لولا أن القدر أنقذه منهم ، وادخره لغاية
لا يعلمها يومئذ إلا الله ، فغضب لذلك نور الدين وأقسم لياخذن بثأره وثار الإسلام
منهم ، فجمع فلول جيشه ، وسار بهم نحو حصص ؛ وهى أقرب بلدة إلى الحصن ، وحاول
الفرنج أن يذهبوا إليه فى حصص نفسها ، ولسكنهم لما رأوه بها قالوا فى أنفسهم : (إنه لم
يفعل ذلك إلا وعنده ما يقوى به على أن يمنعنا) فرجعوا من فورهم ، وآثروا العافية ،
وبالفعل أذن نور الدين بالنفير العام فى المسلمين ، فلبى دعوته كثير من الملوك ، واجتمعوا

على حصن (حارم) ، حيث التقى بالفرنج بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، فكسروهم ، وانتقم لنفسه وللإسلام منهم شر انتقام ، وأسر من ملوكهم صاحب أنطاكية ، وصاحب طرابلس ، وابن بلدوين (جوسلين) ، ورئيس الروم ^(١)

وهناك في حصن الأكراد أتاه شاعر نلتقى به لأول مرة ، هو أبو الفرج عبيد الله ابن أسعد الموصلی فالتقى بين يديه قصيدة يمدحه بها ، ويعتذر في الوقت نفسه عن هزيمته في هذه الموقعة منها : ^(٢)

ظلبا المواضى وأطراف القنا الذبل ضوامن لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كاف ما تحاوله عز وعزم وبأس غير منتحل
وما يعيبك ما حازوه من سلب بالختل قد تؤسر الآساد بالخیل
وإنما أخلدوا جنبنا إلى خدع إذ لم يكن لهم بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم لينفذ القدر المحتوم في الأزل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر بما حوالبه من عفر ومن وعل
بنی الأصافر ما نلتم بمكركم والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم غير الأراذل والأتباع والسفل
ومنها في وصف جيش نور الدين :

جيش أصابتهم عين السكال وما يخلو من العين إلا غير مكتمل
لهم يوم حنين أسوة وهم خير الأنام وفيهم خاتم الرسل
سيفتضيكم بضرب عند أهونه البيض كالبيض والأدراع كالخلل
ملك بعيد من الأدناس ذو كف بالصدق في القول والإخلاص في العمل
ثم قال يصف نور الدين نفسه وقد ثبت في الموقعة في أقل من عشرة من عسكره :
فقام فرد وقد ولت جحافله فكان من نفسه في جحفل زجل
في مشهد لو ليوث الغيل تشهده خرت لأذقانها من شدة الوهل
وسط العدا وحده ثبت الجنان وقد طارت قلوب على بعد من الوجل

(١) الروضتين ج ١ ص ١٣٣ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٢٨ .

يعود عنهم رويدا غير مكترث بهم وقد كر فيهم غير محتفل
يزداد قدما إليهم من تيقنه أن التأخر لا يحمي من الأجل
والله عونك فيما أنت مزمعه كما أعانك في أيامك الأول
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عوض وحزت من بلد منها بلا بدل
وكم سقيت العوالي من طلي ملك وكم قرنت العوافي من قرى بطل
لانكبت سهمك الأقدار عن غرض ولا ثنت يدك الأيام عن أمل
وهي قصيدة طويلة ذكر منها أبو شامة ستة وثلاثين بيتا ، تمتاز جميعها بالجزالة
في اللفظ ، والفخامة في المعنى ، وتهوين الهزيمة على نور الدين ، والتقليل من شأن النصر
الذي أحرزه الصليبيون . كما تذكر المسلمين الذين شهدوا هذه الموقعة بأسلافهم من
المسلمين الذين حاربوا في جيش النبي عليه الصلاة والسلام . ومع هذا فقد هزموا في
وقعة (حنين) ، ثم نصرهم الله في الوقائع التالية نصرا مبينا أضاع على الكافرين ثمرة
انتصارهم الأول ، وأفقدهم قيمته إلى الأبد .
قال أبو شامة : (١)

حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ماحول المتنبي في قوله :
« غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ، »

فإن كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ، ومدحهم وهم المنهزمون ، وقد أحسنامعا
— عفا الله عنهما — ثم قال :

وعبيد الله بن أسعد هذا فقيه فاضل ، وشاعر مفلح ، كان مدرسا بجمص ، يعرف
(بابن الدهان) ، وله ترجمة في تاريخ دمشق ، وذكره العباد الكاتب في خريدته ، فأحسن
ذكره ، وأكثر الثناء على علمه وشعره .. الخ

أما أسد الدين شيركوه ، فقد ذهب في العام التالي لذلك أعنى سنة ٥٥٩ هـ على رأس
حملته الأولى إلى مصر ، استجابة منه أولا لطلب شاور إذ استعان عليه غريمه ضرغام
بالفرنج ، ولما وصل شيركوه إلى مصر قتل ضرغام ، ووطد قدم شاور في الوزارة
المصرية ، وعاد إلى دمشق .

(١) القصيدة (١)

(٢) القصيدة (٢)

(١) الروضتين ج ١ ص ١٢٩ .

ثم أتى في حملة أخرى إلى الديار المصرية ، يريد في هذه المرة امتلاكها ، ولكنه لم يفلح في أخذها ، فعاد إليها في حملة ثالثة وصلت إلى مصر ، وكان أماليك (عمورى) ملك بيت المقدس سبقه إلى محاصرتها ، حتى أتى شيركوه ، فأزاله عنها ، ودخل القاهرة دخول الظافر المنتصر .

وبلغت هذه الأنباء السارة كلها دمشق ، فطربت لها ، وانتظر الشعراء عودة شيركوه إليها لمدحه وتهنئته ، وكان منهم إذ ذاك الشاعر الكاتب (عماد الدين الأصفهاني) الذى نظم القصائد الكبيرة ، يمدح بها أسد الدين شيركوه وأخاه نجم الدين أيوب ، وابن أخيه صلاح الدين يوسف .

أما القصيدة التى مدح بها شيركوه فمنها قوله (١) :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشر ونلت ما عجزت عن نيله القُدر
من يهتدى للذى أنت اهتديت له ومن له مثل ما أثرته أثر
أسرت أم بسراك الأرض قد طويت فأنت إسكندر فى السير أم خضر
تناقلت ذكرك الدنيا فليس لها إلا حديثك ما بين الورى سمر
فأنت من زانت الأيام سيرته وزاد فوق الذى جاءت به السير
لو فى زمان رسول الله كنت أنت فى هذه السيرة المحموده السور
أصبحت بالعدل والإقدام منفردا فقلى لنا أعلى أنت أم عمر ؟
إسكندر ذكروا أخبار حكمته ونحن فىك رأينا كل ما ذكروا
ورستم خبرونا عن شجاعته وصار فىك عيانا ذلك الخبر
اخبر فإن ملوك الأرض أذهلهم ما قد فعلت فمكل فىك مفتكر
يستعظمون الذى أدركته عجا وذاك فى جنب ما نرجوه محتقر
ومنها :

يسرت فتح بلاد كان أيسرها لغير رأيك قفلا فتحه عسر
قرنت بالحزم منك العزم فاتسقت مآرب لك عنها أسفر السفر
ومن يكون بنور الدين مهتديا فى أمره كيف لا يقوى له المرار

يرى برأيك ما فى الملك يبرمه فأنت منه بحيث السمع والبصر
لقد نغت فئة الإفرنج فانتصفت منها بأقدامك الهنـدية البتر
غرسـت فى أرض مصر من جـسومهم أشجار خط لها من هامهم ثمر
وسال بحر نجيع فى مقام وغى به الحديد غمام والدم المطر
رأوا إليك عبور النيل إذ عدموا نصرا فما عبروا حتى قد اعتبروا
أفنت سيوفك من لاقـت فإن تركت قوما فهم نفر من قبلهم — نفروا
والساكنون القصور القاهرية قد نادى القصور عليهم أنهم قهروا
وشاور شاوروه فى مكايدهم فكاده السكيد لما خانـه الحذر
كانوا من الرعب موتى فى جلودهم وحين أمنتهم من خوفهم نشروا
وإن من شيركوه الشرك منخزل والكفر منخزل والدين منتصر
وكيف يخذل جيش أنت مالكة والقائدان له التأيد والظفر
وأما القصيدة التى ألقاها العاد يومئذ بين يدى نجم الدين أيوب أخى أسد الدين
شيركوه فهى (١) :

يوم النوى ليس من عمرى بمحسوب ولا الفراق إلى عيشى بمحسوب
ما اخترت بعدك لكن الزمان أتى كرها بما ليس يا محبوب محبوبى
أرجو إياي إلىكم ظافرا عاجلا فقد ظفرت بنجم الدين أيوب
موثق الرأى ماضى العزم مرتفع على الأعاجم مجدا والأعاريب
أحبك الله إذا لازمت نجدته على جبين بتاج الملك معسوب
أخوك وابنك صدقا منهما اعتصما بالله والنصر وعد غير مكذوب
هما همـان فى يومى وغى وقرى تعاودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان فى الكفار نار وغى بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا تحظى النفوس بتأنيس وتطيب
ويستقر بمصر يوسف وبه تقر بعد التناهى عين يعقوب
ويلتقى يوسف فيها — بإخوته والله يجمعهم من غير تريب

وأما القصيدة التي مدح بها صلاح الدين إذ ذاك فبدأت بقوله (١) :

كيف قلتم بمقلتيه فتور وأراها بلا فتور تجور
مستجير جوري وأنى مسنه بابن أيوب يوسف مستجير
فضله في يد الزمان سوار مثلها رأيته على الملك سور
كرم سابغ وجود عميم وندي سائغ وفضل غزير
أنت من لم يزل يحن إليه وهو في المهد سرجه والسرير
لاذ بالنيل (شاور) مثل فرعو ن فذل اللاجي وعز العبور
والذي يدعى الإمامة بالقفا هرة ارتاع ، إنه مقهور
وغدا الملك خائفا من سطاكم ذا ارتعاد كأنه مقرر
وبنوا (الهمفري) هانوا فقروا ومن الأسد كل كلب فرور
إنما كان للكلاب عواء حيثما كان للأسود زئير
ذا (فليب) عند الفرار سليب فهو بالرعب مطلق مأسور
لم يبقوا سوى الأصاغر للـبي فودوا لو أن الكبير صغير
قد حميت الإسكندرية منهم ورحى من بها عليهم تدور
حاصروها وما الذي بان من ذبك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب (طيبة) قدما ونبي الهدى بها منصور
فاشكر الله حيث أولاك نصرا فهو نعم المولى ونعم النصير

ومنها :

ورقبنا كالعبيد عودك فاليو م به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف وإلى يع قوب بالتهنئات جاء البشير
فلا أيوب من إياب صلاح الد ين يوم به توفي النذور

ومنها :

فاسـتردوا حق الإمامة بمن خان منها فإنه مستعير
وافترعها بكرا لها بمدى الدهر رواح في مدحك وبكور

أنا سيرت طالع العزم منى وإلى قصدك انتهى التسمير
وأرى خاطري لمحك إلفا إنما يالف الخطير الخطير!

وهذه القصائد كلها غنية عن التعليق بما عبرت فأحسن التعبير عن معان إسلامية مأخوذة من التاريخ الإسلامي على عهد النبي ، ومعان سنية يراد بها الكشف من الخلافة الفاطمية التي زالت على يد صلاح الدين .

ومنذ ذلك الوقت - أعني في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة - اشتدت الصلة بين نور الدين محمود وعماد الدين الأصفهاني الكاتب ، فولاه نور الدين ديوان الإنشاء بالشام ، بدلا من أبي بشر شاكر بن عبد الله ، الذي استعفى من الخدمة يومئذ ولازم منزله .

...

واشغل نور الدين يومئذ بفتح حصون كثيرة منها حصن (منبج) وقلعة (نجم) وقلعة (جعبر) وتولى العماد الأصفهاني تهنيئته بجميع هذه الفتوح واحدا بعد الآخر .

فقال في فتح منبج شعرا منه ^(١)

بشرى الممالك فتح قلعة منبج فليهن هذا النصر كل متوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به في الملك يفتح كل باب مرتج
أبشر (فيبيت القدس) يتلو (منبجا) ولمنبرج لسواه كالأنموذج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة مأثورة وسلكت أوضح منهج

وقال في فتح قلعة نجم شعرا منه : ^(٢)

أدركت من أمر الزمان المشتبهى وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
يا محي العدل الذى فى ظله من عدله رعت الأسود مع المها
مولى الورى مولى الندى معلى الهدى مردى العدا مسدى الجدا معطى اللها
يامن أطاع الله فى خلواته متأدبا من خوفه متأوها
ماصين عنك الصين لو حاولتها والمشرقان فكيف منبج والرها
فقت الملوك سماحة وحماسة حتى عدنا فيهم لك مشبا
وفى قلعة جعبر قال العماد :

(١) الروضتين ج ١ ص ٥٠ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٥١ .

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٥٣ ،

اسلم لبكر الفتوح مفترعا ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك غدا بمبء الخطوب مضطلعا
يا محي العدل بعد ميتته ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذى قمع الشـرك وعفى الضلال والبسعا
أنت سليمان فى العفاف وفى الـ ملك وتحكى بزهدك اليسعا
ويسير علينا أن نلاحظ منذ الآن تهالك العماد الأصفهاني على البديع بوجه عام ،
والجناس منه بوجه خاص ، فانظر إلى قوله هنا :

مولى الورى مولى الندى معلى الهدى مردى العدا مسدى الجدا معطى اللها
وإلى قوله : (ماصين عنك الصين) ، وقوله (فقت الملوك سماحة وحماة) ، ونحو
ذلك ، تعلم أن الرجل مفتون بهذا التجنيس ، الذى أصبح أول ما يمتاز به أسلوبه الأدبى
فى الشعر وفى النثر معا كما سنرى بعد .

ونعود إلى مصر وفيها أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وقد أخذوا
يفكران جديا فى قتل شاور ، للتخلص من مكايده ، وتمكننا من تنفيذ ذلك بأمر الخليفة
الفاطمى نفسه .

وفرح الناس فى موت (شاور) ، وعبر (عرقله) الشاعر عن ذلك بقوله ^(١) :
لقد فاز بالملك العقيم خليفة له شيركوه العـاضدى وزير
هو الأسد الضارى الذى جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى وطغى حتى لقد قال قائل على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قـبرة ولا زال فيها منكر ونكير !
ثم تقدم الخليفة الفاطمى بخلة الوزارة لشيركوه ، فقبلها منه شاكرًا وأصبح وزيرا
لخليفة فاطمى . وتابع فى نفس الوقت لنور الدين وهو ملك سنى ؛ ووصلت أنباء
الوزارة الإسلامية إلى دمشق ، فقام الناس فيها وقعدوا ، وأخذ الشعراء يرسلون
قصائدهم إلى شيركوه ، تهنئة له بالوزارة حينئذ ، وتحريضًا له على إعادة الخطبة لبني العباس
حينئذ آخر . وكان منهم عماد الدين الأصفهاني الذى بعث إلى شيركوه بقصيدة ، منها قوله : ^(٢)

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٥٩ .

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب
تخل من ملك مصر رتبة قصرت
فتحت مصرا وأرجو أن تصير بها
أنت الذي هو فرد من بسالته
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا
شكا إليك بنو الإسلام يتمهم
في كل دار من الإفرنج نادبة
من شر شاور أنقذت العباد فكم
هو الذي أطمع الإفرنج في بلد الإ
وإن ذلك عند الله محتسب
وما غضبت لدين الله منتقما
كم راحة جنيت من دوحة التعب
عنها الملوك فطالت سائر الرتب
ميسرا فتح بيت القدس عن كشب
والدين من عزمه في جمهل لجب
حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
في شكرنا ما به الإسلام منك حجب
فقمتم فيهم مقام الوالد الحذب
بما دهاهم فقد باتوا على ندب
وكم قضيت لحزب الله من أرب
سلام حتى سعوا للقصد والطلب
في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
إلا لنيل رضا الرحمن بالغضب

منذ ذلك التاريخ والعماد الأصفهاني يؤرخ لمصر سياسيا في شعره ونثره، ولا يدع
حادثة من حوادثها تمر دون أن يشير إليها بهذا الشعر أو النثر، ولا يترك فرصة تمر أيضا
إلا ويدعو صلاح الدين إلى المضي في جهاده ضد الصليبيين، حتى يمن الله على المسلمين
بطردهم من فلسطين.

وانظر إلى العماد الأصفهاني في نهاية هذه القصيدة البائية ألقى بأول قبلة دكت
عرش الخلافة الفاطمية وأودت بها، إذ يوعز العماد في هذه النهاية إلى شيركوه بقوله:
رد الخلافة عباسية ودع الدعي فيها يصادف شر منقلب!!
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب!
ثم قدم العماد حتى أتى مولاه نور الدين، فألقى بين يديه هذه القصيدة يهنئه فيها
بملك مصر ومنها قوله: (١)

بملك مصر أهني مالك الأمم فاسعد وأبشر بنصر الله عن أمم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئما وهل بعدلك شيء غير ملتئم

لله درك نور الدين من ملك
بما من العدل والإحسان تنشره
ومنها في وصف الجيوش النورية :

لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت
أعانها الله في إطفاء جمر أذى
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها
والسنة اتسقت والبدعة انمحقت
ملوكها لك صاروا أعبدا وغدا
لله درك نور الدين من ملك
كانت ولاية مصر قبل عزتها
فالنيل ملتطم جار على خجل
اغز الفرنج فهذا وقت غزوهم
وطهر القدس من رجس الصليب ووثب
فملك مصر وملك الشام قد نطما
محمود الملك الغازي يسوسهما
بالشكر كل لسان ناطق أبدا
فأشك (٢) مصر وأظهر عز سنتها
كم تعتقى وإلى كم تشتكى وكم

فقد هنا العماد مولا نور الدين أصدق تهنئة بهذا الفتح العظيم ، وهنأ جيشه بما أظهر
من شجاعة وكفاية غلبت شاور على أمره ، وأنقذت مصر من شره ، فأمنت بعد خوف ،
وعزت بعد ذل ، وانتظم بها وبالشام عقد من عقود العز والمتعة والفخار للإسلام ،
وهكذا سمع الملك العادل نور الدين لشكاية مصر من شاور اللعين ، فأزال شكيتها ،
وطيب خاطرها ، وأظهر سنتها ، وأزال تشيعها . ولم يبق على هذا العاهل الكبير
نور الدين إلا أن يلتقي جموع الصليبيين ، وأن يهزمهم ويظهر القدس منهم ومن نجسهم .

(١) س ١٧٥

(٢) أشك مصر أى أزل شكيتها وخذ لها من ظلمها ما يرضيها . وتعفى تطلب منك الفضل .

وقدم إلى نور الدين شاعر آخر هو (علم الدين الشاتاني) ، جاء يهنيء نور الدين بفتح مصر ويقول (١) :

مانال شأوك في المعالي سنجر كلا ولا كسرى ولا إسكندر
يا خير من ركب الجياد وخاض في لجج المنايا والأسنة تقطر
هل حاز غيرك ملك مصر وصار من أتباعه من جده المستنصر
والمستضى بالله معتد به وبجده وبجده مستظهر
أو سد بالشام الثغور محاميا للدين حتى عاد عنها قيصر
يبكى فيروى الأرض بحر دموعه والجو من أنفاسه يتسعر
أو ما أبوك بسيفه فتح (الرها) والأسد تقتنص السكاة وتزأر
هابت ملوك الأرض بأس كماتها فتقاعدوا عن قصدها وتأخروا
فلسكم على كل الملوك مزية لوقائع مشهورة لا تنسرك
وإذا عددنا للأنام مناقبا فعليك قبل الكل يثني الخنصر

وليس في هذه الآيات جديد من المعاني غير هذا المعنى الذي يقول فيه الشاعر لنور الدين أنه أصبح حائزاً لمصر ، وأصبح الخلفاء المصريون من أتباعه ، وأصبح الخلفاء العباسيون من المعتدين به والمفاخرين بأعماله ، وأنه ورث المجد عن أبيه العظيم (فاتح الرها) .

منذ ذلك الحين ، أعنى منذ ملك مصر نور الدين ، انتقل مركز الجاذبية الصليبية إلى الديار المصرية ، وتحولت أنظار الفرنج جميعاً إلى مصر ، دون أن يبذلوا فيها جهد المستميت ، فعساهم يظفرون بهذه الديار ، أو عسى أن تأتيهم النجدة من وراء البحار ، فيطردون منها هؤلاء الأتراك الذين استقروا بها ، وبالفعل راسل فرنج الساحل إخوانهم فيما وراء البحار ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، ونزل الفرنج يومئذ دمياط ، وحاصروا أهلها . فأسرع صلاح الدين إليها ورفع الحصار عنها ، وأرسل إليه نور الدين في نفس الوقت إمدادات كثيرة ، ولم يكتف

بذلك حتى شغل الفرنج في حصونهم التي أدخلوها ، وذهبوا إلى دمياط ، فلم يجد الفرنج بدا من العودة إلى بلادهم وترك دمياط .

وأخذ صلاح الدين بعدها يفكر جدياً في الطريقة التي يسقط بها الخلافة المصرية ، وتدبر الأمر مع صديقه القاضي الفاضل وأبيه نجم الدين أيوب وفقه كبير من فقهاء السنة اسمه الخبوشاني . وأحكم الأربعة خططهم ، ونزلوا الجامع في يوم الجمعة ، وقطعوا خطبة العاضد الفاطمي ، وكان على فراش الموت ، وخطبوا للخليفة المستضيء العباسي ، وكتبت البشائر بذلك إلى نور الدين بدمشق . وهناك أمر نور الدين كاتبه العماد الأصفهاني بكتابة البشائر إلى ديوان الخلافة العباسية ببغداد ، وفرح الناس فرحاً عظيماً بالشام والعراق ، وكان لهذا الحادث العظيم صدى كبير ، وانبرى الشعراء في مصر والشام ينظمون الشعر في التهنية

فأما في (دمشق) فقد طرب الناس طرباً كبيراً لهذه الأنباء ، وهذا هو العماد يرفع عقيرته بقوله : (١) .

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وأشعنا بها شعار بني العباس فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعي يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمي في أرض مصر
فاغتنى الدين ثابت الركن في مصر محوط الحمى مصون الشجر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
هو فتح بكر ودون البرايا خصنا الله بافتراع البكر
ونشرنا أعلامنا السود قهرا للعدا الزرق بالمنايا الحمر
والذي يدعي الإمامة بالقاهرة انحط في حضيض القهر
خانته الدهر في مناه ولايط مع ذو اللب في وفاء الدهر
مايقام الإمام إلا بحق ماتحاز الحسنة إلا بمهر

خلفاء الهدى سراة بنى العباس والطيبون أهمل الظهر
 بهم الدين ظافر مستقيم ظاهر قوة قوى الظهر
 قد بلغنا بالصبر كل مراد وبلوغ المراد عقي الصبر
 دام نصر الهدى بملك بنى العباس حتى يقوم يوم الحشر
 ذلك هو نشيد الفرح والسرور الذى نظمه العباد الأصفياني ، مسجلا به تلك الحادثة
 العظمى ، وهى حادثة زوال الخلافة الفاطمية ، وعودة مصر مرة أخرى إلى حوزة الخلافة
 العباسية . وذلك كله تمهيد لطرد الفرنج من القدس ، وإعادتها إسلامية عباسية ، يتألف
 منها ومن غيرها من البلاد الإسلامية كلها ذلك الملك العباسى الذى يتمنى الشاعر على
 الدهر أن يقوم إلى يوم الحشر . ولقد وفق العباد فى هذه القصيدة أيضا إلى الوزن
 الشعرى الذى يتفق وهذا المعنى .

وأما فى (مصر) فقد وفد (العرقلة) الشاعر إلى صلاح الدين ، وأنشده قصيدة
 منها قوله . (١) ص ٢٠٠

أصبح الملك بعد آل على مشرقا بالملوك من آل شاذى (٢)
 وغدا الشرق يحسد الغرب للقموم ومصر تزهو على بغداد
 ماحووها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ فى الفولاذ
 لا كفرعون والعزير ومن كان بها كالخصيب والأستاذ (٣)

(١) وفى هذه السنة وهى سنة ٥٦٧ توفى عرقلة صاحب هذه القصيدة ، وهو حسان بن نمير الكلبي
 أبو الندى الشاعر المشهور بعرقلة الدمشقي . كان شيخا أعور خليعا مطبوعا لطيفا ظريفا ، اختص بالسلطان
 صلاح الدين ، وله فيه مدائح ، وله شعر رائع كثير ، منه قوله :

كتم الهوى فوشت عليه دموعه من حر نار تحتويه ضلوعه
 صب تشاعل بالربيع وزهره زما وفى وجه الحبيب ربيع
 يالأنمى فيمن تمنع وصله عن صبه أحلى الهوى ممنوعه
 كيف التخلص إن تجنى أو جنا والحسن شيء ما يراد شفيعه
 قال العواذل ما الذى استحسنته منه وما يسببك قلت : جميعه

[النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤ — ٦٥ طبعة دار الكتب المصرية] .

(٢) يقصد بآل شاذى بنى أيوب ، وبآل على : الفاطميين .

(٣) يعنى بالأستاذ : كافورا الإخشيدى .

وفي هذه الآيات القليلة تعريض بالدول الزائلة جميعها ، وترحيب بالدولة التي حلت مكانها . وانظر هنا بوجه خاص قوله :

ماحووها إلا بحزم وعزم وصليل الفولاذ في الفولاذ
فإنه يشعرك بهول الحرب التي انتهت بسقوط الفاطميين، وانهم لمهم لجند نور الدين .
وأما في (بغداد) فقد كان لهذه الحادثة السياسية الكبرى صدى كبير ، وذلك
منذ بعث نور الدين يبشر بها الخليفة العباسي على يد شهاب الدين بن أبي عصرون . فلما
وصل هذا إلى الديون العزيز ، استقبله الشعراء يحتفلون بتهنئة الخلافة ، وفيهم شاعر يقال
له (ابن الحرستاني) هنا الخليفة العباسي بقصيدة مطلعها : (١)

جاء البشير فسر الناس وابتهجوا فما على ذي سرور بعدها حرج
وكان في بغداد شاعر فحل اسمه (ابن التعاوين) أنفذ إلى صلاح الدين قصيدتين
في مدحه ومدح المستضيء ، ومطلع الأولى منهما قوله :

قل للسحاب إذا مرَّ تـه يد الجنائب فارحين

ومطلع الثانية قوله :

حتام أرضي في هواك وتغضب وإلى متى تجنى على وتعتب (٢)
ما كان لي لولا ملاك زلة لما ملكت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإن لي قلبا على العلات لا يتقلب
وهما قصيدتان رائعتان من قصائد هذا الشاعر ، تستحقان دراسة خاصة لولا أنهما
لا تعتبران هنا من الأدب الصليبي الخالص ، لاقتصارهما على مدح صلاح الدين دون ذكر
وقائعه ، على عادة الشعراء الذين مروا بنا .

وهكذا ثم لصلاح الدين إزالة الدولة الفاطمية ، فرثاها من رثاها من شعرائها المخلصين
لها . وكان من أخلص هؤلاء جميعا شاعر يقال له (عمارة النيني) أكثر من بكائه على
هذه الدولة في عدة قصائد ، منها القصيدة المشهورة التي أولها (٣) :

رमित يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حللى الحسن بالعطل

(١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٦٤ . طبعة دار الكتب المصرية .

(٢) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٣) ص ٢٢٣ .

جدعت مارنه الآقنى فأنفك لا ينفك ما بين نقص الشين والخجل
لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتنا فى أكرم الدول
وليس هنا كذلك موضع الحديث عن هذه القصيدة العظيمة التى لآمت بصلة
متينة لموضوع الآداب الصليبية .

وفرغ هؤلاء من البكاء وهؤلاء من الغناء ، ورجع نور الدين يطلب إلى تابعه
صلاح الدين أن يبعث إليه بالعساكر المصرية لمحاربة الفرنج الذين استوطنوا المنطقة
التى تفصل بينهما ، وهى منطقة (السكر) ، وكان عليها أمير من أقسى أمراء الفرنج وهو
أرناط Renauld غير أن صلاح الدين - وكان يفكر حينئذ فى أن يستقل بملك مصر
عن سيده نور الدين - قدر أنه إذا أعانه على طرد الفرنج من هذه المنطقة الفاصلة
بينهما ، فقد أخلى الطريق بينه وبين نور الدين ، يأتى إليه بنفسه متى شاء ليسترد ملكه
منه . من أجل ذلك اعتذر صلاح الدين لمولاه عن عجزه عن إرسال العساكر
المصرية ، وذلك بسبب سوء الأحوال الداخلية فى مصر . ومن هنا بدأت الوحشة
بين الرجلين .

ومع ذلك فقد كان على صلاح الدين أن يلتقى الرعب فى قلب أرناط ، حتى لا يعترض
قوافل التجار والحجاج من المسلمين ، الذين يريدون الوصول إلى مصر ، فكانت أولى
غزواته ضد الفرنج غزوة له أثار فيها على حصون (السكر) التى مر ذكرها .
وكان من عادة نور الدين أنه فى الوقت الذى يغير فيه صلاح الدين على حصون
الصليبيين ، يأخذ هو من جانبه فى إزعاجهم ، لعله يظفر ببعض قلاعهم ، أو يطيح ببعض
رءوسهم ، أو بشىء من أموالهم وسلاحهم . ومن أجل هذا أثار نور الدين فى ذلك الحين
على حصن (مرعش) فأخذه ، ثم على مدينة (عشتر) فانتزعها من صاحبها : وكان
العماد الأصفهاني فى ركابه . فأنشد قائلا (١) :

عُقدت بنصرك راية الإيمان وبدت لعصرك آية الإحسان
يا سالب التيجان من أربابها حزت الفخار على ذوى التيجان

يا واحدا في الفضل غير مشارك أقسمت مالك في البسيطة ثان
أحلى أمانيك الجهاد وإنه لك مؤذن أبدأ بكل أمان
كم وقعة لك بالفرج حديثها قد سار في الأذان والبلدان
قمصت قومصهم رداء من ردى وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتمهم بالذل في الأقياد والأشجان
وجعلت في أعناقهم أغلالهم وسحبتم هونا على الأذقان
أو ما كفاهم ذاك حتى عاودوا طرق الضلال ومركب الطغيان
يا خيمة الإفرنج حين تجمعوا في حيرة وأتوا إلى حوران
فهمزتهم بالرأى قبل لقائهم والرأى قبل شجاعة الشجعان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة لكن وثقت بنصرة الرحمن
دانت لك الدنيا فقاصيها إذا حققته لنفاذ أمرك دان
فمن العراق إلى الشام إلى ذرا مصر إلى قوص إلى أسوان

قال أبو شامة : وهي قصيدة طويلة وصف فيها أمراء نور الدين الذين حضروا
معه الجهاد ومدحهم ، وفي نهايتها يقول العماد :

أنت الذى دون الملوك وجدته ملآن من عرف ومن عرفان
فى بأس عمرو فى بسالة حيدر فى نطق قس فى تقى سلمان
سير لو ان الوحى ينزل أنزلت فى شأنها سور من القرآن
وهذه القصيدة من قصائد العماد فى شبابه تدل على أنه كان شديد المكلف بأبى تمام ،
يجب أن يحاكيه فى أشعاره محاكاة لا تصرف فيها أحيانا ، كما فى قوله :

فى بأس عمرو فى بسالة حيدر فى نطق قس فى تقى سلمان
فهو تقليد دقيق لبیت مشهور من أبيات أبى تمام فيه قوله :
« فى حلم أحنف فى ذكا . إياس »

رأى صلاح الدين بعد ذلك أن يحصن مملكة ضد الفاطميين ، بل ضد نور الدين ،
فعهد إلى إخوته فى فتح بلاد النوبة واليمن والمغرب . أما النوبة فعلى يد أخيه شمس الدولة ،
وأما اليمن فعلى يد أخيه تورانشاه . وأما المغرب فعلى يد خادمه بهاء الدين قراقوش .

وبينما كان صلاح الدين يفكر في هذه الفتوح ر الدين يكرر عليه الطلب في ضرورة إنفاذ العساكر المصرية ، فيكرر عليه صلاح الدين الاعتذار عن ذلك لفساد الأمور الداخلية ، وما زال الرجلان على هذه الحال حتى ضاق نور الدين ذرعا بصلاح الدين ، وفكر جديا في غزو مصر من أجله .
وإنه لعل هذا القصد ، وإذا بالمنية تقطع عليه هذا العزم . فمات هذا الرجل العظيم ، ورحل عن هذه الدنيا كما قال العماد الأصفهاني :

يا مملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فآخرة (١)
ملكك دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة !

* * *

وهكذا انتهت تلك الفترة الثانية من فترات الحروب الصليبية ، وهي فترة اقترنت — كما رأينا — بنهضة عظيمة في الشعر ، وتنافس كبير بين شعراء الأقاليم الإسلامية التي كان يعنينا هذا الأمر . فلبعت في سماء الأدب الصليبي أسماء عدد ضخم من شعراء مصر والشام والعراق . وكان لمصر نصيب لا بأس به من البلاء الحسن في ميدان الحرب ، ونصيب لا ننكر أن له من البلاء الحسن في ميدان الشعر . وحسبنا في ختام هذا الفصل أن نشيد بهمة الملك الصالح طلائع بن رزيك ، وهو ذلك الوزير المصري الشهيم ، الذي لو طال به العمر ، وواتته الظروف السياسية في مصر ، لأظهر من الهمة في محاربة الصليبيين ما كان خليقا أن يسطر له في كتاب الحروب الصليبية أروع الصفحات . ومن يدري لو أن الأمور استقامت لطلائع بن رزيك في مصر ، لنهض وحده بالعبء ، واستقل يومئذ بطرد الصليبيين من القدس ، ولما احتاج الأمر يومئذ إلى نور الدين وأسد الدين وصلاح الدين ، ولسيطرت الخلافة الفاطمية على الشرق الإسلامي كله ، وغيرت بذلك وجه التاريخ السياسي والأدبي والاجتماعي والديني في هذا الشرق .

(١) - الروضتين ج ١ ص ٢٨٢ .

الفصل الخامس

المرحلة الثالثة

من قصة الحروب الصليبية

والقدس هي مركز الجاذبية الصليبية في هذا الشوط . ذلك أن طرد الفرنج من هذا الجزء من فلسطين كان الهدف الأول لصلاح الدين . لأنه متى طردهم من البلاد التي أتوا من وراء البحار لامتلأها ، فقد هانت عليهم بقية الإمارات اللاتينية التي حصلوا عليها .

أجل ، أخذ صلاح الدين يفكر في هذا الوضع الجديد ، فقد وجد أنه أصبح أكبر أمراء الإسلام سناً ، وأنه لا ينبغي له بحكم سنه من جهة ، وبحكم علاقته بنور الدين ، وهي علاقة التلميذ بأستاذه — من جهة ثانية ، وبحكم تقديره للهدف الأسمى من أهداف الجهاد ضد الصليبيين — وهو طردهم من الشرق كله من جهة ثالثة — نقول أن صلاح الدين وجد أنه لا يصح له بحكم هذه الأمور كلها أن يترك الشام في يد غلام صغير ، وهو ابن الملك الصالح نور الدين يلتف حوله أمراء أبيه ، ويعمل كل منهم لمصلحته لا لمصلحة الغلام ، ولا لمصلحة الشام ، ولا لمصلحة الهدف الأسمى للمسلمين ، وهو طرد الفرنج . من أجل ذلك صرح عزم صلاح الدين على أخذ دمشق ، يخاف الغلام والأمراء هناك خوفاً عظيماً لهذا العزم ، وتأهبوا له . وإنهم لفي هذا الخوف ، وإذا بالفرنج يغيرون على مدينة (بانياس) ، وإذا بالأمراء يتفقون معهم على جزية سنوية يحملونها إليهم . فذلك في رأيهم أسلم عاقبة لهم من الاستغاثة بصلاح الدين !

إذ ذاك استشاط السلطان صلاح الدين غضباً من هذه الإهانة التي لحقت الشرف الإسلامي ، واتخذ منها ذريعة إلى سرعة الإغارة على دمشق ، وفتح حصون بزاعة ومنبج وعزاز في طريقه إليها . ولما علم الأمراء في دمشق بمسير السلطان إليهم هربوا بالغلام إلى حلب ، وهناك فكروا جميعاً في أن يستعينوا على السلطان بجميع أعدائه

بالشام ؛ وهم الإسماعيلية في الجبل ، والمواصلة الذين خافوا على أنفسهم كما خاف من قبل أهل حلب . ومع هذا وذاك لم يقدر واحد من هؤلاء الأعداء أن يصيب منه مغنما برغم أنهم استعدوا عليه كذلك الفرنج .

وأخيرا استقر رأيهم على ملاينة السلطان ، والحصول منه من طريق هذه الملاينة على أضعاف ما يحصلون عليه من طريق الأخذ والرد والمخاشنة ، فتضرعوا إليه أن يترك لهم حلب ، ثم سألوه في ضراعة كذلك أن يترك لهم عزاز ، فأجابهم إلى طلبهم ورجع عن بلادهم قاصدا مصر .

ولما علم الفرنج بمغيب السلطان عن الشام — وكانت بينه وبينهم هدنة — غدر به من أمرائهم أرناط ، وهجم على بعض المدن التي للإسلام ، فاضطر صلاح الدين إلى محاربته في جهة يقال لها (الرملة) ، انتصر فيها أرناط على السلطان ، وعاد السلطان بعدها إلى مصر ، كي يستعد فيها للحرب من جديد . وما هو إلا أن يلتقى السلطان بالفرنج في موقعة (مرج عيون) حتى يمن الله بنصره على المسلمين ، ويأسر السلطان في هذه الموقعة رموس الصليبيين ، وفيهم ريموند صاحب طرابلس .

ثم يترك السلطان مرج عيون ويتجه بجنده إلى حصن من أمنع حصون الصليبيين ، كانت تقيم به فرقة من أشد الفرق الصليبية إلقاء للرعب في قلوب المسلمين ، وكان يطلق على هذا الحصن اسم (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) أو (حصن المخاض) .

وإذ ذاك لا يرى الفرنج بدا من طلب الهدنة ، فيجيبهم السلطان إليها ، ويعقد معهم الصلح الذي كان في ذلك الوقت صلحا عاما دخل فيه الفرنج والمشاركة والروم وأهل حلب والموصل وديار بكر . كل ذلك والشعراء من وراء السلطان يسجلون انتصارانه ، ويشيدون بذكروائعه ومعاهداته كما سنرى بعد .

ثم حدث في السياسة الشامية حادث هام ، هو موت الغلام ، وهو هنا الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ، وتنازع الأمراء النورية على ملكه ، ففكر السلطان صلاح الدين في قصد دمشق ، وخرج في موكبه من مصر إلى الشام حيث قضى المدة الباقية من حياته في

جهاد مرير ضد المسلمين والصليبيين ، إذ وضع لنفسه من ذلك الحين سياسة تقوم على أمرين :
أولهما — توحيد كلمة الإسلام . وثانيهما — محاربة الفرنج .

فأما الأمر الأول ، فقد صبر صلاح الدين حتى انقضت الهدنة التي بينه وبين
الفرنج وأهل حلب ، ثم بدأ بالإغارة على حلب فأخذها ، وكان سروره عظيما بها ، إذ علا
يومئذ قلعة من قلاعها ، وسمعه الناس يقول : « والله ما سرني فتح مدينة كما سرني فتح
هذه المدينة . الآن تبينت أني ملك البلاد وأتغلب بإذن الله على الفرنج . »

وكما سقطت حلب في يد السلطان ، فسقطت (الموصل) في يده ، فاطمان
بذلك على الجزء الشمالي من الممالك الإسلامية .

ثم حدث أيضا أن مات في ذلك الحين صاحب إرمينية ، ولم يترك وارثا للملكة ،
فأرسل أهل هذه المملكة إلى السلطان في أن يكون مالكا لها ، فقبل ذلك . ثم أغار
السلطان بعدئذ على (السكرك) ، وأخذها من يد صاحبها أرناط ، وفرح المسلمون فرحا عظيما
بهذا الفتح الجليل ، وبه كذلك اطمأن صلاح الدين على الجزء الجنوبي من الممالك الإسلامية .
وهكذا أصبح ملك صلاح الدين عظيما ، يحد بركة وما حولها غربا ، واليمن وبلاد
النوبة جنوبا ، وديار بكر والجزيرة وأرمينية شرقا وشمالا .

فلم يبق له من ذيومئذ إلا أن يتفرغ للأمر الثاني ، وهو محاربة الفرنج . وحين اتصلت
كل هذه الأنبياء بمسامع الفرنج ملك الغيظ عليهم نفوسهم ، وحصرت صدورهم ،
وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وعقدوا فيما بينهم اجتماعا صليبيا كبيرا برياسة ملك
القدس ، وكان من أعضاء الاجتماع ذلك الأمير الصليبي المحدث (أرناط) الذي كان
أنقل أمراء الصليب وطأة على المسلمين ، والذي كان قد هزم صلاح الدين . ثم عاد
السلطان فهزمه وحرمه ولايته .

استعرض أمير البيت المقدس مع إخوانه هذا الموقف ، وكان من رأيه ألا يحاربوا
السلطان إلا بعد انقضاء الهدنة ، وكان من رأى أرناط ومعه أكثر الأمراء أنهم
لا بد لهم من فسخ الهدنة ، ثم ارفضوا اجتماعهم هذا دون أن يستقروا على رأى .

وحدث بعد ذلك أن مرت فافلة من قوافل الحجاج المسلمين بالسكرك في طريقها
إلى مصر ، فتصدى لها أرناط ، وأغار على رجالها وأموالها ، وأثار سخطها وسخط العالم
الإسلامي ، وسب محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعلى أهله !

وبلغ ذلك السلطان ، فثارت حميته لغدر أرناط ، وبلغ الغيظ في صدره مبلغه ،
لهذه الإهانة التي وجهها الأمير السفيفه إلى نبي المسلمين ، ونذر أنه متى أظفره الله به
ليقتلنه بيده .

ثم انتهى أجل الهدنة ، فنادى السلطان بالنفير العام ، والتقى بالفرنج في حطين ، وكان
ذلك عام ٥٨٣ وقد رفعوا بينهم (صليب الصليبوت) وهو خشبة صلب المسيح عليها
بزعمهم ، فهجم عليهم السلطان بعسكره ، ووصل إلى خيمة ملكهم ، وأسرهم ، وأسقط
الصليب من يده ، وكان أخذ هذا الصليب أشق على نفوس الفرنج من أسر الملك نفسه !
وحكى بعض من شهدوا الموقعة أن الرجل من المسلمين كان يستطيع بحبل خيمة
أن يجر وراءه من أسرى الصليبيين نيفا وثلاثين . وانتهت الموقعة وإذا في أيدي
المسلمين من أسرى الفرنج رئيس الداوية ، ورئيس الاسبتارية ، وصاحب الرملة ،
وصاحب حصن جبيل ، وابن صاحب طبرية ، وملك بيت المقدس ، وأخوه أرناط
Renauld . وبر السلطان بقسمه ، ووفى بذاره ، فقتل أرناط بيده ، انتقاما منه للإهانات
التي ألحقها بالمسلمين ، والكلمات التي نال بها محمدا صلى الله عليه وسلم .

ثم بدا لصلاح الدين بعد ذلك أن يجهز على بقية القلاع والحصون ، فسقط منها
في يده حصن (برزيه) ف حصن (عكا) . كل ذلك وفرنج الساحل ينتظرون المدد الذي يأتيهم
من أوروبا ، فقد بعثوا يستصرخون بإخوانهم هناك ، ويستحلفونهم أن يأتوا إليهم
بإمدادهم ورجالهم ، فجمع الأوربيون جموعهم ، وتجهزوا للحملة الصليبية الثالثة ، التي أتت
إلى الشرق وعلى رأسها فردريك بارباروسا إمبراطور ألمانيا ، وفليب الثاني ملك فرنسا ،
وريشارد الأول (قلب الأسد) .

وسارت هذه الحملة من أوروبا ، ولكن حدث أن غرق جيش الإمبراطور في
الطريق ، ووصل الباقون مع إخوانهم إلى عكا ، وهناك اصطف الجميع قلبا وميمنة
وميسرة ، ووقف في القلب ريشارد وبين يديه الإنجيل محمولا ومكسوا بثوب من
الاطلس ، يمسكه من أطرافه أربعة نفر ، ثم هجموا هجمة رجل واحد على جيش
السلطان ، فهزموه عند أرسوف ، ودخلوا عكا ، وقتلوا منها ثلاثة آلاف من المسلمين .
وتحمل المسلمون في عكا يومئذ من آلام الصبر على الحصار ما أحبوا معه الموت

الذى ينقذهم من هذا الضيق . ومما زاد الطين بلة على المسلمين أن الوباء تفشى فيهم وهم محاصرون ، وأن الجوع أهلكهم ، والصليبيون يمنعون وصول الأقوات إليهم .
هكذا هزم الصليبيون مجتمعين صلاح الدين ، ولكنهم عرفوا قوته من هذه السكرة ، ولذلك قلنا إن هذه الحملة الثالثة من حملات الصليب عجزت عن أن تغير شيئاً مما وصل إليه صلاح الدين ، كما عجزت عن أن تعيد إلى الفرنج ما فقدوه من تلك الإمارات التي سقطت في يد البطل الإسلامى العظيم .

* * *

ولا تسلم بعد عن مقدار الحزن الذى شعر به صلاح الدين لهذه الهزيمة ، وكان حزنه أشد لما قاساه المسلمون المحصورون فى عكا . واستسلم السلطان للحزن ، وكاد الحزن يتلفه ، لولا مواساة صديقه القاضى الفاضل له فى هذه المحنة . وسنأتى عند الكلام على الرسائل الديوانية بطائفة من الكتب التى بعث بها القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين يواسيه فيها أجمل مواساة ، ويقويه فيها على المضى فى الجهاد .

* * *

نعم انكسر السلطان أمام ملوك الصليب ، ولكن هؤلاء الملوك عرفوا يومئذ صلابة عوده وقوة إيمانه ، فلم يخدعهم النصر الذى أحرزوه بجمعهم عليه مفردا ، وأرادوا أن يكسبوا منه بطريق السياسة ولين الكلام ما لم يكسبوه بطريق الحرب والطعان . ومن أجل هذا كان من خطة الإنكشار — كما كان العرب يسمون بهذا الاسم (الملك رتشارد) منذ وطئت أقدامه المشرق — أن ينشئ صداقة بينه وبين السلطان ، فتقرب أولا من أخيه الملك العادل . وسعى هذا زمانا بين أخيه وبين الإنكشار وطالت المفاوضات بينهما على شروط الصلح التى تروق السلطان ، فعاد الإنكشار إليه بالهدايا يستلين بها قلبه ، ويتخذها وسيلة للتقريب بين وجهتى النظر الإسلامية والصليبية ، ثم بعث الإنكشار إلى السلطان بهذه الرسالة ^(١) .

« أيها السلطان العظيم ، تعلم أن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد . وقد أخذ الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس ، والصليب ، والبلاد .

(١) كتاب صلاح الدين للمؤلف : (ص ١٠٢) .

والقدس متعبدا ما نزل عنه ولو لم يبق منا إلا رجل واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع (الأردن) . وأما الصليب فهو خشية عندكم لا مقدار لها ، وهو عندنا عظيم . فيمن به السلطان علينا ونصطلح ، ونستريح من هذا التعب .

فلما قرأ السلطان الكتاب ، أمر بأن يكتب له الجواب وفيه قوله :
« أما القدس فهو لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فإنه مسرى نبينا ، ومجتمع الملائكة ، فلا تتصوروا أننا ننزل عنه . وأما البلاد فهي لنا في الأصل ، واستيلاؤكم عليها كان طارئا لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت . وأما الصليب فهلاكه عندنا قرينة عظيمة ، لا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام ، هي أوفى منها . »

وأخيرا استقر الرأي على صلح الرملة المشهور وهو بمثابة هدنة أمدها ثلاث سنين بشروط أهمها :

أولا - أن يكون بيت المقدس تحت حكم المسلمين على أن يسمح للمسيحيين بالزيارة والحج .

ثانياً - أن يحمي الصليبيون ساحل الشام من صور إلى يافا .

ثالثاً - أن يرد المسلمون المخلقات الدينية إلى المسيحيين .

وعلى إثر هذا الصلح عاد رتشارد إلى بلاده ، فاصطدمت سفينته في بحر الإدرياتيك ووقع أسيرا في يد دوق النمسا ، فسلمه هذا إلى الإمبراطور هنري السادس ، وكان معاديا لإنجلترا - فسجنه ولم يطلقه إلا بعد أن دفع له مبلغا كبيرا .

أما صلاح الدين فقد رجع بعد ذلك من القدس إلى دمشق . وفيها مات في السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة .

الفصل السادس

الشعر في خدمة صلاح الدين

استقرت أمور السلطان بمصر ، ومنذ فكر في أخذ دمشق كانت تأتية كتب الشعراء تحرضه على سرعة البت في هذا الأمر ، ومن ذلك ما كتب به أسامة بن منقذ حيث قال : (١)

تمنّ يا أطول الملوك يدا	في بسط عدل وسطوة وندي
لا تستقلّ الذي صنعت فقد	قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجست أرض العدو أفنيت من	أبطالهم ما يجاوز العددا
فسر إلى الشام فالملائكة الـ	أبرار تلقاك ملتقى حمدا
فهو فقير إليك يأمل أن	تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر	كما في كتابه وعدا
فما حباك الوري وألهمك العد	ل وأعطاك ما ملكت سدى

ولما تم للسلطان أخذ دمشق ، قدم إليه شاعر يقال له (وحيش الأسدي) مهنئا إياه بقوله (١) :

قد جاءك النصر والتوفيق فاصطحبا	فكن لأضعاف هذا النصر مرتقبا
لله أنت صلاح الدين من أسد	أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلتق (٢) ثغرا لا نظير له	فجتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل لما قل ناصرها	وأزمع الخفاق من أوطانها هربا
هذا الذي نصرا لإسلام فاتضحت	سبيله وأهان الكفر والصلبا
يستكثر المدح يتلى في مكارمه	زهذا ويستصغر الدنيا إذا وهبا

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) دمشق .

وفتح السلطان بعد ذلك مدينة (حمص) فأقبل المذهب بن أسعد الموصلى يهنته
بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى إلا ليطرقه الخيال إذا سرى
كلف بقر بكم فلما عاقه بُعد المدى سلك الطريق الأخصرا

وكان القاضي الفاضل جالسا مع السلطان في ذلك الوقت فقال لصلاح الدين :
هذا الذى يقول فى مدح الصالح بن رزىك :

من أرتجى يا كريم الدهر تنعشنى جدواه إن خاب سعي فى رجائى كما
أمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا^(١)

فعجل جائزته لتكذيب قوله . فجمع له السلطان بين الخلعة والضيعة .

وأقى العباد فنظم قصيدة فى مدح السلطان ، بدأها بغزل طويل جميل .

وهناك فيها بهذا الفتح العظيم وبما سبقه من الفتوح ، ومن ذلك قوله^(٢) :

ملكك فأسجح فما للبلا دسواك مجير ومولى نصير
وفى معصم الملك للعز منك سوار ومنك على الدين سور
أما المفسدون بمصر عصو ك وهذى ديارهم اليوم قور
ويوم الفرج إذا ما لقوك عبوس برغمهم ققطير
نهوضاً إلى القدس يشقى العليل بفتح الفتوح - وماذا عسير
سل الله تسهيل صعب الخطو ب فهو على كل شيء قدير
إليك هجرت ملوك الزما ن فمالك - والله - فيهم نظير
وفجرك فيه القرى والقرا ن جميعا وفجر الجميع الفجور
وأنت تريق دماء الفرز ج وعندهم لا تسراق الخور

وهى قصيدة طويلة ذكر أبو شامة منها نحو من ستين بيتا . بدأها العباد بذكر مدن
الشام واحدة بعد أخرى ، يتشوق إليها ، ويذكر أمانها ، ويتغنى بأنهارها ومروجها
ومفاتها ، وذلك فى نحو أربعين بيتا من أبيات هذه القصيدة التى بدأها بقوله :

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٠ . وقد سبقت الإشارة إلى هذه الأبيات

(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٤٦ .

أجيران (جيرون) مالى مجير^١ سوى عطفكم فاعدلوا أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
ثم فتح السلطان مدينة (بعلبك) فقال العماد مهنثا^(١) :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام وبنور نصرك تشرق الأيام
وبفتح قلعة (بعلبك) تهذب وبكى الحسود دما وثغر الثغر من
فتح تسنى في الصيام كأننا شكر الما منح الإله صيام
من ذارأى في الصوم عيد سعادة حلت لنا والفطر فيه حرام
فتمل فتحك واقصد الفتح الذى بحصوله لفتوحك الإتمام
دم للعلا حتى يدوم نظامها واسلم يعز بنصرك الإسلام

هكذا وجدنا العماد ، وسنجد دائما أحرص الناس على تسجيل الوقائع الصلاحية
في شعره ، كما كان أحرص الناس على تسجيلها في نثره ، وهو من هذه الناحية أشبه
ما يكون في زماننا هذا (بالمراسل الحربى) يغذى صحف العالم كله ووكالات الأنباء
كلها بهذه الأخبار الحربية ، التى ينتظرها الناس فى كل مكان بلهفة شديدة .

وبات العماد ليلة فى مخيم السلطان ، فوجده يقرأ فى ديوان الأمير أسامة بن منقذ ،
ويجد لذة فى هذه القراءة ، ثم أعرب السلطان عن إعجابه بقصيدة طائيه فى ديوان أسامة ،
فنظم العماد قصيدة على رويها فى مدح السلطان منها قوله^(٢) :

عفا الله عنكم ما لكم أيها الرهط قسطنتم ومن قلب المحب لكم قسط
شرطتم لنا حفظ الوداد وخنتمو خيانتكم ما هكذا الود والشرط
ملكتم فأنكم كرتم قديم مودتى كأن لم يكن فى البين معرفة قط
وما كنت أدري قبل سطوة طرفه بأن ضعيفا فاترا مثله يسطو
يلازم قلبى فى الهوى القبض مثلها يلزم كف الناصر الملك البسط
ملك حوى الملك العقيم بضبطه كريم وما للمال فى يده ضبط

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢) الروضتين : ج ١ ص ٢٤٧ .

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٤٧ .

عَنَّا لَمَكَ طَوْعًا نِيلَ مِصْرَ وَدَجَلَةَ الْعِرَاقِ وَدَانَ الْعُرْبِ وَالْعُجَمَ وَالْقَبْطَ
عَدُوَّكَ مِثْلَ الشَّمْعِ فِي نَارِ حَقْدِهِ لَهُ عُنُقٌ ، إِصْلَاحُ فَاسِدِهِ الْقَطْ
وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَثَمَانُونَ يَتَمَّا اخْتَارَ مِنْهَا أَبُو شَامَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ .

وَانْتَصَرَ السُّلْطَانُ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ (حَلَب) فَقَالَ الْعِمَادُ أَيْضًا يَهْنُئُهُ (١) :
يَا جَارَةَ لِلْقَلْبِ جَائِرَةٌ دَعَى ظَلْمِي وَإِلَّا قُلْتُ : جَارُ الْجَارِ
قَلْبِي كَطَرْفِي مَا يَفِيقُ إِفَاقَةَ سَكْرَانٍ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ عُقَارُ
وَمِنْهَا :

قَدْ حَازَ مَلِكُ الشَّامِ يُوسُفُ الَّذِي أَنْصَرَ الْهَدْيَ فَتَوَطَّدَ الْإِسْلَامُ فِي
لَمَّا لَقِيتَ جَمْعَهُمْ مَنْظُومَةً
فِي حَالَتِي جُودٍ وَبَأْسٍ لَمْ يَزَلْ
تَهَبُ الْأُلُوفَ وَلَا تَهَابُ أُلُوفَهُمْ
لَمَّا جَرَى (الْعَاصِي) (٢) هُنَالِكَ طَائِعًا
وَتَحَطَّمَتْ عِنْدَ (الْقُرُونِ) (٣) قُرُونُهُمْ
عَبَرُوا (الْمَعْرَةَ) مَا لِسُكَّانِ مَعْرَةَ
أَوْ مَا كَفَاهُمْ يَوْمَ (حِمَص) وَكَفَّسَهُمْ
فِي (بَعْلَبَك) بِمِثْلِهَا الْإِنْذَارُ

وَالْجُنَاسُ بِالِاشْتِقَاقِ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كَثِيرٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ (جَارُ الْجَارِ) ، (وَتَبَرُّ
وَتِيَارِ) ، (الْقُرُونُ وَقُرُونُهُمْ) ، (الْمَعْرَةُ وَمَعْرَةُ) الْخ . وَمِنْ الطَّبَاقِ قَوْلُهُ : (صِيرْتُ
ذَلِكَ النِّظْمَ وَهُوَ نَثَارٌ) وَقَوْلُهُ (لَمَّا جَرَى الْعَاصِي هُنَالِكَ طَائِعًا) الْخ . وَمَعَ ذَلِكَ فَأَنْتَ
تَحْسُ دَائِمًا أَنَّ التَّجْنِيسَ فِي شِعْرِ الْعِمَادِ أَدْنَى إِلَى النَّفْسِ ، وَأَخْفَى عَلَى الْقَلْبِ ، مِنَ التَّجْنِيسِ
فِي نَثَرِهِ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ ذَلِكَ بَعْدَ .

ثُمَّ انْتَصَرَ السُّلْطَانُ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ أَهْلِ الْمَوْصِلِ ، فَهَنَأَهُ الْعِمَادُ كَذَلِكَ بِقَوْلِهِ (٤) :
عَادَ الْعَدُوُّ بِظُلْمَةٍ مِنْ ظُلْمِهِ فِي لَيْلٍ وَيُنَلِّقُ قَدْ خَبَا مَصْبَاحُهُ

(٢) اسم نهر معروف

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٨

(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٥٥

(٣) اسم بلدة معروفة

وجنى عليه جهله بوقوعه
حمل السلاح إلى القتال وما درى
في قبضة البازى فهبيض جناحه
أن الذى يحنى عليه سلاحه
ومنها :

وكأنتى بالساحل الأقصى وقد
ساحت بنحر دم الفرنجة ساحه
فأعبر إلى القوم الفرات ليشربوا الـ موت الأجاج فقد طأ طفاحه
نجوا البلاد من البلاء بعد لكم
فالظلم بادى في الجميع صراحه
وكان (لعز الدين فروخ شاه) من آل أيوب يد ييضاء في هذه الحروب ، فمدحه
العماد بقوله (١) :

نصر أنار للملككم برهانه
ما أسعد الإسلام وهو مظفر
وعلل لذلة شائكم شأنه
وأبو المظفر يوسف سلطاناه
والعدل موضوع بكم ميزانه
فلك على إثارككم دورانه
بذ الملك السابقين رهانه
فكأنما أشجانه أسجانه
فعلا زمانهم البهيج زمانه
صديقته فاروقته عثمانه
هو في العفاف وفي التقى سلماه
ببنيه بيتا عاليا بنيانه
يبنى على كيوانها (٢) إيوانه
ومن الشناء مصوغته تيجانه
والحمد مال أتم بذر الله
والحمد مال أتم بذر الله
ومنها : فضل الملوك الأكرمين فضله
في فضله في عدله في حلمه
هو في السماح وفي اللقاء عليه
من آل شاذى الشائدين لمجده
بيت من العلياء سام شاهق
يا سالب التيجان من أربابها
والحمد مال أتم بذر الله

وما زال التجنيس والتقسيم وغيرهما من ألوان البديع شائعا في أبيات العماد ،
حتى لكان هذا الشاعر تأبى عليه نفسه كل الإباء أن يقرأ الناس له بيتا ليس فيه بديع
من نوع ما ، أو زينة على نحو ما . فإذا مر بيت من أبياته مغسولا من هذه الزينة

أحسست أن الشاعر غير راض عن نفسه ولا عن شعره هذا .
ثم فتح السلطان حصن (منبج) وحصن (عزاز) . وفي الأول نظم العباد هذا
الشعر المرقص ومنه قوله (١) :

نزولك في (منبج)	على الظفر المبهج
ونجحك في المرتجى	وفتحك للمرتجى
دليل على نجاح ما	تحاول أو ترتجى
أمورك فيما ترو	م واضحة المنهج
وشانيك دامي الشؤو	ن منك شقي شجي
ومن كان في حصنه	ومن قبل لم يخرج
يقال له : ليس ذا	بعشك قم فادرّج
فرايك يستنزل النجو	م من الأبرج
فعجل عبور الفرا	ت وأسر وسر وأدج
وعج نحو تلك البلا	د وعن غيرها عرج
فخران والرقما	ن تاليتا منبج

وفي عزاز قال العباد (٢) :

أعطاه رب العالمين دولة	عزة أهل الدين في إعزازها
حاز العلا بياسه وجوده	وهو أحق الخلق باحتيازها
مهلك أهل الشرك طرا رومها	أرمنها إفرنجها أنجازها
تفاخر الإسلام من سلطانه	تفاخر الفرس بأبروازها
هن من فتح عزاز نصرة	أوقعت العداة في اهتزازها
واليوم ذلت حلب فإنها	كانت تنال العز من عزازها

وفي نهاية قوله :

ارفع حظوظي من حضيض نقصها	وعد عن همازها لمازها
والشعر لا بد له من باعث	كحاجة الخيل إلى مهمازها !

وفي هذه القصيدة نوع عجيب من التكلف لعل مصدره اختيار الشاعر لهذه القافية التي اضطرته الى الاتيان بألفاظ غريبة مثل قوله (انجازها^(١)) في البيت الثالث ، كما اضطرته إلى العبث ببعض الأعلام كما في قوله (أبروازاها) تحريفاً لأبرويز . وهكذا .
وقلنا إن أعداء السلطان من أهل حلب والموصل ضاقت حيلهم ، ولم يبق أمامهم إلا خطة واحدة يسلكونها معه ، وهي أنهم يترضونه ويتذللون إليه ، عسى أن يهب لهم أملاهم ويعود إلى مصر . ففعل السلطان ذلك واستعد للرجوع إلى القاهرة ، وفي ركابه العماد الأصفهاني الذي أنشد في الطريق ^(٢) :

هجرتمكم لا عن ملال ولا غدر
وأعلم أنني مخطيء في فراقكم
أرى نوباً للدهر تمضي ولا أرى
وقلبي وصبري فارقاني لبعدمكم
وإني على العهد الذي تعهدونه
وأقسم لو لم يقسم البين بيننا
أسير إلى مصر وقلبي أسيركم
تذكرت أحبابي بخلق بعد ما
وناديت صبري مستغيثاً فلم يجب
إلى أن قال : —

ولما بدا الفسطاط بشرت رفقتي
بكنت أم عمرو من وشيك رحلي
تقول إلى مصر تصير تعجبا
وقالت : أقم لا تعدم الخير عندنا
ثقي برجوع يضمن الله نجاحه
ثم مضى في مدح الملك الناصر صلاح الدين على عادته وطريقته . غير أن العماد كان في هذا الجزء الذي ذكرناه أخيراً من القصيدة شبيهاً بأبي نواس في قصيدته التي مدح بها (الخصيب) في مصر ، ومقلداً له فيها كما لا يخفى على قراء الأدب .

(١) لم نهتد إلى معنى هذه الكلمة . ولعلها تكون تحريفاً من الشاعر نفسه لكلمة (انجيز) ، وهم شعب من الشعوب التي اشتركت في الحروب الصليبية .
(٢) الروضتين ج ١ ص ٢٦٥ .

واستقر المقام بمصر للسلطان زمانا توفر فيه على نشر العدل وسماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعض الإصلاحات الداخلية ، وكان الشعراء يقدون إليه حيناً بعد حين ؛ يمدحونه ويقرونه على الجهاد وكان فيهم العباد ، فما قاله للسلطان يوماً^(١) :

فديتك من ظالم منصف	وناهيك من باخل مسرف
أبلغ دهرى قصدى وقد	قصدت بمصر ذرى يوسف
ويوسف مصر بغير التقى	وبذل الصنائع لم يوصف
فسر وافتح القدس وآسفك به	دماء متى تجرها ينظف
وأهد إلى الاستبثار البتار	وهذ السقوف على الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلاد	يخلصك الله في الموقف !

وأنظر الى قوله هنا :

وخلص من الكفر تلك البلاد يخلصك الله في الموقف !

الى أى حد يؤثر هذا القول فى نفس تقية مؤمنة كنفس صلاح الدين ، وكم من المعانى الدينية العظيمة يوحى بها هذا البيت إلى قلبه الكبير !

وكان من الشعراء الذين وفدوا إلى الملك الناصر ، أو الذين بعثوا بقصائدهم إليه ذلك الكاتب المصرى المشهور (بالأسعد بن ممان) حيث قال :

يا كريم الخيم فى الخيم	أهيف كالريم ذو شمم ^(٢)
عجبي للشمس إذ طلعت	منه فى داج من الظلم
كيف لاتصمى لواحظه	ورماة الطرف فى العجم
لاتصد قلب المحب لكم	لا يحل الصيد فى الحرم

ومنها قوله :

ياصلاح الدين يامنكا	مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار فى نعم	وغدا الإسلام فى نعم
فابق للأقدار ترفعها	وأمر الأقدام كالخدم

(١) الروضتين : ج ١ ص ٢٦٩ .

(٢) الروضتين : ج ١ ص

وقد آثر الشاعر هنا أن يبعث بقصيدته تلك إلى السلطان ، عن طريق العماد . وأحسب أن العماد ضاق بالبيت الأخير من أبيات هذه القصيدة الجميلة ، وهو قوله . (ومرا الأقدار كالخدم) لأنه يذكر بقول الشاعر الشيعي : ما شئت لا ما شامت الأقدار الخ . ومن الشعراء الوافدين كذلك الشاعر علم الدين الشاتاني . وهو أبو علي الحسن بن سعيد وقد مدح السلطان بقصيدة أولها (١) :

غدا النصر معقودا برايتك الصفر (٢) فسروا فتح الدنيا فانت بها أخرى
يمينك فيها الدين واليسر في اليسر فبشرى لمن يرجو الندى منهما بشرى
وخفر (أرناط) بذمة المسلمين ، ونقض هديتهم ، وأغار على بلادهم ، فذهب إليه السلطان ، ولقيه في وقعة (الرملة) ، وهي الوقعة التي انتصر فيها الصليب على الإسلام ، فغضب السلطان لذلك كل الغضب ، ولم ينس الشعراء إذ ذاك أن عليهم واجبا عظيما ، هو تهديته خاطره ، والاعتذار عن هزيمته ، ومن ذلك ما قاله ابن سعدون الحلبي (٣) .

قل للفرنجية الخذل رويدكم بالثار أو تخرج الشعري من الحمل
ترقبوها من (الفوار) طالعة خوارق الأرض تمحورونق الأصل
حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم أن يقرفوك بجرح غير مندمل
وهل يخاف لسان النحل ملتصق مرت على أصبعيه لذة العسل ؟
ونحن نقول : ما أحسن ما اعتذر الشاعر هنا عن هزيمة السلطان ، وما أجمل ما هون أمرها على نفسه ! . وكان للملك المظفر (تقي الدين عمرو) ابن أخي السلطان صلاح الدين بلاء حسن في هذه الغزوة فأنشده العماد قوله : (٣)

سقى الله العراق وساكنيه وحياء حيا الغيث الهتون
وجيرانا أمنت الجور منهم وما فيهم سوى واف أمين
صفوا والدهر ذو كدر وقدا وفوا بالعهد في الزمن الخؤون
بنو أيوب زانوا الملك فيهم بحليمة سودد وتقي ودين
ملوك أصبحوا خير البرايا لخير رعية في خير دين
بنو أيوب مثل قریش مجدا وأنت لها كأنزعها البطين (٣)

(١) ص ٢٧٤ (٢) كانت الأعلام الأيوبية صفراء والفاطمية بيضاء والعباسية سوداء .

(٣) يقصد على بن أبي طالب

ويوم الرملة المرهوب بأسا تركت الشرك منزعج القطين
وكننت لعسكر الإسلام كهفا أوى منه إلى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سظاك لما رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمى حماء أوان ولى كل دين
يريد (أوان ولى كل ذى دين) . وهكذا يأتى الشعر إلا أن يتخذ حتى من الهزيمة
التي يمتنى بها المسلمون فرصة لتقويتهم ، وموضعاً للشناء عليهم . وكيف لا يفعل والرجاء
كله معقود على أولئك الأبطال ، والحرب بينهم وبين الصليب حرب سجال ، والأمور
بخواتيمها والعبرة بمن يكون له النصر فى نهاية الموقعة .

واستعد صلاح الدين بعد ذلك للخروج من مصر ، وأوصى أخاه الملك العادل
نائبه بها أن يجهز له من عساكر المصريين ألفاً وخمسمائة . وخرج إلى الشام ، وأخذ يغير
فى طريقه على حصون الفرنج حصناً حصناً ، والفرنج من جانبهم يزعمون أمراء المسلمين ،
ويغيرون عليهم جملة واحدة . ثم التقى الفريقان (بمروج عيون) فمن الله بنصره على المسلمين :
وكان من جملة الأسرى من الفرنج : مقدم الداوية ، ومقدم الاستبائية ، وصاحب
طبرية ، وصاحب الرملة وعدة كبيرة من أمرائهم وفرسانهم ، وأبطالهم . وأراد بعض
هؤلاء أن يقدوا أنفسهم بالمال فقبل السلطان منهم ذلك ، واشترط عليهم فكاك الفقيه
(عيسى الهكاري) ^(١) من أيديهم ، وكانوا أسروه يوم الرملة . وتكاثر الشعراء على
صلاح الدين يهنئونه بهذا النصر الجليل ، وفيهم شاعر يقال له (أبو علي الحسن بن علي
العراقي الجويني) ، وقد اكتفى بأن بعث إلى السلطان بقصيدة له فيها ^(٢) :

لـك رب السماء خير معين وكفاه بما تحب ضمير
فله الحمد أى نصر عزيز قد حباننا به وفتح مبين
يا مليكاً أضحي الزمان يناجيه بلفظ المذل المسكين
قدفت أهلها الحصون إلى بأسك حتى عوضتهم بالسجون
يا مليكاً يلقى الحروب بحول الله مستعصماً وصدق اليقين

(١) كان الفقيه عيسى الهكاري من كبار الفقهاء الذين لهم فضل على صلاح الدين ، فهو الذى مهد له
الأمور فى مصر بعد وفاة العاضد الفاطمى حتى ولى الوزارة .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٩ .

إن هذا الفتح المبين شفاء لصدور وقرة لعيون
هو يوم أضحي كيوم حنين سهل الله نصره في الحزون
وكان من الشعراء الذين هنتوا السلطان بانتصاره العظيم في (مرج عيون) الشاعر
الذي التقينا به من قبل ، وهو المعروف (بابن التعاويذي) ، وقدمدح السلطان بقصيدة
رائعة من قصائده منها (١) :

إن كان دينك في الصبابة ديني فقف المطى برملتي بيرين
ثم قال بعد تمام الغزل :

ليت الضنين على المحب بوصله لقن السباحة من صلاح الدين
ملك إذا علقت يد بزمامه علقت بجبل في الحفاظ متين
قاد الجياد معاقلا وإن اكتفى بمعاقل من رأيه وحصون
سهرت جفون عداه خيفة ماجد خلقت صوارمه بغير جفون
لو أن لليث الهزبر سظاه لم يلجأ إلى غاب له وعرين
أضحت دمشق وقد حلت بجوها مأوى الطريد وموئل المسكين
لك عفة في قدرة ، وتواضع في عزة ، وشراسة في لين
وأريتنا بجميل صنعك ماروى الراوون عن أمم خلت وقرون
وضمنت أن تحي لنا أيامهم بالمسكرات فكنت خير ضمير
ومنها في وصف الموقعة :

كاد الأعادي أن يصيبك كيدها لو لم تتكدك برأيها المأفون
تحفى عداوتها وراء بشاشة فتشف عن نظر لها مشفون (٢)
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهم أفضت إليك بسرها المخزون
كمنوا وكم لك من كمين سعادة في الغيب أظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعادهم وقضى لهم بالنحس طائرهم بمرج عيون . الخ
وابن التعاويذي شاعر مجيد ، فوق أنه قريب من دار الخلافة ، وهو بشعره الرصين

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) شفته كضربة وعلمه شفونا نظر اليه بمؤخر عينه ، أو نظر في إعراض ، أو رفع طرفه ناظرا اليه
كالمتعجب أو كالكاره = القاموس المحيط .

وأسلوبه الجزل المتين يعطينا صورة من الشعر العراقي لذلك الوقت ، وهو شعر يبدو أنه أمتن نسجا ، وأسمح طبعاً من الشعرين المصري والشامي ، وهما اللذان غلب عليهما إذ ذاك البديع ، وسارا بتأثير العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل أشواطاً بعيدة في هذه السبيل .

وقصد السلطان بعد ذلك إلى حصن (الداوية) أو حصن (المخاض) أو (بيت الأحزان) أو (بيت يعقوب) ، فخر به ، وأراح المسلمين من شره ، وكان الفرنج قد جمعوا وراء الحصن حطباً ، فلما وقع الجدار ، دخلت الرياح فردت النار عليهم ، وأحرقت بيوتهم وظائفة منهم ، فاجتمعوا إلى الباب البعيد من النار ، وطلبوا الأمان ، وأسر المسلمون يومئذ أكثر من سبع مائة . واطمأن السلطان إلى هدم هذا الحصن ، وكان قد بذل للفرنج فيه قبل ذلك مائة ألف دينار ليهدموه فأبوا ، وتركوا الأمر لسيفه يقضى فيه بهذا الحكم الذي رأوه .

وانهال الشعراء على السلطان تهنئته . ومنهم رجل دمشقي يقال له (نشو الدولة أحمد بن نقاده) :

نظم قصيدة جاء فيها بقوله : (١)

هلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمّرت بيت أحزانها

ثم أتى الشاعر الخراساني السوري المصري أبو الحسن علي بن محمد ابن رستم الساعاتي مهتماً السلطان بهذه القصيدة : (٢)

بجذك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعادي دون مجذك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهي تزحف

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ١١) .

(٢) الروضتين : (ج ٢ ص ١١) .

وما رجعت أعلامك الصفر ساعة . إلى أن غدت أKBادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب^١ وبيعة^٢ وشاد به دين حنيف ومصحف
صليبة عباد الصليب ومنزل النزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبين عصبه تمين لدى أيمانها وهي تحلف ؟
نصحتكم والنصح في الدين واجب^٣ ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وانظر إلى هذه التورية اللطيفة في هذا البيت الأخير (ذروا بيت يعقوب فقد
جاء يوسف) ؛ فبيت يعقوب هو حصن الداوية ، ويوسف هو صلاح الدين الأيوبي ،
وقد أبدع الشاعر في توريته إبداعا يستحق الشكر .

ثم من الشعراء الذين مدحوا السلطان إذ ذاك شاعر اسمه (سعادة الضرير الحمصي)
حيث قال : (١)

حلمت فسكنت الألمعى المسددا	وسرت فسكنت السمهرى المؤيدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضا	فأقعدت أعداء ولم تخش مقعدا
تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا	وكل امرئ مغرى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبه	فناداك حزب الله يا ناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحه	فأرضيت - لما أن غضبت - محمدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغى	قفقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت إلى الأعداء جيشا عرمرما	إذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا	ولم تبق للإيمان شملا مبديا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه	فأقعدت لما أن نهضت به العدا
وزرت به الحصن الذى لو تحصنت	فوارسه بالنجم أوردته الردى
قصمت به صلب الصليب ورعته	وسهده لما غفا فتسهدا
هببت إليه هبة يوسفية	تعيد هباء كل ما كان جليدا

وفى هذه القصيدة الحماسية معنى ديني عبرت عنه أكثر القصائد الصليبية ؛ وهو
قوله مستغلا فى ذلك اسم صلاح الدين :

غضبت لدين أنت حقا صلاحه فأرضيت لما أن غضبت محمدا
وكان من الشعراء المهنتين يومئذ الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نيهان العراقي،
من أهل (الحلة) ، وقد شهد بنفسه الواقعة ، فقال : (١)

هنيئنا صلاح الدين بالفتح والنصر ونيل الأمانى الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا سمو أنى لا ينام على وتر
وصلت بها حبل المفاخر مثلها قطعت بها يوم الوغى دابر الكفر
سلكت بياض الصبح وهو صوارم وخضت سواد الليل وهو دم يجرى
وقد عرف الإفرنج بأسك فى الوغى وجرعتهم منه أمر من الصبر
وظنوا بناء الحصن صونا للمسكهم فأصبح بالشعواء منهتك الستر
فما قبضت منهم يد الغدر (قطعت أناملها) إلا على صفقة الخسر
هى الفتكة الغراء لازلت قائما بأمثالها للدين فى السر والجر
وأصبح فى أقصى خراسان ذكرها وفى كل قلب منه جيش من الذعر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة فما خلقوا إلا على شيمة الغدر
فسر واملأ الأرض التى لو تركتها لأغضت عيون المجد منها على أمر
فيا آل أيوب حويتم مناقبا بأخصها تعلو على الأنجم الزهر
إذا عد أرباب الفخار فأنتم ذوو الفعلات الغر والنائل الغمر

ثم طلب الفرنج الصلح ، فنحهم السلطان إياه ، وكان صلحا عاما ، دخل فيه الحلبيون
والمواصلات ، فضلا عن الفرنج والروم وأهل ديار بكر . ثم ذهب السلطان بعدها إلى بلاد
الأرمن ، وقع ملسكهم (ابن لاون) لأنه غدر بذمة المسلمين فى بلادهم ، وأسرع
وأذلهم ، فدخل السلطان بلاده ، وأذل أعوانه وأجناده وأحرق المسلمون يومئذ قلعة
من أشد قلاعهم ، تعرف (بالمناكير) ، فتقوى بها المسلمون ، وأذعن الأرمن ، وأطلق من فى
يده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيدا منصورا فقدم عليه شاعر اسمه (الجمال الواسطى)

وهو أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرئ ، قال إنه شهد هذه الغزوة ، ونظم فيها قصيدته التي منها : (١)

لقد جمل الله منك الورى بأوفى ملك وفى هجان
تمش إلى نغمت السيوف فى الهام لا نغمت القيان
أزرت ابن لاون لأواءه فأضحى به خبرا عن عيان
ودان من الذل لا يرعوى حذارا من الراءفات اللدان
فلا قدم عنده للثبات وليس له بسطاطم يدان
وأخلى إليكم مناقيره وغادر للهدم تلك المباني
رتقت بعزمك والمكرما تفتوقا من الأرتقى الهجان
ورعت ابن سلجوق فى ملكه فققعق من رعبه بالشنان (٢)

وليس فى هذه الآيات من الجنس إلا قوله (رتقت ... فتوقا من الأرتقى) .
وربما قصد الشاعر أيضا إلى التجنيس فى قوله (أزرت ابن لاون لأواءه) .
ثم أتى إلى السلطان عند نهر العاصى شاعر مر ذكره ، هو الفقيه مذهب الدين بن
عبيد الله بن أسعد الموصلى ، وأنشد السلطان قوله : (٣)

أما وجفونك المرضى الصباح وسكرة مقلتيك وأنت صاحى
لقد أصبحت فى العشاق فرداً كما أصبحت فرداً فى الملاح
يهز الغصن فوق نقي ويرنو بحد ظبا ويبسم عن أقاح
وقد غرس القضيب على كثيب فأثمر بالظلام وبالصبح
ومال مع الوشاة ولا عجيب لغصن أن يميل مع الرياح
قطعنا الليل فى عتب وشكوى إلى أن قيل : حى على الفلاح
ولاح الصبح يحكى فى سناه صلاح الدين يوسف ذا الصلاح
ولما ضاق حد عن مداه لقيناه بأمال فساح
فمن هرم وكعب وابن سعدى رعا الشاء والنعم المراح ؟

(١) الروضتين : ج ٢ ص ١٦ .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١٦ .

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٦ .

(٤) كناية عن أنه جبان .

جواد بالبلاد وما حوته إذا جادوا بالبار اللقاح
ليفد حياء وجهك كل وجه إذا سئل الندى جهم وقاح
ملوك جاههم مغرى بظلم ومشغول بلمو أو مزاح
ومنها :

وما خضع الفرنج ليدك حتى رأوا مالا يطاق من السكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ولكن خوف معلة رداح^(١)
ملأت بلادهم سهلا وحزنا أسوداً تحت غابات الرماح
واتجه صلاح الدين بعد ذلك إلى بلاد الشرق مرة ثانية ، ومهد أموره بها وبمحض
وبعلبك ، وهما المدينتان اللتان فتحهما من قبل . وهناك أتاه شاعر يقال له (المهذب
عبيد الله بن أسعد ابن الدهان) ،^(٢) فدحه بقصيدة منها :

هل يعلم المتحملون لنجعة أن المنازل أخصبت من أدمعي
دعني وما شاء التلذذ والآسي واقصد بلومك من يطيعك أو يعي
لا قلب لي فأعي الملام فإنني أودعته بالأمس عند مودعي
قل للبخيلة بالسلام تورعا كيف استبحت دمي ولم تتورعي
وبديعة الحسن التي في وجهها دون الوجوه عناية للبدع
ما بال معتمر بربك دائما يقضى زيارته بغير تمتع
ووعدتني إن عدت عود وصالنا هيات ما أبقى إلى أن ترجعي
هل تسمحين ببذل أيسر نائل أن أشتكي وجدى إليك وتسمعي
عني الربيعُ الجونُ ربعا طالما أبصرت فيه البدر ليلة أربع
ولو استطعت سقيته سيل الغنى من كف يوسف بالأدر الأنفع
بيدي فتى لو أن جود يمينه للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فإذا تبسم قال يا جودُ اندفق فيضاً ويا سحب الندى لا تقلعي
وإذا تنمر قال يا أرض ارجني بالصاهلات ويا جبال تزعزعي
وإذا علا في المجد أعلى غاية قالت له الهمم الجسم ترفع

(١) أعلم الفرسى علق عليه صوقا ملونا في الحرب ؛ وأعلم نفسه : وسماها بسمي الحرب . والرداح
كسحاب الثقيلة الأوراك والكتيبة الثقيلة الجرارة
(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .

كم وقفة لك في الوغى محمودة أبدا وكم جود حميد الموقع
والناس بعدك في المكارم والندى رجلان إما سارق أو مدعى
والقصيدة التي ألهاها هذا الشاعر ذات غزل جميل ، يظهر أنه هو ما أغرى أبا شامة
بنقلها في كتابه ، وهو ما أغراني كذلك بنقلها في هذا الفصل . ولو أنها من الناحية
الحماسية الصرفة ليس فيها غير هذه الآيات الأربعة الأخيرة ، التي تصور صلاح الدين
في كرمه وفي شجاعته رجلا لا نظير له .

والناس بعدك في المكارم والندى رجلان إما سارق أو مدعى

بعد ذلك استأذن السلطان الخليفة في فتح (آمد) ، وعليها رجل يقال له (ابن تيسان) ،
فأذن له ، فنصب السلطان عليها المنجنيقات ، وأخذها في مستهل سنة ٥٧٩ هـ وبها من
الأموال والغلال والسلاح والذخائر وآلات الحصار شيء قل أن يوجد مثله في بلد
آخر . ووجد بها خزانة كتب حوت ألف ألف وأربعين ألف كتاب ، فوهبها كلها
للقاضي الفاضل ، ووهب المدينة نفسها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وكان أبوه
حاول فتحها من قبل وتمناها لنفسه ، فلم يقدر ، وفي فتح آمد يقول سعيد الحلبي الشاعر
مهنتا (١) :

رمى (آمد) بالصافيات فأذعنت	له طاعة آكامها ووعورها
فما عز نأديها ولا اعتاص ثغرها	ولا جاش طامها ولا رد سورها
وأزلت بالسكره ابن تيسان مخرجا	كما أنزل الزباء كرها قصيرها
نهضت لها حتى إذا انقاد صعبها	تقضى على طول الشماس ثغورها
سمحت بها جودا لمن ظل برهة	يغاورها طورا وطورا يغيرها
وملكت ما ملكت منها تحولا	وكان قليلا في نذاك كثيرها

وأتى شاعر حلبي آخر يقال له (ابن سعدان) ، فنظم قصيدة في تهنته السلطان ،
منها قوله (٢) .

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ٣٩) .

(٢) الروضتين : (ج ٢ ص ٣٩) .

فيا ساكني الرعناء من سفح آمد أرى عارضا ينهل بالموت هاطله
لئن غضبت يوما عليكم عروشها فهذا ابن أيوب وهذي معاقله
ولو رامها يوما سواء لقطعت أباهره من دونها وأباجله (١)

* * *

وفكر السلطان بعد ذلك في الاستيلاء على (حلب) وكان من الذين حضوه على فتحها ، وهونوا له أمرها (أبو الحسن بن الساعاتي) حيث قال (٢) :

ما بعد لقياك للعافين من أمل ملك الملوك وهذي دولة الدول
فانهض إلى حلب في كل سابقة سروجها قلل تغني عن القلل
ما فتحها غير إقليد الممالك والد اعى إليه جميع الخلق والممل
وما عصت منعة لكنه غضب علام أهملتها إهمال مبتذل ؟

وكان كثير من الشعراء يحرضون السلطان على فتح هذه المدينة العظيمة ، ومن هؤلاء الذين حرضوه على ذلك (ابن سعدان الحلبي) حيث قال (٣) :

دونك والحسناء أم القرى ونارها الشهباء (٤) والطود الأشم
واركب إلى العليا كل صعبة أبيت لعنا وخلاك كل ذم
وارم فكل الصيد في جوف الفرا لا صارم السهم ولا نابي الحكم
مد إلى أخت السهائم زورة لا فرق يعقبها ولا ندم
فيالها شهاب مشمخرة تطارح البرق وساحات الديم
إيه صلاح الدين شد أزرها واعزم عليها فالزمان قد عزم
ودونك المنعة من قبائها وبابها المخلق في وجه الأمم
وكان شاعر حلب آخر يقال له (أبو الفضل بن حميد) قد سبق كذلك أن أغرى

صلاح الدين بحلب وافتتحها في قوله (٤) :

يا بن أيوب لا برحت مدى الدهر رفيع المسكن والسلطان
حلب الشام نحو مرآك ولهي وله الصب ريع بالهجران !

(١) أباهره جمع أبهر ، وهو الظهر أو عرق فيه ، ووريد العنق ، والأباجل : جمع أبجل وهو عرق

غليظ في الرجل . (٢) الروضتين : ج ٢ ص ٤٣ . (٣) الروضتين : ج ٢ ص ٤٤ . (٤)

(٤) في الأصل : ونارها الأشهب والنار مؤنثة .

ودخل السلطان مسجد حلب ، فصلى ركعتين ، وأطال السجود ، ثم خرج وأطلق
المكوس والضرائب ، ووزع في الناس أموالا كثيرة ، كل ذلك شكراً لله تعالى على هذا
الفتح ، ثم جلس السلطان للهناء فأنشده الشاعر المصري ابن سناء الملك هذه القصيدة : (١)

بدولة الترك عزت دولة العرب	وبابن أيوب ذات بيعة الصلب
جليسة النجم في أعلى مراتبه	وطالما غاب عنها وهي لم تغب
وما نعته كمعشوق تمنعه	أحلى من الشهد أو أشهى من الضرب
فر عنها بلا غيظ ولا حنق	وسار عنها بلا حقد ولا غضب
تطوى البلاد وأهلها كتابه	طيا كما طوت الكتاب للكتب
أرض الجزيرة لم تظفر بمالكها	بمالك فطن أو سائس درب
بمالك لم يدبرها مدبرها	إلا برأى خصى أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فأنصلحت	من الفساد كما صحت من الوصب
وقد حواها وأعطى بعضها هبة	فهو الذي يهب الدنيا ولم يهب
ومذرات صده عن ربها حلب	ووصله لبلاد الغير بالحلب
غارت عليه ومدت كف مفتقر	منها إليه وأبدت وجهه مكتئب
واستعطفته فوافتها عواطفه	وأكثب الصلح إذ نادته عن كثب
وحل منها بأفق غير منخفض	للمصاعدين وبرج غير منقلب
فتح الفتوح بلا مين وصاحبه	ملك الملوك ومولاها بلا كذب

أحسن أيتها الشاعر المصري ، ووفقت الى تهنية السلطان بهذا الفتح الذي أثلج صدره ،
وطمأن نفسه ، ونفذ عينك في حجب الغيب ، فرأيت ملوكا على جميع تلك البلاد ، التي
(لم يدبرها مدبرها إلا برأى خصى أو بعقل صبي) ، ورأيت صاحب الكلمة النافذة في
بلاد الإسلام التي آلت على نفسها أن توحد كلمتها تحت راية هذا السلطان ، إذ هو وحده
القادر على طرد الفرنج .

ومن ههنا السلطان بفتح حلب رجل أديب يقال له (أبو طي النجار) وهو والد
المؤرخ الشيعي المشهور بابن أبي طي ، وهو أحد المصادر الهامة التي أخذ عنها أبو شامة في كتابه
الروضتين - قال من قصيدة له (٢)

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٤٥ .

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٤٣ .

حلب شامة الشآم وقد زيدت جلالا بيوسف وجمالا
هي أس الفخار من نال أعلاها تعالى نخامة وتعالى
ومحل العلاء من حل فيها تاه كبرا وعزة وجلالا
من حواها مملكا ملك الأراض اقتسارا سهولة وجلالا
فاقترشها مهنا بمحل سمك الأنجم الوضاء وطالا

وبينا السلطان جالس في مجلسه يستمع إلى كبار الشعراء في دولته، اذا بالشيخ محي الدين ابن زكي الدين قاضي دمشق يقبل ويده قصيدة يريد أن ينشدها السلطان، وفيها قوله :
وفتحكم حلبا بالسيف في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب
فلما سمع السلطان ذلك تعجب من هذا التنبؤ ؛ والعجب أن فتح القدس بعد ذلك
وافق الموعد الذي تنبأ به قاضي دمشق ، فكافأ السلطان هذا القاضي مكافأة جائلة - كما
سنرى بعد - وهي أنه شرفه بإلقاء خطبة الجمعة في أول صلاة للمسلمين بالمسجد الأقصى ،
عقب خروج الفرنج منه ، وكان المتنافسون على إلقاء الخطبة كثيرين من علماء المسلمين
وأعيانهم وجلة فقاههم . (١)

(٢) كثرت مثل هذا التنبؤ في المعسكرين الإسلامي والصليبي معا . أما التنبؤ الإسلامي الذي أتى
به محي الدين بن زكي الدين فقليل أنه اعتمد فيه على شيخ من أهل حلب يقال له الفقيه مجد الدين بن جهيل
الشافعي الذي وقع في يده تفسير للقرآن لأبي الحكم المغربي ، فوجد فيه ابن جهيل هذا عند قوله تعالى : « ألم
غلبت الروم في أدنى الأرض ... الآية » إن أبا الحكم قال إن الروم يغلبون في رجب سنة ثلاث وثمانين
 وخمسمائة وفتح البيت المقدس وتصير دارا للإسلام إلى آخر الآية ، فأخبر ابن جهيل بذلك الشيخ محي الدين
 فنظم هذا الأخير قصيدته التي مر ذكرها ، فكافأه السلطان كما رويها وكافأ ابن جهيل نفسه بأن جعله يلقي
 أول درس في الفقه بالصخرة المقدسة بعد خروج الفرنج منها مباشرة

أما التنبؤ الذي ذاع في المعسكر الصليبي فقد أمدتنا المذكرات المعروفة باسم *Gesta Francorum*
بمثال منه خلاصته :

إن قائدا إسلاميا اسمه كريوغا استنجد به الحاكم الأرمني بأنطاكية ، وذلك في الحصار الذي ضربه
 الصليبيون حول هذه المدينة العظيمة في يونيو سنة ١٠٩٨ م . فأتى كريوغا لمساعدته في جيش ضخم
 فسمعت والدته بما عزم عليه ، فأنت إليه واستغرقت في البكاء بين يديه وكان مما قالت له يومئذ .
 « يا بني العزيز ، لقد تبين بعضهم منذ أكثر من مائة عام أنه جاء في كتابات الوثنيين ... أن الأمة
 المسيحية ستهاجنا ، وسيعقد لها النصر علينا في كل ناحية ، وإنها ستسود الوثنية ، وسأتبعك والأسى يقتلني
 — من حلب — تلك المدينة العظيمة التي احتطعت فيها عن طريق التدقيق والبحوث الحاذقة في
 مطالعة النجوم ومسالة السكواكب والبروج الاثني عشر والتنبؤات العديدة أن اعرف أن الشعب المسيحي
 سيقهرنا أنى كنا . وإنني اضطرب فزعا وحزنا مخافة أن أحرم منك الخ » كتاب الحرب الصليبية الأولى
 للاستاذ حسن حبشي ص ١٤٦ .

وإذ تم للسلطان ما أراد بعد ذلك من توحيد كلمة الإسلام ، واطمأن إلى ذلك كل الاطمئنان ، لم يجد أمامه إلا أن يستعد لملاقاة الفرنج في عقر دارهم ، فإما هزمهم وكسحهم كسحا تاما من البلاد ، وإما هزموه وتوطدت أقدامهم هناك .

فرتب السلطان أمراه على البلاد ، ثم جمع جموعه ، وأغار بهم على طبرية ، فأخذها ، والتقى بالفرنج على سطح الجبل . ودام القتال يومين ، وفي اليوم الثالث اعتصمت طائفة من الفرنج بتل حطين ، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام ، وقتلهم الحر والظلماء ، حتى أحبوا الأسر فراراً من الموت ، وضايقهم المسلمون على التل ، وأسروا منهم يومئذ ملك بيت المقدس ، وأمير السكرك ، وأخا للملك جودفرى وصاحب حبييل ، وابن صاحب اسكندرونه ، ومقدم الداوية ، ومقدم الإسميتارية .

قال العماد : « ولقد رأيت في الجبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس ، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس . ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصليبوت ^(١) ، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم ووهنت أصلابهم . وبلغ من تعصب المسلمين أنهم داسوه بأقدامهم وأهانوه إهانة بالغة .

وجلس السلطان لعرض أكابر الأسارى ، وهم يتهادون في القيود تهادى السكارى ، وكان فيهم أرناط الذى نذر السلطان ليقتلنه بيده إن ظفر به ، وكان ملك بيت المقدس يلث من الظمأ ، فأمر له السلطان بماء مثلوج ، فشرب ثم ناول القدح لأرناط ليشرب منه ، فقال السلطان للملك لا تسقه من القدح ، حتى لا يكون له عهد عندي . أراد السلطان بذلك الجرى على كريم عادة العرب من أنهم إذا سقوا أحدا أصبح آمنا ، ثم باعد السلطان بين الملك وأرناط ، واستدعى هذا الأخير في سرادقه فأتى إليه ، فذكره السلطان بالإهانة التى ألحقها بالمسلمين ، ثم ضربه بالسيف ضربة فصلت كتفه عن عنقه ، وقال : ها نذا أنتقم لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما رأى ملك القدس ذلك تملكه الفزع ، وساوره الهلع ، فاستدعاه السلطان واستدناه ، وقال له : ماجرت عادة الملوك أن تقتل الملوك أما هذا فقد بغى وطغى وتعدى ظوره ، فكان جزاؤه ما رأيت .

ثم جلس السلطان للهناء ، فلا تسل عن مقدار الشعر الذى أعده له الشعراء ،

(١) الروضتين : (ج ٢ ص ١٣٩) .

وسنكتفي من هؤلاء بعشرة ، ثم نكتفي من قصائد كل شاعر من هؤلاء العشرة بواحدة ، ونختار من كل قصيدة أبياتا قليلة .

ولقد نظمت في ذلك اليوم قصائد كثيرة عرفت فيما بعد (بالقدسيات) نسبة إلى يوم القدس ، وكان من أوائل الذين وصلوا إلى مخيم السلطان ، أو الذين إبعثوا إليه بقصائدهم لمدحه وتهنئته ، شعراء مصر ، ومنهم شاعر شريف ، هو محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف (بالجواني المصري) ، وكان نقيب الأشراف بالديار المصرية ، فأنشد السلطان يومئذ قصيدة منها : (١)

أترى مناما ما بعين أبصر	القدس يفتح والفرنجة تنكسر
وقامة قتت من الرجس الذي	بزواله وزوالها يتطهر
ومليكم في القيد مصفود ولم	ير قبل ذاك لهم ملك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي	وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
من كان هذا فتحه لمحمد	ماذا يقال له ، وماذا يذكر ؟
يا يوسف الصديق أنت لفتحها	فاروقها عمر الإمام الأطهر
ملك غدا الإسلام من عجب به	يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرا به	فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيو	ن خواضع حيث الجباه تعمر
غاراته جمع فإن خطبت له	فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلا طلي بسنابك	تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أن تطأ الثرى	فيصدها عنه طلي وسنور
تمشى على جثث العدا عرجا ولا	عرج بها لسكنها تتعثر

فانظر إلى مطلع هذه القصيدة كيف يعبر عن فرحة المسلمين جميعا بالنصر في الموقعة ، وانظر إلى أبيات هذه القصيدة كيف تصور لنا آثار النصر في تلك الموقعة . إن من آثاره أن تطهرت كنيسة القيامة بالقدس من رجس هؤلاء القوم ، وإن من آثاره كذلك أن غدا ملك الصليبيين في القيد ، وإن من آثاره هذا العدد الذي لا حصر له من القتلى ، تمشى على جثثهم جياد المسلمين عرجا وما بها من عرج .

(١) مفرج الكروب ص ٣٠٠ والروضتين : ج ٢ ص ١٠٥ .

وأنى إلى نخيم السلطان شاعر مصرى هو القاضى السعيد أبو القاسم هبه الله بن
سنة الملك الذى مر ذكره قبل ذلك فى فتح حلب ، وهنأ السلطان بقوله : (١)

لست أدرى بأى فتح تنها يا منيل الإسلام ما قد تمنى
أنهيك إذ تملكك شاما أم نهيك إذ تملكك عدنا
قد ملكك الجنان قطراً فقطراً إذ فتحت الشام حصناً حصناً
إن دين الإسلام من على الخلق وأنت الذى على الدين منا
لك مدح على السماوات ينشأ ومحل فوق الأسمه يبنى
شاق جبريل بيت جبرين فوا فى اليه شوقاً وحناً (٢)
تخرج الساكنين منه ورب البيت فى بيته أحق بسكنى
كم تأنى النصر العزيز على الشا م ولما نهضت لم يتأنى (٣)
قت فى ظلمة الكريهة كالبدر ساء والبدر يطلع وهنا
لم تقف قط فى المعارك إلا كنت يا يوسف كيوسف حسناً
يجتنى النصر من ظباك كأن ال غضب قد صحفوه فصار غصناً
قصدت نحوك الأعادى فرد الله ما أملاه عنك وعنا
حملوا كالجبال عظاماً ولكن جعلتها حملات خيلك عنها
جمعوا كيدهم وجاءوك أركاً نا فمن هد فارساً هد ركناً
لم تلاق الجيوش منهم ولكنك لاقيتهم جيالاً ومدناً
كل من يجعل الحديد له ثوباً وتاجاً وطيلساناً وردناً
خانهم ذلك السلاح فلا الرمح يغنى ولا المهند طناً
وتولت تلك الخيول ولم يشن عليها بأنها ليس تشى
وتصيدهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغنا
وجرت منهم الدماء بحاراً فجرت فوقها الجزائر سفناً

(١) الديوان ص ١٣٣ ومفرج الكروب ص ٣٠١ « على خلاف فى النسختين » .

(٢) جبريل لغة فى جبريل (الفاموس المحيط مادة جبر) وجبرين اسم بلدة فى فلسطين . والمعنى

الآخر هو المقصود .

(٣) هكذا بثبوت حرف العلة لحاجة الوزن إلى المد .

صنعت فيهم وليمة عرس رقص المشرفي فيها وغنى
 ظل معبودهم^(١) لديك أسيرا مستضاما فاجعل له النار سجننا
 صلبوا ربهم فلم يغن عنهم من يرى بعد صلبه قط أغنى؟
 وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى وملكه ليس يفنى
 ظن ظنا وكنت أصدق في الله يقينا وكان أكذب ظنا
 كم تمنى اللقاء حتى رآه فتمنى لو أنه ما تمنى
 رق من رحمة له القيد والغل عليه فكلما أن أنا
 واللعين الأبرنس أصبح مذبوحا بيمين — لم يعدم الدين يمنا^(٢)
 أنت ذكيتته فوفيت نذرا كنت قدمته فجوزيت حسنا
 وتهادت عرائس المدن تجلى وثمار الآمال فيهن تجنى
 لا تخص الشام منك التهانى كل صقع وكل قطر يهنأ
 قد ملكك البلاد شرقا وغربا وحيويت الآفاق سهلا وحزنا
 واغتدى الوصف في علاك حسيरा أى لفظ يقال أو أى معنى؟
 أجل كما وفقت أيها الشاعر المصرى فى تهنئة السلطان بفتح حلب. ، فكذلك
 وفقت فى تهنئته بفتح بيت المقدس . بل أن توفيقك فى الأخيرة كان أعظم وأظهر .
 والعجيب أن مطالع القصائد التى قيلت فى التهنة بهذا اليوم كانت كلها مطالع
 رائعة . . فانظر إلى الآيات الأولى من هذه القصيدة ، وهى قول ابن سناء الملك :
 لست أدرى بأى فتح تهنأ يا منيل الإسلام ما قد تمنى
 أنهنك إذ تملكك شاما أم نهنيك إذ تملكك عدنا؟
 قد ملكك الجنان قطرا قطرا إذ فتحت الشام حصنا حصنا
 إنها تدل على حيرة جميلة عند الشاعر الذى أتى يهنئ صلاح الدين الأيوبي . وأنها
 لتهنة مزدوجة ؛ تهنة بالفوز فى الدنيا بسبب هذه الفتوح ، وتهنة بالفوز فى الآخرة
 أيضا . وأن هذا المعنى من المعانى فى تهنة السلطان صلاح الدين ليذكر بمعنى أتى به العماد
 الأصفهاني فى رثاء نور الدين ؛ وذلك حيث يقول : —

(١) يريد صليب الصلبوت . (٢) الإبرنس هنا هو أرناط .

ملكك دنياك وخلفتها وسرت حتى تملك الآخرة !
وانظر إلى تقدير الشاعر هنا لما للسلطان صلاح الدين من الفضل على الإسلام
وعلى المسلمين وعلى جبريل أيضا: فأما فضله على الإسلام فعبر الشاعر عنه في قوله :
إن دين الإسلام من على الخلق وأنت الذى على الدين منا
وأما فضله على المسلمين فعبر عنه الشاعر بقوله :

تخرج الساكنين منه ورب البيت في بيته أحق بسكنى
وإما فضله على جبريل فلأن السلطان أتاح له زيارة بيت المقدس :

شاق جبريل بيت جبرين فوا في إليه شوقا وحننا
ومضى الشاعر بعد هذا يصف الموقعة كما تخيلها ، ويصف بلا ، المسلمين في مقاتلة
الصليبيين ، ويستخر في أثناء ذلك من هؤلاء الصليبيين ، ومن بعض معتقداتهم في صليب
الصلبوت . ثم انتهى به خياله الشعري إلى تلك الصورة التي رأينا فيها الموقعة قد
استحالت إلى وليمة عرس يرقص فيها السيف ويغنى فيها الرمح . وأخيرا أتى إلى قصة
البرنس أرناط الذى قتله السلطان بيده برا يمين حلقها من قبل ، فسجل هذه الحادثة
تسجيلا حسنا . وانتهى من القصيدة بنفس الخيرة التي بدأها ، كما في قوله :

واغتدى الوصف في علاك حسيرا أى لفظ. يقال أو أى معنى ؟

وأما الشاعر المعروف (بأبي الحسن على ابن محمد الساعاقي) شاعر مصر والشام
في زمانه فقد نظم في يوم القدس قصيدة منها (١) .

أعياناً وقد عاينتم الآية العظمى	لآية حال نذخر النثر والنظا ؟
وقد شاع فتح القدس في كل منطق	وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب	وأطرب ذباك الضريح وما ضما
فليت فتي الخطاب شاهد فتحها	فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أعيا دواؤه	وغير الحسام العضب لا يحسن الحسا
وأصبح ثغر الدين جذلان باسمه	والسنة الأغمد توسعه لثما
سلو والساحل الخشى عن سطواته	فما كان إلا ساحلا صادف اليمما

وكان ابن الساعاتي قد هنا السلطان قبل ذلك بفتح طبرية ، وهو القتح الذي سبق
فتح القدس مباشرة ؛ وذلك في قصيدة منها (١) .

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنين
رددت أخيدة الإسلام لما غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما يعز على العوالى أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء دينا
وما طبرية إلا هدى ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء وسل عنها الليالى والسنينا
فمنصنت ختامها قسرا ومن ذا يصد الليث أن يلج العرينا
قست حتى رأت كفوا فلانت وغاية كل قاس أن يلينا
قضيت فريضة الإسلام منها وصدقت الأمانى والظنوننا
تهز معاطف القدس ابتهاجا وترضى عنك مكة والحجوننا
فلو أن الجهات تطيق نطقا لنادتك : أدخلوها آميننا
فلا عدم الشأم وسا كنوه ظبا تشفى بها الداء الدفيننا
سهاد جفونها فى كل فج سهاد يمنح الغمض الجفونا
والملم بالسواحل فهى صور إليك وألحق الهام المتونا
فقلب القدس مسرور ولولا سطاك لكان مكتئبا حزينا
لقد جردت عزما ناصريا يحدث عن سناه طور سيننا
فكنت كيوسف الصديق حقا له هوت السكواكب ساجديننا
وإن تك آخرا وخلاك ذم فإن محمدا فى الآخرينا

وقدم على السلطان شاعرا يقال له (الرشيد بن بدر النابلسي) فمناه يوم القدس
في قصيدة منها قوله : (٢) .

هذا الذى كانت الآمال تنتظر فليوف لله أقوام بما نذروا

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٨٤

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١١٨

بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
حين^١ به حان هلك المشركين فيا
الآن قرت جنوب في مضاجعها
يا بهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت
شتان ما بين ناقوس يدان به
« الله أكبر » صوت تقشعر له
يا مالك الأرض مهدها فما أحد^٢
ما أخضر هذا الطراز^(١) الساحلي ثمرا
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها
هذا الذي سلب الإفرنج دولتهم
والقصيدة طويلة برغم أن الشاعر ختمها بقوله :

يغنيك إجمال قولي عن مفصله
ومن شعر هذا الشاعر نفسه في مدح السلطان وتهنئته بيوم الفتح ، قوله من قصيدة
أخرى^(٢) :

فإذا مررت بملكه وفتوحه فاسخر بما يروى عن الأسكندر !
وإذا بصرت بجأشه وبجيشه فاحث التراب على ذؤابة سنجر !
وكان من شعراء مصر الذين هنتوا السلطان بيوم الفتح ، شاعر يقال له (أبو علي
الحسن بن علي الجويني نثر الكتاب) ؛ وهو نزيل مصر ، ولسكنه من أهل بغداد في
الأصل ، فقال من قصيدة أولها^(٣) :

جنود السماء لهذا الملك أعوان من شك فيهم فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما تحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان

(١) تقدم أن الطراز الأخضر : كناية عن مدن الساحل .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١١٨ أيضا .

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٤ .

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
تسعون عاما بلاد الله تصرخ وال
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم
للمناصر ادخرت هذى الفتوح وما
في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فأين مسلمة عنها وإخوته
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
يا قبح أوجه عباد الصليب وقد
خزنت عند إله العرش سائر ما
فالله يبقيك للإسلام تحرسه
إذا طوى الله ديوان العباد فما

له سوى الشكر بالأفعال أثمان
صيدا وما ضعفوا يوما وما هانوا
إسلام أنصاره صم وعميان
بأمر من هو للمعوان معوان
سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
فظهرت منه أقطار وبلدان
بل أين والدعم بل أين مروان
تنزلت فيه آيات وقرآن
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
ملكته وملوك الأرض خزان !
من أن يضام ويلقى وهو حيران
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وأتى من مصر أيضا شاعر يقال له (نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور الوزير
العزيزي) . ومعه قصيدة في تهنة السلطان ، عرضها العباد عليه وهو بالقدس ، ومنها (١) :

الوقت أضيق من سماع قصيدة
بالمناصر المهدي والهادي إلى
شدت قوى أركان ملة أحمد
ملك إذا أم الملوك جنسابه
وإذا أتوا أسرى إلى أبوابه
مولى غدا للدين أكرم والد
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه
قد أنصف التوحيد من تبايهم
مغري بتجريح الرجال لأنه
ملك له في الحرب بحر تفقه

موسومة لصفات أغيد أهيف
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
وتجملت بجهاده في الموقف
لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
وقفوا بأعظم من يصول وأراف
حذب على أنبائه مترفرف
أعظم به من صارف ومصرف
وأقام في الإنجيل حد المصحف
يروى أحاديث العوالي الرعف
وله غداة السلم زهد تصوف

وعليه أنزل في الجهاد مفصل
 يأيها الملك الذي لطباعه
 لله يوم عروبة ^(١) إذ أعربت
 أو مارأى الأعلاج حين دعوتها
 لم تستطع عصيان أمرك بل أنت
 فاستدع جارتها ^(٢) وشن بأختها
 ما للسواحل غير بحرك حافظ
 هذا الطراز الأخضر استفتحت
 أحبت دين محمد وأقمت
 نخذ الخراج من البسيطة كلها
 واقبض على الدنيا بكف زهادة
 جاءت جنود الله تطلب نأرها
 فانقض بها وتقاض حقه موقنا
 هم فتية الأتراك كل مجحف
 قوم يخوضون الحمام شجاعة
 إن صبّحوا الأعداء في أوطانهم
 أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا
 فلذلك يقرؤه بسبعة أحرف
 وسيوفه خلقا رضا وتعسف
 ساعاته عن نصرك المتعرف
 بلسان سيف في الكريمة ملحف
 منقادة طوعا ولم تتخلف
 وكذلك حتى الأربعين ونيف
 بشبا سنان أو بصفحة مرهف
 فزها بثوب من علاك مسجف ^(٣)
 وسترته من بعد طول تكشف
 واستأد فرضي جزية وموظف
 وابسط لرحمتها جناح تعطف
 وصدورها بك عن قريب تشتفي
 أن الإله بما تؤمله حتى
 يغشى الكريمة فوق كل مجحف
 لا ينظرون إليه من طرف خفي
 تركوا ديارهم كقاع صفصف
 لله در المصطفى والمصطفى

وتبدو في روح هذه القصيدة وفي أسلوبها الثقافة الدينية ، فالشاعر يستشعر بعض
 ألفاظ القرآن الكريم ، من مثل : ينظرون من طرف خفي ، وقاع صفصف ، وفيها ما يدل
 أو يشير إلى معرفته بالقراءات ، أو على الأقل هو يشير إلى الحديث : « نزل القرآن على
 سبعة أحرف » . ومع أن الشاعر - على ما يبدو - فقيه ، فشعره مقبول ، وليس فيه
 التكلف الشديد الذي يصدر عن الفقهاء في شعرهم أغلب الأحيان .

وأنى شاعر آخر هو (شهاب الدين فتیان الشاغوري) فهنا السلطان بقوله ^(٤) :

(١) يوم عروبة ، بفتح العين : هو يوم الجمعة . وهو اليوم الذي انتصر فيه صلاح الدين في موقعة حطين .

(٢) يريد جارة يافا ، لأنها ذكرت قبل ذلك في القصيدة .

(٣) الطراز الأخضر : يريد به بلاد الساحل — كما قلنا — من الداروم وغزة وعسقلان وعكا وصيدا

وبيروت الخ . (٤) الأروستين . ج ٢ ص ١١٩

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها الا
خلعت عليه خلعة الملك التي
راياته صفر تتود وتمشي
لم لم تدن شوس الملوك له وقد
واستنقذ البيت المقدس عنوة
وأريتهم يوم التقى الجمعان بالبيد
ورددت دين الله بعد قطوبه
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا
حتى جمعت لمعشر الإسلام بين
وهذه الآيات الأخيرة زاخرة بالمعاني الدينية العزيزة على نفوس المسلمين وأما
الطاراز الأخضر ، الذي كثر ذكره في أشعار الشعراء ، فإشارة إلى تنبؤ أو حلم من
أحلام المسلمين التي أشرنا إليها . وفيه أن شيخا من شيوخهم رأى قبل يوم الفتح
بعشر سنين على رواية ، واثنين وخمسين سنة على رواية أخرى ، كأن إنسانا ذا جهامة
وقف على حائط بجامع دمشق وهو يقول :

ملك الصياصي والصواصي ناصر
وسيفتح البيت المقدس بعدما
وأما العماد الأصفهاني ، وكان يصاحب السلطان في هذه الغزوة ، فقد أكثر من نظم
الشعر في يوم القدس . وما هنا به السلطان قصيدة له بدأها بالغزل ، ثم قال (٣) :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
جنودك أملاك السماء وظنهم
فلا يستحق القدس غيرك في الوري

وأشرف من أضفى وأكرم من أمسى
ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
ينير بما يولي ليالينا الدهسا
عدانك جن الأرض في الفتك لا الإنسا
فأنت الذي من دونهم فتح القدس

(١) بهر القمر بهارا : غلب ضوءه ضوء السكواكب .

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ١٠٤

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ١٠١ .

ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وعادت ببیت الله أحكام دينه
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
جری بالذى تهوى القضاء وظهرت
وأما الغزل الذى قدمه العباد بين يدي هذه القصيدة - وذلك على غير مألوف الشعراء الذى رأيناهم لا يبدون بالغزل فى تهنئة صلاح الدين بفتح المقدس ، فمنه قوله :

حسبت حبيبي قاسى القلب وحده
أما لكم يا مالكي الرق رقة
وإن سرورى كنت أسمع حسه
وإن نهارى صار ليلا لبعدهم
بكيت على مستودعات قلوبكم
فلا تحبسوا عنى الجميل فإننى
وقلب الذى يهوى بحمل الهوى أقسى
يطيب بها مملوككم منكم نفسا
فقد سررت عنكم ما سمعت له حسا
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمساً
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

وأتى العباد الأصفهاني فى كتابه « البرق الشامى » على ذكر شاعر يقال له « الحكيم أبو الفضل الجلياني » قال إن له قدسيات طوالا ، وقف العباد على بعضها ، ونقل إلينا جزءا منها . قال الجلياني : « لم أزل من أول ماولى الناصر الأمر فى مصر ، أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه وتعالى ، فامتدحته سنة خمس وستين وخمسائة بقصيدة نيفت على مائة بيت - ثم ذكر بعض أبياتها . ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة ، نيفت أيضا على مائة بيت ، منها فى التباشير (١) .

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها
فتسبى فلسطينا وتجي جزائرا
وتعنو لها الأملاك شرقا ومغربا
وأخذ الشاعر يعد قصائده فى مدح السلطان ، ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية

(يريد التي هنا بها السلطان بفتح القدس فأولها) (١) :

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكر
مالي أرى ملك الإفرنج في قفص
والإسبتار إلى الداوية التأموا
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب (٣)
ويا ضحى السبت (٤) مالمقوم قد سبتوا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا
خطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
أهوى إليهم صلاح الدين مفترسا
وأنجز الله للسلطان موعده
وعاين الملك الأبرنس في دمه
رأى مليكا ملوك الأرض تتبعه
هذا المليك الذي بشرى النبي به
أنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت
أعين إسكندر بالخضر وهوله
وصنع ذى العرش إبداع بلا سبب
بيننا سبايا تجلى في دمشق إذا
إزاه زعماء الساحلين معا
يتلوهم صلبوت سيق منتسكا
يسبي فرنجة من أقطارها وله
وبعض أنبائه بالقدس منتدب
براية تخرق الأرض الكبيرة في

فدو البصيرة في الأحداث يعتبر
أين القواضب والعسالة السمر
كأنهم سد يأجوج إذا اشتجروا (٢)
جحافل لم يفت من جمعها بشر
تهودوا أم بكأس الطعن قدسكروا
كمدن أم لقوارجفا بما كفروا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر !
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
ونذره في كفور دينه البطر
فمات حيا وحيا وهو يعتذر
والنجم يخدمه والشمس والقمر
في فتنة البغي للإسلام ينتصر
له الرواة بما لم ينمه أثر
عون من الله يستغنى به الخضر
فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطر ؟
ملك الفرنج مع الأتراك محتجر
مصفيين بجبل القهر قد أسروا
وحوله كل قسيس له زبر
مع المجوس حروب قدحها سعر
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
جمع تقول له الأجسام : لا وزر

(١) الروضتين ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) أسرعوا وراسوا .

(٣) التل : يقصد به تل حطين .

(٤) وهو اليوم التالى لليوم الذى انتصر فيه صلاح الدين في موقعة حطين .

وهذه القدسية العظيمة لا تقل إني نظرنا عن القصائد التي قيلت في يوم الفتح ،
بل إنها تنهل من معينها ، وتنسج على نسجها ، وتصدر عن نفس الروح المعنوى القوى
الذى أحسه المسلمون منذ انتصروا هذا الانتصار الحاسم على الصليبيين .

وكان الرحالة المعروف « بأبى الحسين بن جبير الأندلسى » من أشد المعجبين
بالسلطان صلاح الدين ، وكان كثيرا ما يمدحه ، فانتهاز فرصة انتصاره بالقدس ، ووجه
إليه هذه القصيدة (١) .

أطلت على أفقك الزاهر	سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا	تمدد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم	حكمت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة	فله درك من كاسر
وأمضيت جدك فى غزوهم	فتعسا لجدهم العائر
وأدبر ملكهم بالشآم	وولى كأمسهم الدابر
جنودك بالرعب منصوره	فناجز متى شئت أو صابر
ثارت لدين الهدى فى العدا	فأثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى	فسماك بالملك الناصر
تبیت الملوك على فرشهم	وترفل فى الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجهاد	على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حق من	سيرضيك فى جفئك الساهر
فتحت المقدس من أرضه	فعدت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى	فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى	وأحييت من رسمه الدائر
لكم ذخرك الله هذا الفتوح	من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه	بها لاصطناعك فى الآخر

هكذا اشترك العالم الإسلامي كله في التهنئة بهذا اليوم ، وشارك في السرور به ، والاحتفاء بصاحبه السلطان صلاح الدين الأيوبي . والواقع أن الشعراء مهما جودوا ، وأن السكتاب والخطباء مهما أبدعوا ، فإن الفضل كل الفضل في تجويدهم — كما قلنا — لسيف هذا الرجل ، ولبطولته وبطولة الجند الذين حاربوا معه .. وهكذا يبين الانتصار عما في نفوس المسلمين من فضائل ، كما يبين عما في شعرائهم خاصة من نبوغ .

وندع الشعراء يتغنون هذا الغناء ، ونعود إلى السلطان ، فنرى أنه أخذ يفكر في إتمام عمله ، ولم يبق أمامه يومئذ إلا فتح بقية الحصون ، ففتح منها كما قدمنا حصون : أنطرسوس واللاذقية وصهيون ، وهذه الأخيرة هي باب أنطاكية ، وحصن بكاس على نهر العاصي ، وحصن برزيه الذي يضرب به المثل في بلاد المسلمين والفرنج معا ، وحصن بفراس ، والسكر ، وكوكب ، وشقيف أرنون . وكان الشعراء يتبعونه في كل هذه الفتوح ، ويزدحمون على بابه طمعا في العطاء ، حتى قال في ذلك شاعر بغداد سبط ابن التعاويذي من قصيدة له ^(١)

فلا يضجرك ازدحام الوفود عليك وكثرة ما تبذل
فإنك في زمن ليس فيه جواد سواك ولا مفضل
وقد قل في أهله المنعمون وقد كثر البائس المرمل
وما فيه غيرك من يستباح وما فيه إلاك من يسأل

ولا ننسى أن نقول بعد هذا كله إن القاضي الفاضل كان راعيا أميننا لجماعة الشعراء والأدباء ، والعلماء والفضلاء ، يقرهم إلى السلطان . ويقترح عليه أرزاقهم ، فلا يقطعها عنهم مدة حياتهم ، ولا يشين دولة السلطان أو يعيب تاريخها بمثل هذا القطع .
نضر الله ثرى عبد الرحيم البيهقي ، لقد كانت حياته نعمة من نعم الله على السلطان صلاح الدين ، وكانت آراؤه أثمن ما تملكه دولته من كنوز .

* * *

ثم أتت الحملة الصليبية الثالثة نجدة للفرنج الذين أراحهم السلطان عن البلاد ، فلم تستطع هذه الحملة كما قلنا ، أن تغير شيئا من موقف السلطان ، لأنها عجزت عن استنقاذ

بيت المقدس من يده ، وفي ذلك يقول الشاعر الذي تقدم ذكره ، وهو الحكيم أبو الفضل الجلياني (١) .

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة	قد أقسموا بذراع الرب تدخله
فأ كذبوا كذبهم في وصف ربهم	وصدق الوعد مأمونا محوله
أما رأيت ابن أيوب استقل بما	يعي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد حاروا لفتكته	واستنفروا كل مرهوب تغلغله
لما سبي القدس قالوا كيف نتركها	والرب في حفرة منها تمثله
فكم ملك لهم شق البحار سرى	لينصروا القبر والأقدار تخذله
استصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم	واستكثروا المال والهيجا تنقله
هم الفراش لهيب الحرب تصرعه	وكلما لج صدماء حلّ مقتله
سيف أمام فلسطين يرى أمما	خلف البحار لقد أمهات صيقله
كم قد أعدوا وكم قد فل جمعهم	من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في	جيش العدا فيسبدهم تخيله

ويخيل إلى الإنسان كأنما تحول الشعراء في عهد صلاح الدين في جميع بقاع الشام ومصر إلى أبواق تصيح باسم صلاح الدين وحملائه وانتصاراته على الصليبيين ، وكيف أنهم لا يستطيعون أن يثبثوا لحروبه وجيوشه .

غير أن اجتماع ملوك الفرنج ، ومن ورائهم ملوك الغرب ، قوى شوكتهم في ذلك الوقت - وقد رأينا كيف أنهم عزموا على حصار عكا ، وأن المسلمين في هذه المدينة قد اصطاحت عليهم مصائب شتى : فالعدو في الخارج ، والوباء والجوع والغلاء في الداخل ، والموت يسعى فيهم حثيثا ، وهذه الأخبار السيئة كلها تصل إلى السلطان في مخيمه ؛ فيصيح صيحة يأس كاد ينخلع لها قلبه قائلا :

« اقتلاني ومالكا واقنلا مالكا معي ! »

ويستغرق السلطان في أحزانه ، فلا يجد غير القاضي الفاضل مواسيا له في هذه الأحران .
وسنأتى على بعض الرسائل الفاضلية في هذا المعنى ، عند الكلام على النثر في خدمة
الحروب الصليبية .

ثم تبدأ المفاوضات بين السلطان وبين ريشارد ، وتنتهى بعد عناء إلى صلح الرملة ،
الذى قبله السلطان على خوف مما بقى في يد العدو من بلاد ، قائلًا يومذاك :
« أخاف أن أصالح وما أدرى إيش يكون منى ، فسيقوى هذا العدو ، وقد بقى لهم هذه
البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة « يريد
المسلمين ، قد قعد في رأس قلة « يريد حصن » ، وقال : لا أنزل ويهلك المسلمون .
قال أبو شامة : فهذا كلامه .

وكان كما قال رحمه الله ، لسكنه رأى المصلحة في الصلح ، لسأم العسكر ، وبجواهرتهم
بالمخالفة ، وكان ذلك لمصلحة عليها الله تعالى ، فقد اتفقت وفاته بعد الصلح بقليل ^(١) .
نعم « مات صلاح الدين وخلت الأرض من جبلها الذى كان يمنعها أن تميد ، وأصبح
الإسلام — وقد فقد ناصره — ثا كلا لو حيد ، فهذا أعظم فاقد لأعظم فقيد ^(٢) ،
فرثاه كثير من الشعراء ، وأهمهم العماد الذى ختم كتابه « البرق الشامى ، بقصيدة
طويلة عدتها مثنان واثنان وثلاثون بيتا أولها ^(٣) :

شمل الهدى والمملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية	مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا	مبدولة ولربه طاعاته
أين الذى عننت الفرنج لبأسه	ذلا ومنها أدركت تاراته
فى نصرة الإسلام يسهر دائما	لتطول فى روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد	فمات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محاميا	أبدا إذا ما أسلمته حماته

(١) الروضتين : ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢١٥

(٣) الروضتين : ج ٢ ص ٢١٥

الدين بعد أبي المظفر يوسف
ما كنت أعلم أن طودا شاخا
من لليتامى والأرامل راحم
من للشغور وقد عداها حفظه
يا وحشة الإسلام حين تمكنت
ما كان أسرع عصره لما انقضى
وقف الملوك على انتظار ركوبه
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه

ومن رثوا السلطان كذلك شاعر يقال له : « شمس الخلافة » قال (١)

هو الدهر فاعلم ما على الدهر من عتب
وإن هو أعطى أو كسا متكلفا
فلا تأمن الموت شيئا ويا فعا
ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
إلى الناصر الملك الذي ملئت به
كريم أناه الموت ضيفا فلم يكن
ولو خاب منه قبل ذلك سائل

أجل مات صلاح الدين ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين
درهما ناصرية ، ودينارا واحدا ذهبيا سوريا ، ولم يخلف ملسكا ولا دارا ولا عقارا
ولا بستانا ولا مزرعة .

ودفن بقلعة دمشق ، ورأى القاضي الفاضل أن يدفن معه سيفه الذي كان معه في
الجهاد قائلا :

« هذا يتوكلأ عليه إلى الجنة ، » (٢) !

(١) شفاء القلوب « مخطوط » : ص ٥٠ ب

(٢) الروضتين : ج ٢ ص ٢١٥ .

الفصل السابع

المرحلة الرابعة من مراحل الحروب الصليبية

ومصر هي مركز الجاذبية الصليبية في هذه المرحلة الأخيرة من مراحل هذه الحروب الدينية ، ما دامت هي البلد الذي منح بني أيوب فترة طويلة ، وفرصة نادرة في الانتصار على الفرنج ، وقد استقر رأى هؤلاء الفرنج على إضعاف المسلمين في هذا الحصن الحصين ، الذي هو قلب العالم الإسلامي في ذلك الحين ، ألا وهو مصر . ومن ثم رأينا أنهم وجهوا إليها ثلاث حملات صليبية .

أولها : الحملة التي قادها جان دي بريين Jean de Brienne في عهد الملك العادل أبي بكر سيف الدين أخى صلاح الدين .

والثانية : الحملة التي قادها الإمبراطور فردريك الثاني ، في عهد الملك الكامل ابن الملك العادل أبي بكر سيف الدين بن أيوب .

والثالثة : الحملة التي كانت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وذلك في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولقد كان النصر في هذه المواقع كلها حليف المصريين ، الذين كلفوا الصليبيين خسائر فادحة ، وأعجزوهم عن الاحتفاظ بالأماكن المقدسة ، كما أعجزوهم عن الاحتفاظ بإماراتهم اللاتينية ، التي أسسوها من أجل هذه الأماكن المقدسة ، وأهم من ذلك كله أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على مصر .

ثم أتى دور سلاطين الأتراك الذين لم يبق لهم من عبء الحروب الصليبية كلها إلا الجزء اليسير ، فتمكن بيبرس من أخذ يافا وأنطاكية وأرسوف . ثم أفلح قلاوون من بعده في أخذ اللاذقية ، وعكا ، وطرابلس . وبذلك تم لسلاطين الأتراك طرد آخر صليبي من البلاد الساحلية . بل بذلك ختمت قصة هذه الحروب الدينية ، وحالت الأحوال السياسية إلى ما كانت عليه قبل أن يلقي البابا أربان الثاني خطبته التي أشعلت نار هذه الحرب . .

مات السلطان صلاح الدين ، واختص كل واحد من أولاده بجزء من دولته ، فكان لولده الأفضل ، دمشق ، وكان لولده الظاهر « حلب » ، وكان لولده العزيز عثمان « مصر » ، ثم كان لعمهم العادل أبي بكر « البلاد الشرقية » ، وتشمل الجزيرة ، والرها ، وميافارقين ، وديار بكر . ولم يكتف العادل بذلك حتى ضم إليه ملك السرك والشوبك . وأما المدن الشامية الباقية ، فقسمت على أبناء عمومة العزيز ، فكان للنصور محمد ابن تقي الدين عمر « حماة » ، وللجهاهد شيركوه — حفيد أسد الدين شيركوه — « حمص » ، ولأبناء طغتكين سيف الإسلام أخى صلاح الدين « الين » الخ .

ولم يكد السلطان يفرغ من أمر هذه الدنيا حتى دب الخلاف بين أبنائه من بعده ، وأخذ بعضهم يحارب بعضا ، وكاد هذا النزاع أن يؤثر في ملكهم ، ويضعف سلطانهم ، ويقتل من هيبته أمام عدوهم ، لولا أن الله كان يمن عليهم بنسيان هذه الأحقاد حال ظهور الخطر الصليبي على البلاد^(١) .

أما هذا الخطر الصليبي ، فقد عاد إلى الظهور منذ خرق الفرنج الهدنة التي عقدوها مع الملك العادل سنة ست مائة ، وفكروا في نفس هذه السنة في استرداد بيت المقدس ، ومهدوا لذلك بالاستيلاء على القسطنطينية نفسها ، ثم تجمعوا في عكا من كل جهة ، « فخرج العادل من دمشق ، وكتب إلى سائر الممالك يطلب النجدة ، فنزل قريبا من جبل الطور ، على مسافة يسيرة من عكا ، وعسكر الفرنج ببرج عكا ، وأسروا من كان هناك ، وسبوا ونهبوا ، وانقضت هذه السنة والأمر على ذلك »^(٢) .

ومضى أربعة عشر عاما على هذه الحال ، وغارات الفرنج لا تقف ، ودفاع العادل وأتباعه من الملوك لا يني ، حتى أيقن الفرنج في أنفسهم أنه لا أمل في نجاحهم إلا بالاستيلاء على مصر نفسها ؛ فاجتمع رأيهم على الرحيل من عكا إلى دمياط « وكان إذ ذاك على النيل برج منيع في غاية القوة والامتناع ، فيه سلاسل من حديد ، عظام القدر والغلظ ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح من عبور أرض مصر ، وتمتد هذه السلاسل في برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة . ويعرف اليوم مكانهما في دمياط « بين البرجين »^(٣) .

(١) السلوك : الجزء الأول — القسم الأول ص ١٦٣ ط زيادة .

(٢) السلوك : قسم أول ص ١٨٨ ط زيادة .

وألح الفرنج في مقاتلة أهل البرج ، فلم يظفروا بشيء ، وتمادى الأمر على ذلك أربعة أشهر ، والمملك العادل في أثناء ذلك يشتغل بتجهيز عسكر الشام إلى دمياط ، حتى صار عند الكامل من الجند ما لا يحصى عدده .

وبينا العادل مهتم بالفرنج على هذا النحو ، إذ ورد عليه الخبر بأن جنود الجرمان بقيادة چان دى برين من الجرمان أخذوا برج السلسلة . فتسأوه العادل تأوها شديدا ، ودق بيده على صدره أسفا وحزنا ، ومرض من ساعته ، واشتد به المرض حتى مات في سابع جمادى الآخرة ، فسكتم أصحابه موته ، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى ، فحمل في محفة وعنده خادم ، والطبيب راكب بجانب المحفة يصلح الأشرطة ، ويحملها إلى الخادم ليشر بها السلطان ، ويوهم الناس بذلك أنه حي .

واستقل الملك الكامل بعد أبيه العادل بأمر الفرنج ، وكانت المنافسة على أشدها بينه وبين أقاربه على الملك ، فلم يستطع في أول الأمر أن يتفرغ للجهاد ، وفسكر في أن يعرض على أعدائه من الفرنج أن يرد إليهم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية ، في مقابل جلائهم الناجز عن دمياط .

ولكن نكد الطالع الذى لازم الفرنج في ذلك الوقت ، قضى عليهم أن يرفضوا مثل هذا العرض ، وكان رسول البابا بلاجيوس Belagius عاملا مهما في هذا الرفض ، ومن ثم عاد الفريقان إلى القتال ، وحاصر الفرنج دمياط عاما ونصف عام ، وأهلها صابرون صبر الأبطال ، على المرض وقلة الأقوات وغلاء الأسعار ، وقد حيل بينهم وبين سلطانهم الملك الكامل ، فلا تصل إليه أخبارهم إلا بحيلة رجل من رجاله يسمى (شمائل) ، وكان يخاطر بنفسه ، ويسبح في النيل ، فيدخل إلى مدينة دمياط ، ويأتى السلطان بأخبار أهلها ، فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها ، ووعدهم بقرب وصول النجدة (١) .

وهكذا جرى القضاء بأخذ دمياط ، ووضع الفرنج السيف في أهلها ، فلم يعرف عدد من قتل منهم لكثرتهم ، وطمع الفرنج بعد ذلك في أخذ القاهرة ، وزينوا لأنفسهم أن يملسكوا الديار المصرية ، ولكن غاب عن قائدهم چان دى برين وجنوده الجرمان ، أنهم

ارتكبوا يومئذ خطأ حربيا كبيرا ، باختيارهم طريق دمياط ، وتركهم الطريق الطبيعي لفتح مصر ، وهو الطريق الذى سلكه الفاتحون من قبل ، من لدن قبيز والإسكندر الأكبر إلى عمرو بن العاص .

وسرعان ما أتت النجيدات إلى الملك الكامل ، وكان أولها قدوما نجدة الملك الأشرف موسى أخى السلطان ، وآخرها وصولا نجدة الملك المعظم عيسى ، وفيما بينهما نجيدات الملوك الآخرين . وتقدم الصليبيون إلى الجنوب ، فلقيتهم جيوش الإسلام عند المنصورة ، وحالت دون تقدمهم بعد ذلك ، وكان الوقت وقت فيضان النيل ، فقطع المسلمون السدود ، فأحاط ماء النيل بالعدو من كل جهة ، وحاولوا العودة إلى دمياط ، فما استطاعوا ، وأيقن الجميع بالهزيمة عن آخرهم ، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة ، وأن المسلمين فسكروا فى أن يفنواهم ، ويقضوا عليهم قضاء تاما ، لولا أن منعهم من ذلك السلطان الملك الكامل ، الذى رأى بحكمته وبعد نظره أن يمنحهم حياتهم ، على أن يغادروا دمياط من فورهم ، فذلك خير لهم وللملك الكامل نفسه ، من أن يؤدى قتلهم بأيدي المسلمين إلى قيام حملة صليبية أخرى ، ربما كانت أشد وأنكى .

وهكذا تمت خيبة هذه الحملة الصليبية ، وضاعت من أصحابها أئمن فرصة ذهبية ، وهى الفرصة التى عرض عليهم فيها الملك الكامل أخذ القدس ، والجلاء عن دمياط . ثم قدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط لبسملوها إلى المسلمين . فلما تسلمها المسلمون ، قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة — يقال إنها ألف مركب — فعد تأخيرهم إلى ما بعد تسلمها صنعا جميلا من الله سبحانه وتعالى (١) .

وكان الذى أعد هذه الحملة التى وصلت إلى دمياط بعد إفضاء شروط الصلح ، هو الإمبراطور فردريك الثانى ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة .

وكان أجل الهدنة التى بين المسلمين والصليبيين ثمانى سنوات ، وما كاد هذا الأجل ينتهى ، حتى رجع الفرنج يلحون على الملك الكامل أن يبذل لهم ما كان قد وعدهم به من قبل ، وهو بلاد الساحل كلها بما فى ذلك القدس . ووصل الإمبراطور فردريك الثانى إلى عكا عام ٦٢٥ هـ وبعث إلى الملك الكامل يقول له : « كنتم بذلتهم لنا بى — فى زمن

(١) السلوك : قسم أول ، جزء أول ، ص ٣٠٩

حصار دمياط - الساحل كله وإطلاق الحقوق بالأسكندرية . وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم . ومن نائي ؟ . إن هو إلا أقل غلباني ، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتوه له ، (١) .

فتعجب الملك الكامل من ذلك ، وآثر أن يرأسه ويلاطفه ، وذلك لما كان بينه وبين هذا الامبراطور من الود ، الذي أحاطه المؤرخون بالأخبار الكثيرة ، والقصاص العجيبة .

والحق أنه كان بين الرجلين تشابه عظيم ، من حيث العقل والخلق معا ، إذ كان الملك الكامل أوسع ملوك بني أيوب حرية في الفكر ، وأكبرهم حظا من مرونة الخلق ، وكان الإمبراطور فردريك مشهورا بأرائه الدينية الحرة ، وذلك منذ طعن على البابا والسكنيسة ، وعاب على رجال الدين انغماسهم في ملاذ الدنيا ، وانحرافهم عن الحياة الحثيثة التي كان يحياها المسيح .

وكان فردريك قد وعد البابا أنه يقوم له بحملة صليبية ، ولكنه لم يتيسر له أن يبر بوعده في أول الأمر ، فلما عاد البابا يحرك فيه هذا العزم ، خرج من بلاده متظاهرا بالتوجه إلى فلسطين ، غير أنه عاد بعد أيام قليلة بحجة أنه مريض ، فغضب عليه البابا ، وطرده من رحمة الكنيسة ، وصب عليه اللعنة ، ووصفه باللصوصية والقرصنة .

ثم حدث أن تزوج الإمبراطور فردريك من ابنة چان دي بريين وهو الوارث الاسمي لمملكة بيت المقدس ، وكان أمراء الصليبيين يتوارثون هذا اللقب ، حتى بعد أن استرد المسلمون بيت المقدس .

وخرج الإمبراطور فعلا إلى فلسطين في عشرة آلاف من المقاتلين . وكان الملك الكامل إذ ذاك مشغولا بالخلاف بينه وبين أخيه المعظم عيسى ، فرأى أن يعقد هدنة بينه وبين فردريك ، أمدها عشر سنين ، ومن شروطها أن ينزل السلطان لفردريك عن مدينة بيت المقدس ، على أن تظل الأماكن الإسلامية المقدسة ملكا للمسلمين ، وفي مقابل ذلك يتعهد الإمبراطور بأنه يذود عن السلطان كل صليبي يحاول الاعتداء على بلاده ، ولا يمكن الحكام الصليبيين في أنطاكية وطرابلس وطرسوس من أن يتلقوا مددا من الجند من ذلك اليوم .

(١) السلوك : قسم أول ، جزء أول ، ص ٢٢٨ .

والحق أن هذه المعاهدة كانت كسبا عظيما للملك الكامل ، ولكنها كانت مع ذلك موضع سخط من المسلمين والصليبيين على السواء ؛ فأما المسلمون فقد اعتبروا تسليم القدس ولو بعد تخريبه عجزا من الملك الكامل ، فقال لهم الملك :

إننا لم نسمح للفرنج إلا بكنايس وآدر^(١) خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع^(٢) .

وأما أمراء الصليبيين فرأوا فى هذا الصلح أنه قطع الصلة بينهم وبين إخوانهم الذين لن يمدوهم بشئ ، يحتاجون اليه .

ودخل الأمبراطور القدس ، وأبى بطريق المدينة أن يلبسه تاج أورشليم ، فلم يعبأ الأمبراطور الساخر بهذا التقليد . وزعمت الرواية الإسلامية ، أنه زار المسجد الأقصى وفيه الصخرة المقدسة ، وصعد درج المنبر ، فرأى قسيسا بيده الإنجيل ، فزجره وأنكر مجيئه ، « وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ، ليأخذن ما فيه عيناه ، وقال : « إنما نحن بمالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس ، على سبيل الإنعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره » . فأنصت القس وهو يرعد خوفا منه .

ثم نزل الملك — يريد فردريك — ، وأمر قاضى نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة ، فلم يؤذنوا البتة ، فلما أصبح قال الملك للقاضى : « لم لم يؤذن المؤذنون على المنابر ؟ » فقال له القاضى : « منعهم المملوك إعظاما للملك ، واحتراما له » . فقال الأمبراطور : « أخطأت فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع آذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل » .

وفى رواية أخرى قوله : « تغيرون شرعكم وذمتكم من أجلى ؟ فلو كنتم عندى فى بلادى ، هل كنتم أبطل الناقوس من أجلكم ؟ الله الله لا تفعلوا ؛ هذا أول ما تنقصون عندنا »^(٣) .

* * *

(١) آدر جمع فلة ، ودور جمع كثرة

(٢) السلوك جزء أول قسم أول ص ٤٣ .

(٣) عقد الجمان للعبى : ج ٢ قسم أول ص ٨٢ — ٨٣ . نقلا عن مرآة الزمان لبسط ابن الجوزى .

على أنه منذ ذلك اليوم ، والفرنج في القدس يأخذون في عمارة أسواره ، ولا يستحيون من أنهم إنما يخالفون بهذا العمل نصا هام من نصوص المعاهدة التي بينهم وبين الملك الكامل ، فلما بلغ ذلك أحد ملوك بني أيوب ؛ وهو الملك الناصر داوود بن أخي الملك الكامل ، ذهب بنفسه إلى القدس ، ورماه بالمجانيق ، وهدم البرج الذي بناه الفرنج . ثم في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، صبح عزم الصليبيين على أن يبذلوا آخر جهد لهم ، وأن يضجوا بآخر سهم من سهامهم ، أو أن يلعبوا بآخر ورقة في أيديهم ، محاولين أن يستولوا في هذه المرة على مصر ، ولهذا الغاية قاموا بتنظيم الحملة الصليبية السابعة ، بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وهو رجل معروف عندهم بالورع والتقوى ، حتى لقد أطلقوا عليه اسم « القديس لويس » . وكان سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضا وقت مجيء لويس ، فلم يقدر على الحركة ، فأتى الملك لويس دمياط ، وأخذها بغير عناء ، وتقهقر المصريون أمامه إلى المنصورة ، ولكن لويس وقع يومئذ في الخطأ الذي وقع فيه جان دي بريين ، وذلك باختياره طريق النيل ، وإن كان قد وصل قبل وقت فيضانه ، فقدر له النصر أول الأمر ، ولكنه باء بالخيبة والإخفاق حين أتى وقت الفيضان . وفي الساعة التي ملك فيها لويس دمياط كتب إلى السلطان كتابا هذا نصه :

أما بعد ، فإنه لم يخف عنك أني أمين الأمة العيسوية ، كما أني أقول إنك أمين الأمة المحمدية ؛ وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء والبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ؛ وقد أبديت لك مافيه الكفاية ، وبذلت لك النصيح إلى النهاية ، فلو حلفت لي بكل الإيمان ، وأدخلت عليّ [مع^(١)] القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ماردتني ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك في أعز البقاع عليك ؛ فإن كانت البلاد لي ، فيا هدية حصلت في يدي ؛ وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ ، فيدك العليا ممتدة إلى . وقد عرفتكم وحذرتكم من عساكر قد حضرت في طاعتي ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك .

(١) زيادة تستقيم بها الجملة .

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرىء عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع ، فسكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد ، كاتب الإنشاء ، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين :

« أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ؛ فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منّا قرن إلا جدّدناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه . فلو رأيت عيناك — أيها المغرور — حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وإخرابتنا منكم ديار الأواخر والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالنسدم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهناك تسوء^(١) بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

فاذا قرأت كتابي هذا ، فسكن فيه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ؛ وكن على آخر سورة ص : « ولتعلمن نبأه بعد حين » . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين »^(٢) .

وقد انزعج الناس بدمياط ، وأخلوا هذه المدينة ، وهربوا بأموالهم ونسائهم وأطفالهم إلى القاهرة ، فلما علم السلطان بما فعله أهل دمياط ، أمر بشنق شجعانهم الذين خرجوا من المدينة بغير إذن منه ، وعنف الباقين تعنيفا شديدا ، وقال لهم : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج ، ثم أمر السلطان فحملوه في محفة إلى المنصورة ، والسل والناصر يا كلان جسده ، ويهدان قوته ، حتى مات ، فأخفت زوجته « شجرة الدر » موته ، إلى أن قدم إليها ابنه تورانشاه .

ومع ذلك فقد علم الفرنج بموت السلطان ، فخرجوا من دمياط ونزلوا « بفارسكور » ، ومراكبهم في النيل سائرة في محاذاتهم ، فعلم أهل القاهرة بوصولهم ، فقرىء عليهم من فوق منبر الجامع بها كتاب بليغ ، بقلم البهاء زهير كذلك ، فيه قوله تعالى : « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . فحصل عند قراءته من النحيب والبكاء ، وارتفاع الأصوات بالضجيج ، ما لا يوصف .

(١) في الأصل : تسيء .

(٢) السلوك : ج أول قسم ثان ص ٣٤٧ .

وارتجت القاهرة ومصر ، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم ، واشتد كربهم من تمكن الفرنج وقوتهم ، مع موت السلطان (١) .

واشتد حصار الفرنج للمنصورة ، ووصل أخو الملك لويس - واسمه كونت أوف أرتوا count of artois ومعه جنده - إلى خيمة السلطان تورانشاه ، إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التي تعرف بالبحرية ، يريد الممالك البحرية ، وفيهم ركن الدين بيمبرس البندقدري ، فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر ، وقتلوا منهم عددا عظيما ، وفيهم أخو الملك لويس ، الذي قلنا أنه اقتحم خيمة السلطان ، ولولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعدية الجسر . وكانت المعركة بين أزقة المنصورة ، فانزمو ، وحال النيل بين الفريقين . كل ذلك كان في سنة ٦٤٦ هـ .

ثم طلب الملك لويس الأمان ، فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحى ، وأخذوا إلى المنصورة ، فقيد الملك لويس نفسه بقيد من حديد ، واعتقل في دار القاضي نحر الدين بن لقمان ، ووكل بحفظه الطواشي صبيح المعظمى ، وأجرى عليه راتبا في كل يوم .

ورحل السلطان تورانشاه بن الصالح نجم الدين من المنصورة إلى فارسكور ، ومن هناك كتب بخطه كتابا إلى نائبه بدمشق يقول له : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . وما النصر إلا من عند الله . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . وأما بنعمة ربك فحدث . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . . . الخ (١) .

وانتهت الدولة الأيوبية ، بعد ما أبليت هذا البلاء كله في ميدان الحروب الصليبية ، وأعقبها سلاطين الأتراك ، فقصوا على البقية الباقية من أمراء الصليب .

هكذا أسدل الستار على هذه الحروب التي أريقَت فيها دماء المسلمين والمسيحيين باسم الدين ، والتي شغلت بال الجميع في غضون العصور الوسطى ، فلم يكن حديث للقوم إلا هذه الحروب ، ولا قامت حكومة هنا وهناك إلا لهذه الغاية التي وضعوها نصب أعينهم ؛ وهي استخلاص البيت المقدس من أيدي الصليبيين ، ورده إلى المسلمين . واستمرت هذه البقعة من أرض الله يتجاذبها الفريقان حيناً بعد حين ، إلى أن استقرت في اليد التي كانت تملكها أصلاً . وعاد الصليبيون إلى بلادهم ، واستقر المسلمون في أوطانهم ، ولمكن بعد أن صهرت نار المحنة هؤلاء وهؤلاء على السواء .

الفصل الثامن

الشعر في خدمة خلفاء صلاح الدين

أخذ الفرنج برج السلسلة ، وعلم العادل بذلك ، فرض لساعته ، ثم مات بسبب هذه الحادثة المؤلمة .

وتولى ابنه الكامل حكم مصر ، وما كاد يستقر له الأمر فيها بعد لآي ، حتى طفق يستنجد بإخوته من ملوك الأيوبية ، لاستنقاذ دمياط من الفرنج .

وكان مما كتبه الكامل لأخيه الملك الأشرف موسى ، صاحب مملكة خلاط ، وكان يلقب فيها « بشاه ارمن » ، يستحشه على سرعة الحضور ، قوله : (١)

يا مسعدى إن كنت حقاً مسعفاً فانهض بغير تلبث وتوقف
واحشث قلوبك مرقلاً أو موجفاً بتجشم في سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنح إلا على باب الملك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له متوقع لقدمه متشوف
وإذا وصلت إلى حمـاه فقل له عني بحسن توسل وتلطف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ما بين كل مهـند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه يوم القيامة في عراض الموقف (٢)

والملك العادل في انتظار الرد من إخوته : والفرنـج يحاصرون ثغر دمياط ، ويضيقون الخناق على أهلها وعسكرها ، وإذا بسهم شباب يلقي بين يدي الملك الكامل ، وفيه رسالة من الأمير جمال الدين السكناي من أهل دمياط ، يقول فيها : — (٣)

يا مالكي دمياط ثغر هدمت شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقربك من أزكى السلام تحية كالمسك طاب دقيقه وجليله

(١) السلوك : جزء أول ، قسم أول ، ص ١٩٧ — ط زيادة .

(٢) في الأصل (بل في القيامة) .

(٣) السلوك : القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ١٩٩ .

ويقول عن بعد وإنك سامع
 يأبى الملك الذى ما إن يرى
 هذا كتاب موضح من حالتي
 أشكو إليك عدو سوء أهدقت
 فالبر قد منعت إليه طريقه
 فخصوعه باد على أبراجه
 ولو استطاع لأمَّ بابك لائذا
 فاحرس حماك بعزيمة تشفى بها
 فالله أعطاك الكثير بفضلته
 فالعذر فى نصر الإله ودينه
 والشغل ناظره إليك محقق
 ولئن قعدت عن القيام بنصره
 ووهت قوى القرآن فيه ورفعت
 وعلا صدى الناقوس فى أرجائه
 هذا وحقق وصف صورة حاله
 وكفأك يا بن الأكرمين بأنه
 حقق رجاء فيك يا من لم يخب
 واذخر ليوم البعث فعلا صالحا

حتى كأنك جاره ونزيله
 بين الملوك شبيهه وعديله
 ما ليس يمكنى لديك أقوله
 بجميعه فرسانه وخيوله
 والبحر عز لنصره أسطوله
 وحنينه وبكاؤه وعويله
 لكنه سُدَّت عليه سبيله
 داءً لمثلك يرتجى تعليله
 ورضاه من هذا الكثير قليله
 ما ساغ عند المسلمين قبوله
 ما إن يمل من الدموع هموله
 جفت نضارته وبان ذبوله
 صلبانه وتلى به إنجيله
 وخفى على سمع الورى تهليله
 حقا وجملة وذا تفصيله
 أضحى عليك من الورى تعويله
 أبدا لراجى جوده تأميله
 الله ضامن أجره وكفيله

تلك رسالة من أهل دمياط ، بعث بها أمير من أمراءهم وهو محصور معهم فى ذلك
 الشغل . وهى كما نرى رسالة بسيطة ، وليس لأسلوبها حظ كبير من الجمال أو الجزالة ،
 ولكنها مع ذلك أثرت فى نفس الملك تأثيرا بليغا ، فما كاد ينتهى من قراءتها حتى أمر
 فى مصر والقاهرة بالنفير العام للجهاد .

وكيف لا يفعل ذلك ، وأهل هذا الشغل الحزين يقولون له على لسان الأمير
 جمال الدين :

وكفأك يا بن الأكرمين بأنه
 أضحى عليك من الورى تعويله

فأذخر ليوم البعث فعلا صالحا الله ضامن أجره وكفيله
كل ذلك والفرنج يزداد تمسكهم من الشجر ، وتقوى نفوسهم بكثرة من يقدمون
إليهم من البحر . وما زال أمرهم يعلو ، وخطرهم يزداد ، حتى كان يوم طلبوا فيه
موافقة الملك الكامل على أن يسلمهم دمياط بغير عوض .

فأخذ الكامل يمهلهم ويرأوهم ، حتى يتمكن من فتح السدود التي على النيل ، فلما
فتحها أحاط الماء بالفرنج من جميع جهاتهم ، وأيقنوا أنهم مقتولون بأيدي المسلمين
لا محالة ، ففت ذلك في عضدهم ، وعظمت نكاية المسلمين بهم ، وطلبوا الصلح من
فورهم ، فأجيبوا إليه ، ورحلوا إلى بلادهم يحمدون الله على سلامتهم .

وجلس الملك الكامل محمد وإخوته بعد رحيل الفرنج مجلس أنس كبير بمدينة
المنصورة ؛ فأمر الملك الأشرف موسى جارية له يقال لها « ست الفخر » ، فغنت
على عودها (١) :

ولما طغى فرعون عكا ببغيه وجاء إلى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا فأغرقهم في اليم بعضا على بعض
فطرب الأشرف ، وقال لها : « كررى » ، فشق ذلك على الملك الكامل ، وأمرها
فسكتت ، وقال لجاريته : « غنى أنت » .

فغنت على العود :

أيأهل دين الكفر قوموا لتنظروا لما قد جرى في وقتنا وتجددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وقومه وموسى جميعا ينصرون محمدا
فطرب الملك الكامل ، وأمر لها بخمس مئة دينار ، ولجارية أخيه الأشرف موسى
بخمس مئة دينار مثلها .

وكان قاضى غزة ، وهو الإمام الأجل هبة الله بن محاسن ، حاضر هذا المجلس ،
فأنشد يومئذ : (٢)

هنيئا فإن السعد راح مخلدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

(١) ولا شك أن التورية في هذا البيت ظاهرة ، إذا علمت أن اسم الملك الكامل (محمد) واسم الملك المعظم
(عيسى) واسم الملك الأشرف (موسى) .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٤٢ وأنظر السلوك جزء أول قسم أول ص ٢١٠ .

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا مينا وإنعاما وعزا مخلدا
سهل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغا البحر الخضم بأهله الطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو مجدل ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحزبه وموسى جميعا ينصرون محمدا

على أن صاحب النجوم الزاهرة لا ينسب الأبيات السابقة إلى القاضي الأجل
هبة الله بن محاسن قاضي غزة ، بل إلى راجح بن إسماعيل الأسدي ، المعروف بالحلي ،
شاعر الملك الظاهر بجلب .

وكان من الشعراء الذين بعثوا بقصائدهم إلى الملوك من بني أيوب في مخيمهم
بالمنصورة ، شاعر يقال له شرف الدين ابن عنين ^(١) وقصيدته هذه جزلة ، وهي في
رأينا من عيون الشعر العربي كله في باب الحماسة العربية ، ومنها قوله :

(١) وهو شاعر حاد اللسان ، هجاب شعره كثيرا من السلاطين والأمراء ، ومنهم صلاح الدين الأيوبي بقوله :

« النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٣ »

سلطاننا أعرج وكاتبه أعمش والوزير منجذب
فنفاه السلطان إلى الهند ، فأرسل إليه يعتذر « ص ١٦ شفاء القلوب » ثم عاد إلى المهجاء ، فنفاه السلطان
إلى اليمن ، فاتصل بسيف الإسلام أخى السلطان ، وجعل له أموالا عمل بها متجرا ، وعاد إلى مصر في عهد
الملك العزيز بن صلاح الدين ، فأخذ منه زكاة ماله على ربح التجارة ، فقال ابن عنين :

ما كل من يتسمى بالعزيز له أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في مقالهما فذاك يعطى وهذا يأخذ الصدقه
ثم هجا ابن عنين كذلك الملك العادل بقوله :

إن سلطانتا الذى نرتجيه واسع المال ضيق الإنفاق
هو سيف كما يقال ولكن قاطع للرسم والأرزاق
« شفاء القلوب ص ٥٥ ب » ولكنه عاد فحسنت صلته بالملك العادل وأخذ في مدحه والتقرب إليه ،
ومن ذلك قصيدته التي أولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو ساعحوني بالكرى
« شفاء القلوب ص ٦٣ » وحسنت صلته كذلك بأبناء الملك العادل ، فقد رثى منهم المعظم بقوله :
يا دهر ويحك ما عدا مما بدا أرسلت سهم الحادثات فأقصدا

إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
وعزما وإن كانوا قد اختلفوا سنا
جموع كأن الموج كان لهم سفنا
إلينا سراعا بالجهاد وأرقلنا
بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
وكيف ينام الليل من عدم الأمانا
طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
فألقوا بأيديهم إلينا فأحسننا
نورثنا من صيد آبائنا الابنا
تعلّم غمر القوم منا بها الطعنا
لما لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم قر ما طلبنا له كنا
ينال وحلو العيش من مره يُجنى
أبي عزمه أن يستقر بنا مغنى
جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
إمام يرى حسن الشنا المنعم الأسنى
طوال المدى يفتى الزمان ولا تفتى
مواقعها منا فإن عاودوا عدنا

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا
غداة التقينا دون دمياط جحفا
قد اجتمعوا رأيا وديننا وهمة
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت
وأطعمهم فينا غرور فأرقلوا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرنا
وما برح الإحسان منا سجية
وقد جربونا قبلها في وقائع
أسود وغنى لولا وقائع سمرنا
وكم يوم حر ما وقينا هجير
فإن نعيم الملك في وسطه الشقا
يسير بنا من آل أيوب ماجد
كريم النشا عار عن العار باسل
سرى نحو دمياط بكل سميذع
مآثر مجد خدرتها^(١) سيوفه
وقد عرفت أسيافنا ورقابهم

قد كان في ذات الإله مجردا

أغمدت سيفها مرهفا شفراته

« شفاء القلوب ٧٧ ب » .

بل من أجل المعظم أيضا هجا ابن عنين أخاه الأشرف حين كانت هناك خصومة بين الأخوين فقال :

وكنا نرجى بعد عيسى محمدا

لينقذنا من شدة الضر والبلوى

فأوقعنا في تبه موسى كما ترى

حيارى فلا من لديه ولا سلوى

« شفاء القلوب ٨١ » .

فأمر الأشرف بقطع لسانه ، ثم شفع فيه فهرب . وشعر ابن عنين جزل اللفظ غزير المعنى . وله

ديوان مطبوع .

(١) خدرتها : بمعنى سودتها ، من الخدرة ، وهى السواد والظلمة .

منحناهم منا حياة جديدة فعاشوا بأعناق مقلدة منّا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ولو غا ولسكنا ملكنا فأسجحنّا^(١)
ومصدر الجمال في هذه القصيدة الحماسية، هو الجزالة كما قدمنا. وذلك فرق ما بين
شاعر كابن عنين، وبين الشعراء المصريين، الذين يميلون كثيرا إلى السهولة والرقّة. بل
ذلك أيضا فرق ما بين ابن عنين وبين آخرين من شعراء الشام، كالعماد الأصفهاني ومن
لف لفه، ممن اعتمدوا اعتمادا واضحا على الزينة اللفظية.
ولم يكتف ابن عنين بذلك حتى بعث إلى الملك الكامل بقصيدة أخرى في تهنئة
الملوك الأيوبية، ومنها قوله^(٢):

قسما بما ضمت أباطح مكة وبما حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولاه ما ذل الصليب وأهله في ثغر دمياط وعز المصحف
وكان للملك الأشرف موسى. شاعر من شعراء مصر يختص به، وهو كال الدين
ابن النبيه، أنشد في مدحه قوله^(٣):

للذة العيش والأفراح أوقات فانشر لواء له بالنصر عادات
أمام جيشك أنى سار أربعة فصل ونصر وآراء وآيات
وتحت غيل القنا آساد معركة لها ثبات، وفي الهيجاء وثبات
أهله في سماء من مغافرها لها السكتائب أفلاك وهالات
تهتز أعطافهم يوم الجلال إذا غنت لهم من بنات القين قينات
صفائح هي إن دب المنون بها صحائف كتبت فيها المنيات
إن مس شمس الضحى من لمعها رمد كحلنها بالعجاج الأعوجيات
ومنها:

الويل للروم والإفرنج من ملك له من النصر والتأييد عادات
أين النجاة لسرب الروم من أسد ضار له من رماح الخط رايات

(١) السلوك، قسم أول، جزء أول: ص ٢١١. وانظر شفاء القلوب: ص ٢٤

(٢) المصدر المتقدم: ص ٢١٢.

(٣) راجع ديوان ابن النبيه طبعة عبد الله باشا فكرى.

دمياط طور ونار الحرب موقدة وأنت موسى وهذا اليوم ميعات
ولا يخفى عليك ما في هذه الآيات الأخيرة من شتى أنواع البديع كالتورية
والاقتباس ، ومراعاة النظير الخ . ولنمض في هذه القصيدة فمنها قوله :

ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ولا تخف ما حبال القوم حيات
طأهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم فإنهم لبغاث الطير أقوات
أنت الصباح فزق ليل كفرهم واصبر وربط فللأعمال نيات
زلزل بغاراتك الشعواء دارهم فشيمة التجرد الغر الإغارات
أصبتهم بسهام الرأي من حلب وللمكايد من بعد إصابات
فظهر الله ذاك الثغر من قلع أصابه وانجلت تلك الثنيات

والتورية كذلك ظاهرة في لفظ الثغر ، وهو هنا ثغر دمياط .

والقلح : صفرة في الأسنان ، استعيرت هنا لما كان يصيب الثغر من أذى العدو .
ومن هذه القصيدة أيضا قوله :

قتلا وسبيا وأسرا وانتهاج ثرى لله كم حسنت تلك الإساءات
شنتها غارة كالنار محرقة للكفر وهي على الإسلام جنات
لله من ثغر دمياط وبرزخها فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانحسرت بنصرة الدين والدنيا غمامات
يوم على الروم ينشئ ريحه سحبا أمطارهن مصيبات مصيبات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمها ليث له في جيوش الترك هجمات
فللرماح كُلاههم أو صدورهم وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم والموج ترقصه تلك المسرات
تفاملوا أن عيسى نصره لهم فقلت بينهما فرق وأشتات
هذا تموت به أحياءكم أبدا وذاك تحيا به في الأرض أموات
ثق يا أبا الفتح ، بالفتح المبين فلم تنسب لغير أبيهن الفتوحات
الله أكبر أن تسمى مزامرهم تتلى وتنسى من القرآن آيات

وأن يخور على القربان عجلهم جهرًا ويخفي أذان أو تلاوات
ما كل من طلب العلياء أدركها ووافقت سعيه فيها سعادات

فانظر إلى هذه الأنشودة الخالدة من أناشيد النصر، التي نظمها شاعر ولد بمصر، ثم أسعده الحظ فلحق بخدمة ملك من ملوك بني أيوب، كان له فضل في كسب الموقعة التي انهزم فيها الصليبيون، ففرح لهنيمتهم المسلمون هذا الفرح العظيم، وراح شعراؤهم يسجلون هذا الفرح بطريقة تخيل إلى القاري أنه إنما يشهد موكبًا صاحبًا من مواكب الشعب، وفيه الجند يهللون ويكبرون ويغنون وترنمون، ويقبل بعضهم على بعض مهتئين.

ثم انظر إلى هذا الشاعر الثاني «البهاء زهير»، وقد بعث بقصيدة له من الصعيد إلى حيث يقيم ملوك بني أيوب، وخص بالمدح منهم الملك الكامل والملك الأشرف، ومنها قوله:

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر	وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت والحمد لله نعمة	تقصّر عنها قدرة الحمد والشكر
يقبل بها بذل النفوس بشارة	ويصغر فيها كل شيء من النثر
ألا فليقل ما شاء من هو قائل	ودونك هذا موضع النظم والنثر
وجدت محلا للمقالة قابلا	فمالك إن قصرت في ذاك من عذر
تميس به الأيام في حلل الصبا	وترفل منه في مطارفه الخضر
أياديه بيض في الورى موسوية	واسكنها تسعى على قدم الخضر
ومن أجله أضحي المقطم شاحنا	ينافس حتى طور سيناء في القدر
فيا ملكا سام الملائك رفعة	من الملاء الأعلى له أطيب الذكر
وما فرحت مصر بهذا الفتح وحدها	لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلو لم يقيم بالله حق جهاده	لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية	لخافت رجال بالمقام وبالبحر
فن مبلغ هذا الهناء بمكة	ويثرب ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله إن سميته	حى بيضة الإسلام من نوبة الدهر

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته
به ارتجعت دمياط قسرا من العدا
ورد على المحراب منها صلاته
وأقسم إن ذاقته بنو الأصفر الكرى
ومنها:

صبرت إلى أن أنزل الله نصره
وليلة غزو للعدو كأنها
سددت سبيل البر والبحر عنهم
أساطيل ليست في أساطير من مضى
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة
وكل جواد لم يكن قط مثله
فلا زلت حتى أيد الله حزبه
فرويت منهم ظامئ البيض والقنا
وجاء ملوك الأرض نحوك خضعا
أتوا ملكا فوق السماء محلته
فمن عليهم بالأمانى تكريما
كفى الله دمياط المكاره إنها
وما طاب ماء النيل إلا لأنه
فله يوم الفتح يوم دخولها
لقد فاق أيام الزمان بأسرها

وانظر إلى هذه الأنشودة الأخرى من أناشيد النصر الخالدة ، التي نظمها شاعر مصر في
عصره « البهاء زهير » بطريقته المصرية المعروفة ، التي يكثر فيها من القسم على عادة
المصريين ، ويجنح فيها إلى اليسر والسهولة على طريقةهم أيضا ، ويصطنع فيها التورية
وحسن التعليل كما في قوله :

وما طاب ماء النيل إلا لأنه يحل محل الريق من ذلك الشجر

ويبالغ في وصف الفخار الذي نال المسلمون في يوم دمياط حتى يقول :
لقد فاق أيام الزمان بأسرها وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر
وهكذا أتاح النصر الذي أحرزه ملوك بني أيوب على الفرنج في يوم دمياط ، فرصة
ثمينة للشعراء ، فقالوا أحسن ما عندهم من الشعر ، بل هكذا أتاح هذه الفرصة
للقائد الأدبي فرصة جميلة ، ليرى بعينه الفرق بين شاعر سوري كابن عنين ، وبين شاعرين
مصريين كابن النبيه والبهاء زهير .

فلو أن الألفاظ كانت لها شخصياتها التي تميزها ، أو كانت كما يقول ابن الأثير :
تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر ، فالألفاظ الجزلة تتخيل في السمع
كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتمثل كأشخاص ذوى دماثة ولين
خلق ولطافة مزاج ، ^(١) لكانت ألفاظ القصيدة التي نظمها ابن عنين مثلاً للجزالة ،
فهي تشبه رجالاً ركبوا خيولهم ، واستكملوا سلاحهم ، وتأهبوا للطراد ، بينما ألفاظ
شاعري مصر ، وهما ابن النبيه والبهاء زهير ، تشبه ملوكاً خرجوا على الناس
في زينتهم ، فقال الناس : يا ليت لنا مثل ما أوتي هؤلاء . ومعنى ذلك باختصار أن
الجزالة كانت أظهر من الزينة ، في قصيدة ابن عنين ، وأن الزينة كانت أوضح من
الجزالة في شعر ابن النبيه والبهاء زهير ، وأن المسحة المصرية كانت أبين في قصيدة
هذا الأخير .

غير أن فرح الملك الكامل وإخوته لم يدم طويلاً حتى أتاهاهم الملك فردريك الثاني
إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة في حملة صليبية ، ووقع الاتفاق بينه وبين الملك
الكامل على أن يأخذ الإمبراطور القدس ، بشرط أن يبقى خراباً لا تتجدد أسواره ،
وأن تكون قرى المسلمين حوله لهم ، لا يزاحمهم فيها الفرنج ، وأن يكون الحرم بما فيه
الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وحدهم ، لا يدخله الفرنج إلا
للزيارة فقط .

فقبل الإمبراطور هذه الشروط ، وسلم المسلمون القدس ، فاشتد بكاؤهم عليه في
ذلك الوقت . وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الملك الكامل ، ووصلوا إلى

بابه ، وأذنوا عليه في غير أوقات الآذان ، يريدون بذلك أن يعبروا له عن سخطهم الشديد ، فعز عليه ذلك ^(١)

واشترك في التشنيع على الملك الكامل ابن أخيه الملك الناصر داود بدمشق ؛ فجمع مجلسا بجامع المدينة حضره الإمام الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزي ، فقام هذا الإمام وخطب الناس ، مذكرا إياهم بفضائل بيت المقدس ، ومثيرا في نفوسهم أعماق الحزن على استيلاء الفرنج عليه .

« واجتمع في هذا المجلس ما لا يحصى عدده من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء ، وكان مما قاله الإمام يومئذ : وانقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين ، يا وحشة المجاورين ، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة ، وكم جرت لهم في تلك المساكن من دمة »

تالله لو صارت عيونهم عيوننا لما وفيت ، ولو قطعت قلوبهم أسفا لما اشتفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، يا خجلة ملوك المسلمين »

لمثل هذه الحادثة تنسكب العبرات ، ولمثلها تنقطع القلوب حشرات ^(٢) الخ قالوا : ثم أنشد الحافظ شمس الدين الناس قصيدة طويلة ، عدتها ثلاث مئة بيت ، فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم ، ومن هذه القصيدة قوله ^(٣) :

أعيني لا ترقى من العبرات	صلى في البكا الأصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفى فيضها	توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما	خبت بادكار يبعث الحشرات
ويا فم يح بالشجو منك لعله	يروح ما ألقى من السكرات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره	على موطن الإخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى	على مشهد الأبدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي	أنافت بما في الأرض من صخرات

(١) السلوك جزء أول قسم أول ص ٢٣١

(٢) شفاء القلوب مخطوط ص ٨٥

(٣) راجع شفاء القلوب ص ٨٠ والسلوك ج ١ ص ٢٣٣ قسم ١ والروضتين ج ٢ ص ٣٠٥ ويجب أن نذكر أيضا أن هذه القصيدة منسوبة إلى الرئيس شهاب الدين أبي يوسف يعقوب بن محمد بن مجاور

على القبلة الأولى التي اتجهت لها صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر وأشرف مبنى لخير بناء
وما زال فيه للنبيين معبد يوالون في أرجائه السجودات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الرفيع العماد العلى الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما وللبر والإحسان والقربات
يوافي إليه كل أشعث قانت لمولاه بر دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم فمن بين نواح وبين بكاء
لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه في أكرم الحجرات !
لقد أشتموا عكا وصورا بهدمها ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتموا عنها جماعة أهلها وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أناره لهم عظم ما والوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم وهل ثمر إلا من الزهرات
فمن لى بنواح ينحن على الذى شجاني بأصوات لهن شجاقى
يرددن بيتا للخرزاعى ^(١) قاله يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلّت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات ،

أرأيت إلى هذا الإمام كيف هيج بكلامه الرأى العام ؟ أرأيت إليه كيف ضرب
على وتر حساس فى قلب الإسلام ؟ أرأيت إليه كيف أثار فى أعماق نفوس المسلمين
أشد عواطف الأسى والحزن ؟ أرأيت إليه كيف استدر من أعينهم أغزر الدمع ؟
أرأيت إليه كيف عير بفقد القدس ملوك بنى أيوب ، وقال لهم إنهم بفتح القدس

(١) هود عبل بن على الخزاعى الشاعر الشيعى فى العصر العباسى .

وحده أصبحوا سروات في نظر الناس والتاريخ ؟ إن هذا الإمام — أو ذلك الداعية الخطير من دعاة الحروب الصليبية في الإسلام — لم يكتف بوعظه ونثره وشعره ، حتى ذكر الناس بشعر الشعراء من قبله ، فأتى بذلك البيت الشيعي الحزين :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
وملاك القول في هذه القصيدة الأخيرة أنها تعتبر من أروع القصائد الصليبية ، التي عبرت يومئذ عن حزن المسلمين العميق على ضياع القدس ، وذكرتهم بأشعار الشيعة القديمة ، وهي أشعار كلها حزن ، ولها في تاريخ الأدب العربي هذا الطابع المعروف ، ومن تلك القصائد الشيعية قصيدة دعبيل الخزاعي التي استعار الواعظ منها بيتا ، وجاءت على وزنهما ورويها هذه القصيدة التي ألفت في ذلك الجمع الحاشد ، الذي أشرنا إليه .

ومات الملك الكامل وخلفه ابنه الملك العادل الثاني ، وحدث في أيامه أن خرق الفرنج الذين بالقدس شروط المعاهدة التي كانت بين الملك الكامل وفرديك ، وفيها تعهد الإمبراطور بأنه لا يقيم أسوار بيت المقدس ، ولكن الفرنج عادوا يعملون في عمارة أبراجه ، وإقامة أسواره ، فلما بلغ ذلك الملك الناصر داود صاحب دمشق ، ذهب بنفسه إلى القدس ، ورماه بالمنجنقات ، وهدم الأبراج التي بناها الفرنج ، وتمكن من أخذ بيت المقدس ، وفرح المسلمون يومئذ بانتصار الملك الناصر فرحا عظيما ، لا يعدله إلا حزنهم على ضياع القدس من قبل . وفي ذلك يقول الشاعر المصري جمال الدين بن مطروح :

المسجد ^(١) الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا وناصر ^(٢) طهره آخرا

وظفر بمصر بعد ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من يد أخيه الملك العادل الثاني . وما كاد الملك الصالح يفرغ من التغلب على المحن الكثيرة التي تعرض لها ، وكتب

(١) السلوك : جزء أول ، قسم ثان ، ص ٢٩٢ — والروضتين : ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) يقصد بالناصر الأول : صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبالناصر الثاني : الثاني الملك الناصر داود .

عليه أن يقاضى كثيرا من أمرها ، حتى عاجلته أنباء الحملة الصليبية الثالثة والآخرى على مصر ، وهى الحملة التى قادها الملك لويس التاسع .
وكان الملك الصالح نجم الديوب أيوب فى أثناء ذلك مريضا بدمشق ، فخرج فى محفة ، وجرى به إلى مصر ، ليصرف بنفسه على إعداد الأسطول والجيش . وبينما هو مشغول بهذه الأمور ، إذا بالملك لويس يبعث إليه بكتاب على هيئة إنذار شديد اللهجة ، هو الكتاب الذى تقدم ذكره فى الفصل السابق . فلما وصل الكتاب إلى السلطان ، وقرئ عليه ، أغرورقت عيناه بالدموع وقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم أمر فكتب الجواب بإنشاء القاضى بهاء الدين زهير كاتب الإنشاء ، على نحو ما تقدم أيضا .
وجد الفرنج يومئذ فى قتال المصريين ، وشجعهم على ذلك ما علموه من موت الملك الصالح نجم الدين ، فاستعد المصريون من جانبهم لهذا اليوم الثقيل ؛ وشاءت إرادة الله أن يحارب النيل إلى جانبهم ؛ فأحاط بالفرنج من كل ناحية ، كما أحاط بهم فى المرة السابقة ، وانتهت الموقعة بهزيمة الفرنج ، ووقوع ملكهم لويس التاسع نفسه فى الأسر ، فقيدته المسلمون ب قيد من حديد ، واعتقلوه - كما قلنا - بدار بن لقمان ، ووكلوا به الطواشى صديحا .

وصادف هذا قدوم الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فاستبشر الناس بقدومه ، وقدم الشعراء عليه ، يهنئونه بانتصار المسلمين ؛ وأخذ الملك تورانشاه يبعث بالكتب إلى جميع الممالك الإسلامية فى البشارة ، وترد إليه ردودهم ، ومنها رد نائبه على دمشق ، واسمه (ابن يغمور) الذى كتب إلى سيده يقول :
أسيد أملاك الزمان بأسرهم تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيع حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده
يشير بذلك إلى غفارة الملك لويس التاسع ، وقد بعث بها المعظم تورانشاه إلى نائبه هذا ، مع الرسالة التى بشره فيها بهزيمة الفرنج^(١)
وبقى الملك لويس سجيننا ومعه قواده وأمرأؤه ، حتى عرض على المسلمين أن يطلقوه بفديه قدرها أربع مئة ألف دينار ، فأثر بماليك الصالح إطلاقه بها ، لحاجتهم يومئذ إلى المال ،

فأداها الملك لهم وهو يعجب كل العجب من مساكنهم هذا ، ويقول : ما رأيت أقل عقلا ولا ديناً منكم ، مثلي ملك البحر ، وقع في أيديكم ، بعتوه بأربع مئة ألف دينار ، ولو طلبتم مما كنتي دفعتها لكم حتى أخاص (١)

وفر الملك لويس ومعه الأمراء والنبلاء إلى عكا ، فسمع المصريون أنه جدد العزم على العودة إلى مصر ، فسخروا منه ، ونظم في ذلك الصاحب جمال الدين بن مطروح قصيدة ، يقول في آخرها متهكماً بأحلام لويس التاسع وأوهامه : (٤)

قل للفرنسيس إذا جئته مقال نصيح من قتل فصيح
آجرك الله على ما جرى من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغي ملسكها تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح
ألهمك الله إلى مثلها لعل عيسى منكم يستريح
إن يكن البابا بذرا ضيا قرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهناً إنه أنصح من شق لكم أو سطوح
وقل لهم إن أزمعوا عودة لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صبيح !

وفسكروا لويس التاسع بعد ذلك في قصد تونس ، فاستعد له ملسكها ، واستمر القتال بين الفريقين ستة أشهر ، وكاد المسلمون فيها أن يغلبوا ، لولا أنه أصبح يوم فاذا الملك لويس نفسه ميت . ففت ذلك في عضد الفرنج ، وفي ذلك يقول شاعر من أهل تونس :

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً وطواشيك منمكر ونكير

فكان هذا فالأ عليه ومات (٣)

(١) النجوم الزاهرة : ج ٦ ص ٣٦٩

(٢) السلوك : قسم ثان ، ج ١ ، ص ٣٦٣

(٣) السلوك ، ج ١ ، قسم ثان ، ص ٣٦٥

وانتهت بذلك آخر صفحة من صفحات الجهاد ، التي كتبت على الدولة الأيوبية ،
وأنى بعدهم سلاطين الأتراك ، فلم يفكر الصليبيون على عهده فى قصد مصر ، ولا
أصبحت لهم آمال صليبية فى الشرق ، فساعدت هذه الروح على طردهم منه نهائيا ، ومن
ثم لم يكن للحوادث الصليبية صدى يذكر فى أديهم ، واشتغل سلاطين الأتراك يومئذ
بأمر آخر كان يهيم الإسلام ، وهو رد المغول عن بلاده ، وانقاذه من ذلك الخطر ،
الذى كان لا يقل عن الخطر الصليبي فى ذاته .

...

جزى الله شعراء العربية عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به محسن إلى قومه ،
مخلص لهم ، صادق الذود عن حياضهم ، والوقوف إلى جانبهم ، فى كل محنة تمر بهم .
وكل نصر يحرزونه على عدوهم ، تقوية لنفوسهم ، وإبقاء على تحمسهم فى
مدافعة القوم .

لئن كانت الصحف والمذيع وغيرهما من وسائل الإعلان ، بل وسائل التعبير
عن رأى العام ، تفعل فعلها فى حياتنا ، من جوانبها الاجتماعية والسياسية والإدارية
والعقلية ، فقد كان الشعر - قبل النثر - يقوم بهذا الإعلان فى العصور الوسطى .
فالشعر هو الذى أبقى على هذه الجذوة المقدسة ، وهى جذوة الشعور الدينى عند
المسلمين فى العصر الوسيط . والشعر هو الذى نفخ فى روح الشعب الإسلامى ، كما نفخ
فى روح أبطاله وقواده ، وكافأهم على بطولتهم ، ومجد قدرة الله فيهم ، وأثنى عليهم ثناء
عظرا ، فمضوا فى جهادهم فى سبيل الله ، وبذلوا فى سبيل الجهاد كل ما ميزهم به الله ، حتى
كتب لهم النصر على العدو .

ولقد بدأت هذه النهضة الشعرية الصليبية فى الشام ، يوم كانت مقاليد المسلمين
المجاهدين إلى يد زعيمهم العظيم نور الدين . ثم اشتركت مصر والشام بحظوظ متساوية
فى هذه النهضة الشعرية ، منذ أصبحت هذه المقاليد فى يد سيد هذين القطرين المتجاورين ،
وهو البطل صلاح الدين . وبقي هذا الحظ مشترك بين القطرين حتى آخر الدولة الأيوبية .
أما العراق فكانت على هامش الحوادث الصليبية ، والآداب الصليبية . وأحسب
أنها لو اشتركت اشتراكا فعليا فى هذه وتلك ، لكان لها شأن يذكر ، وأدب قد لا تدانيه
الآداب الإسلامية ، فى كل من هذين القطرين الشقيقين .

وفي الذي سقناه في ثنايا الحديث ، من الموازنة بين الشعراء السورى والمصرى ، ما يكفى للدلالة على أمور منها :

أولا - أن الشعراء معا يميلان إلى الزينة اللفظية يقلدان بها شعر العراق ، ويزيدان عليه زيادة ظاهرة فيها .

ثانيا - أن الشعراء معا لم يبلغا من الجزالة اللفظية ما بلغه شعر العراق . وذلك باستثناء شعراء خول كابن القيسرانى ، وابن منير ، وابن عذينة . فثلاثتهم يميلون إلى الجزالة اللفظية - كما رأينا - وإن كان ابن عذينة أشدهم في هذا الميل .

ثالثا - أن الشعر المصرى الخالص ، وهو الشعر الذى صدر عن مصريين بمولدهم ونشأتهم ، لا عن مصريين بإقامتهم ، كان موسوما بسهولة اللفظ ، وبالميل إلى المبالغة في إظهار عواطف الفرح ، بحيث غلب الشعور بالفرح عندهم على الشعور بالفخر ؛ كما ترى ذلك واضحا في أشعار ابن النخبة ، والبهاء زهير ، وجمال الدين بن مطروح ، ومن قبلهم عند ابن سناء الملك .

رابعا - أن التورية والميل إلى التهمك كان في الشعر المصرى أظهر منه في الشعر السورى ، وبخاصة في الدور الذى كانت فيه مصر مركز الجاذبية الصليبية . وآية ذلك أننا لا نعلم شاعرا تهكم بالصليبيين قدر ماتهمك ابن مطروح .

...

(وبعد) فقد كان القدس هو كل شئ في ذلك الشعر . فإذا اقترب المسلمون المحاربون منه خطوة ، هلك الشعر وكبر ، وإذا استرده المسلمون بالفعل أقام الشعر من أجله الدنيا وأقعدوها ، وإذا فقد المسلمون جزءا منه بكى الشعراء عليه بكاء مرا ، ثم إذا عاد إليهم عادوا إلى فرحهم وسرورهم وافتخارهم وازدراؤهم للفرنج ، والسخرية بهم وبدينهم ومعتقداتهم وأوهامهم وآمالهم وأحلامهم كما رأينا .

والخلاصة أن الشعر الصليبي يمتاز بشيئين هما القوة والعاطفة . أما القوة فلأنه شعر الحماسة الإسلامية في محنة الحروب الصليبية . وأما العاطفة فلأنه يتصل أشد اتصال وأوثق بهشور ديني عميق في نفوس المسلمين ، هو شعورهم بأن القدس لهم ، وأنه مسرى نبيهم إلى آخر تلك المعاني الدينية ، التى أشار إليها وعاظهم وفقاؤهم وأدباؤهم .

الفصل التاسع

الرسائل النثرية والحروب الصليبية

أشرنا في مقدمة البحث إلى الفرق الكبير بين الشعر والرسائل الديوانية في عهد الحروب الصليبية . وهو فرق يدعو - في الحقيقة - إلى العجب العجاب ، كما يقول الناس .

فجمهور النقاد والأدباء على أن الجهد الفني الذي يبذله الشعراء في الشعر غالبا ما يكون أكبر وأوسع من الجهد الفني الذي يبذله الكتاب في النثر . ذلك أن النثر بطبيعته أطوع وأسهل ، والحرية فيه أوسع وأكمل . فإذا حرم النثر هذه الحرية ، كان معنى ذلك أنه أصبح أدخل في باب الفن بما قيد نفسه من القيود ، التي لا يخضع لها إلا الشعر .

ذلك ما يفهمه جمهور النقاد والأدباء ، أو ما يرون أنه الأغلب . ولسنا في عصر الحروب الصليبية أمام طائفة من الرسائل الديوانية ، تعرض فيها أصحابها لألوان شتى من التعب الفني ؛ وحققوا فيها أمورا كثيرة ربما لا تتحقق كلها حتى في الشعر المتسكف ؛ ونعني به الشعر الذي يمثله لنا شاعر كافي تمام الطائي .

وكأني بصاحب هذه الرسائل الديوانية - ولنضرب المثل هنا بالقاضي الفاضل أو العمد الأصفهاني - قد أسكره ما أحرزه المسلمون من نصر ، وفعل الطرب في نفسه مالا تفعله الخمر ، ثم اتخذ لنفسه هيئة الموسيقى أو المصور أو النحات ، وجلس إلى غرفته الخاصة يحاول تصوير الموقعة التي انتصر فيها المسلمون ، تصويرا يشبع فيه الناحية الفنية ، التي خصه الله بها دون غيره من عامة الناس .

وإنك لتستطيع أن تتمثل القاضي الفاضل على هذه الهيئة التي نشرحها ؛ وقد أمسك بقلبه وقرطاسه ، وأكب عليهما إكبابا وهو يكتب رسالة إلى الخليفة العباسي ، على لسان السلطان صلاح الدين الأيوبي ؛ يصف فيها حوادث الموقعة ، ويسهب ما شاء له

الإسهاب في وصف ما تركته سيوف المسلمين من آثار في بلاد الأعداء ، ويتألق ما شاء له التألق في جميع هذه الأوصاف . فإذا رسالته إلى الديوان مزدحمة بعدد لا حصر له من الصور البيانية الرائعة ، والأساليب الإنشائية القريبة .

وكأنني بالخليفة العباسي نفسه ، إذا أحب أن يقرأ هذه الرسالة الفاضلة قد حبس نفسه مدة ما في إحدى غرف الديوان ، وأخذ يقرأ الرسالة سطرا سطرا ، بل جملة جملة ، وكلية كلية ، وهو يرى في كل لفظة من ألفاظ الرسالة سحرا ، وفي كل سطر من سطورها فنا ، فيظل يتأمل هذا السحر والفن ، كما يتأمل صورة ما لفنان موهوب ، أرساها إلى معرض من معارض الفنون الجميلة .

وإذن فلا سبيل إلى تصور السرعة في كتابة القاضي الفاضل لهذه الرسالة ، ولا سبيل إلى تصور السرعة في قراءة الخليفة العباسي أو غيره لهذه الرسالة . وإنما يجب أن نفهم أن الفاضل أمضى وقتا طويلا في الكتابة ، وأن القارىء أمضى وقتا طويلا في القراءة . وذلك أن ما يكتب أو يقرأ من هذه الرسالة ليس خبرا رسميا صيغت عباراته على عجل ، وقرئت على عجل ؛ وإنما هو لوحة فنية ، تعب صاحبها في رسمها ، وتأليف أصباغها ، ولا بد للنظر إليها — إذا أراد تقديرها — أن يقابل ذلك التعب أو السكد بكدمثل ، في استجلاء مفاتها ، والتعرف إلى ما فيها من نواحي الجمال .

والآن ، وبعد هذه التهيئة النفسية التي لم يكن بد منها ، يصح أن نقدم للقارىء على سبيل المثال رسالة من رسائل القاضي الفاضل في (فتح القدس) ، بعث بها إلى ديوان الخلافة العباسية ، تتبعها برسالتين أخريين : إحداهما للعماد الأصفهاني ، والأخرى لضياء الدين بن الأثير في نفس هذا المعنى ، لتتيسر الموازنة بين هؤلاء الكتاب الثلاثة ، ولنعطى القارىء صورة دقيقة من صور النثر الديواني ، الذي كان قسما من أقسام الأدب الصليبي . وسأستأذن القارىء مرة أخرى أن يستأنى ما استطاع في قراءة الرسالة الفاضلية التي ، سنقدم له جزءا منها ، بعد إذ بذلنا غاية الجهد في تحقيقه ، بالرجوع إلى مصادر عدة ^(١)

(١) راجعنا هذه الرسالة في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٩٦ والروضتين ، ورسائل القاضي الفاضل بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ ، وكتاب الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم — مخطوط بدار الكتب أيضا .

وعنوان الرسالة الفاضلية هكذا :

كتاب إلى الديوان العزيز أيضا يذكر فيه فتح بيت المقدس ، أعد ليسير به ضياء الدين ابن الشهرزورى ، فلم يسر به ، فأصبح تاج الدين بن أخى الوزير ، وقد كان وصل من جانب الديوان رسولا ، سار به فى العشر الأوسط من ذى الحجة سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة . وكان الفتح يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب من هذه السنة .

وأما الرسالة نفسها فهذا نصها :

« أدام الله أيام الديوان العزيز ، ولا زال مظفر الجد^(١) بكل جاحد ، غنى التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيف فى جفنه راقد ، ووارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل ، وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد^(٢) ، ماضى حكم القول بعزم لا يمضى إلا بسبل غوى وريش راشد^(٣) ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المربع^(٤) وأنوار إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد^(٥) . تلك هى مقدمة الرسالة أو ديباجتها - كما يقولون - وفيها يظهر القاضى الفاضل بفنه الذى نعرفه . فهو حريص على السجع كل الحرص ، حتى ليكأن السجع غاية عنده وليس وسيلة . وهو حريص على الطباق كل الحرص ، فهو يطابق بين «موقوف» و «مطلقات» وبين «مستيقظ» و «راقد» وبين «متعدد» و «واحد» . وهو حريص كذلك على الجناس . والجناس هنا ناقص كما فى قوله «أنواء» ، وأنوار ، وقوله «مراقب» ، ومراقد .

والفاضل فى هذه الديباجة أو المقدمة كان أشبه رجل بالشاعر الذى ينشد الخليفة شعرا فى المدح فيمدحه بأنه رجل موفق دائما ، منصور دائما ، جواد يعم بجوده جميع

(١) الجسد ، بفتح الجيم : الخط . وقراءة الكلمة على هذا الوجه هى الأنسب .

(٢) أى أن فضله يسعى فى جهات مختلفة ، وشكر الناس عليه واحد .

(٣) سلّ الشئ : انتزعه وأخرجه . وراش فلانا : نفعه وأغناه .

(٤) المربع : جمع مربع ، وهو المنزل فى الربيع .

(٥) المراقب : المرصد . والمراقد : المضاجع . والإشارة هنا إلى قول أشجع السامى :

وعلى عدوك يابن عم محمد رَصَدَان ضوئُ الصبح والإظلام

فإذا تنبّه رُعبته وإذا غفا سلّت عليه سيوفها الأحلام

الناس ، ذو عزم قوى ينفع نفعا محققا إذا أراد ، ويضر ضررا محققا إذا كانت الحكمة في ذلك ، ذو هيبة في قلوب أعدائه ، تفرعهم في اليقظة ، وتقض مضاجعهم في النوم . ويبدأ الفاضل رسالته بعد هذه الديباجة فيقول :

« كتب الخادم هذه الخدمة ^(١) تلو ما صدر ، عنه مما كان يجري مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان للكتاب وصف النعمة . فإنها بحر للأقلام فيه سبوح طويل ، ولطف [من] ^(٢) الحق ، للشكر فيه عبء ثقیل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار ، في إظهارها مسارب ^(٣) . والله في إعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام ، لا يقال معه هذا مضي ، وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرهما ، وتخلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهل دينه ، فلما وقع الشرط حصل المشروط . وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا ، فقد بذلت الأنفس في ثمنه ، وأمر ^(٤) أمر الحق وكان مستضعفا ، وأهل ^(٥) زبعه وكان قد ^(٦) عيف حين عفا . وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، وأدلت ^(٧) السيوف إلى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان ^(٨) الحين ، واسترد المسلمون تراثا كان عنهم ^(٩) آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأي طارقا ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غلهم ،

هكذا بدأ الفاضل رسالته ، فقال للخليفة : إنه إنما كتب هذه الرسالة في نفس المعنى الذي كتب فيه من قبل رسائل أخرى ، كان فيها مبشرا بالفتح ، وكانت تلك الرسائل أشبه شئ بعنوان لكتاب النعمة التي من الله بها على المسلمين ، وهي نعمة هذا الفتح . ومن الحق على المسلمين أن يعيدوا شكرهم لله تعالى على هذه النعمة ، التي جلت عن الوصف .

(١) الخدمة ، هي الرسالة : والخادم هنا : هو صلاح الدين الأيوبي ، التابع للخليفة العباسي .

(٢) هذا اللفظ زيادة منا لوجود لها في جميع النسخ التي رجعنا إليها .

(٣) المسارب . مجارى الدمع . (٤) أمر ، مثله الميم بمعنى ولى . والاسم الإمرة .

(٥) أهل : أصبح مأهولا . (٦) عيف ، من عاف يعاف : بمعنى أعرض عنه .

(٧) أدلت : سارت بالليل . (٨) حيان الحين : من قولهم حايته حيانا ، وسأوعه سواعا

بمعنى أعطاه ميعادا معينا . والمعنى حل وقته ، (٩) آبقا هاربا

ثم قال للخليفة : وبذلك أصبحت أمور الإسلام على أحسن حال ، وأصبح المسلمون خليقين بهذا النصر ، الذي كان مشروطا بصدقهم في القتال . وهكذا غدا الدين في وطنه بعد إذ كان غريبا ، وأهل ربه بالسكان وكان قد درس زمانا طويلا . وبذلك تم للمسلمين استرداد تراثهم الذي فر من أكتفهم ، وحققوا في يقظتهم ما لم يكونوا يأملون تحقيقه في أحلامهم ، ونشروا أعلامهم على المسجد الأقصى ، وأقبلوا بجموعهم يقبلون الصخرة التي شفت غليلهم ، كأنها ماء وليست بصخرة .

أما الفن الفاضل في هذه الفقرة ، فالجديد فيه هنا هو اختياره للألفاظ القرآنية ، وإشاره لها ، كما في قوله يصف نعمة الفتح : فإنها بحر للأقلام فيه سبوح طويل ؛ فهي تذكر بقوله تعالى : (إن لك في النهار سبحا طويلا) ، ولطف من الحق للشكر فيه عبء ثقیل . وشيء آخر في هذه الفقرة هو الجناس بالاشتقاق كما في قوله : (وأمر أمر الحق) وكان يستطيع أن يقول (وظهر سلطان الحق) ، ولكنه آثر لفظ (أمر) ليحقق به هذا النوع من التجنيس .

وانظر بعد إلى المقابلة بين دج السيوف ونوم الآجال . وانظر كذلك إلى المبالغة في وصف النور الذي استطار من أنوار الدين حتى أزرى بنور الصباح ، وأفهمه أن وقت رحيله قد حل ، فليس له إلا الرواح !

ثم قال الفاضل في رسالته بعد ذلك ما نصه :

« ولما قدم الدين عليها ^(١) عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت ^(٢) عصمتها من المكفر بحربه . وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة إلى سامعها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا . وكانت الألسنة ربما سلقته ، فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه من اجلها ، فاطفاها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطرا ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يحلى غمرة ^(٣) غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت

(٢) البت : القطع .

(١) أى على الصخرة .

(٣) الغمرة بالفتح : الشدة

نيوب الأعداء المعاجم ^(١) فتعضها ، ويضعف في أيديها ^(٢) مهزّ القوائم فتفضها ^(٣) هذا إلى كون القعود لا يقضى فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء كانوا في مثل هذا اليوم لله يسألون ، لا جرم أنهم أورتوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأظهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم ، لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غصوا ^(٤) لما نظر ؛ بل وصلهم إلا جر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم إلى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها ، وإلى الصفائح ^(٥) ما عبت ^(٦) به ^(٧) جيوبها ^(٨) ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيرا ، والشرق يهتدى بآنواره ، بل إن أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ^(٩) . فإنه نور لا تكنه ^(١٠) أغساق ^(١١) السدف ^(١٢) ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

ومضى الفاضل في الرسالة التي بعث بها الخليفة ، فقال له : إن تلك الصخرة التي بالمسجد الأقصى هي من قلب الدين حبه ، وإنه لا نظير لها عند المسلمين إلا الحجر الأسود نفسه ، وإنه حين علم الحجر الأسود برجوع الصخرة إلى المسلمين ، هناها بطلاقها من الكفر ، وبراءة عصمتها من أيدي الكافرين براءة لم تحصل عليها إلا بطريق الحرب التي شنها عليهم المسلمون . وهل كان صلاح الدين يسعى سعيه إلا لهذه الغاية ، وهل كان ما قاساه من الأهوال إلا رجاء تلك النعمة ؟ وهل كان يجد في قتال القوم ويسرع في ملاقاتهم وإن ما طلوه ، أو يلجأ دائما إلى السيف والرمح في معالجتهم وإن حقدوا عليه وعاتبوه ، ألا لتسكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز هو بالآخرة لا بالدنيا ؟ وإن صلاح الدين ليعلم أن من الناس من ربما سلقوه بالسنتهم من أجل نهوضه

(١) من عجمه بمعنى عضه أو لأكه أو هزّه تجربة
(٢) مهز : اسم مكان من هز

(٣) الفض بالفاء الكسر بالفرقة .

(٤) غصّ بصره منعه عما لا يحل له

(٥) الصفائح : جمع صفيحة ، وصفيحة الوجه : بشرة جلده

(٦) عبت : انتشرت رائحة الطيب منه

(٧) جيوبها جمع جيب ، وجيب القميص : طوقه

(٨) واره فعل أمر من وارى بمعنى أخفى

(٩) تسكنه : تستره

(١٠) أغساق جمع غسق ، وهو الظلمة

(١١) السدف جمع سدف وهو الظلمة أيضا

بالجهاد ، فما لهؤلاء عنده من جواب غير الاحتقار ؛ وأن منهم من يتخيظون منه تغيظا كبيرا ، فلا يقابل ذلك منهم إلا بالحلم والاصطبار . ومن طلب جسيما من الأمر خاطر ، ومن رغب في كبير من الربح جازف بسببه ، ومن سمت همته إلى إزالة شدة غامر بنفسه فيها حتى تنجلي .

ولو قعد السلطان عن الجهاد لطمع فيه الأعداء واستلأنوه واستهانوا بأمره . هذا فضلا عن أن القعود نفسه لا يرضى الله تعالى ، ولا فيه رعاية لحق عباده ، ولا وفاء بحق التقليد الذي في عنقه للخلافة .

وهنا أخذ الفاضل يمدح الخلافة العباسية . فوصف أئمتها بأنهم يقضون بالحق وبه يعدلون ، وأنهم كانوا إلى الله تعالى في مثل هذا اليوم يضرعون ، وأنهم ورثوا ملكهم سلالة طاهرة ، وبقية شريفة ، وفضلاء يدل عليهم سواد أعلامهم وبياض تاريخهم . « ذرية بعضها من بعض » ، ما غابت عن الجهاد وقد حضر واحد منها وهو الخليفة ، ولا أهملت قط أمر هذا الجهاد وقد نهض به هذا الخليفة . بل إن أجر الجهاد نفسه واصل إليهم جميعا ، للصلة التي بينه وبين أجداده من الخلفاء ، وشرف العمل فيه مقسوم بينه وبينهم على السواء . ومن ثم اطمأن آباؤه في مضاجعهم ، وانتهت إليهم الذكرى الطيبة في مراقدهم ؛ وهي ذكرى لا يزال الناس يسمرون بها ليلهم ، ويهتدون بها في نهارهم . بل إن نور هذه الذكرى ليغنى الشرق عن إظهار أضوائه ، فإذا ظهر منها شيء دعاه الغرب إلى إخفائه ، لأن ضوء هذه الذكرى أكبر من ضوء الشرق نفسه ، فهو ضوء لا يتغلب عليه الظلام ، ولا تستطيع أن تطمسه سواد الأقدام .

وهكذا أوجب على الفاضل أدبه أن ينسب فضل الجهاد كله إلى الخلفاء العباسيين ، وأن يتحدث إليهم بذلك على لسان صلاح الدين .

وهذا فرط أدب لا يحسنه إلا من عرف أخلاق الملوك . ومن كالفاضل في معرفة هذا كله ؟

أما الفن الفاضل فمن آياته في هذه الفقرة ذلك التشخيص الذي خلعه على الجماد ، حين تحدث عن الصخرة والحجر الأسود على أنهما شخصان ، وحين صور لنا الصخرة وقد رجعت إلى الإسلام بصورة امرأة جاهدت حتى خلصت نفسها من عصمة الكفر .

ثم انظر إلى المجاز في قوله :

« وكانت الألسنة ربما سلقته ، فأنضج قلوبها بالاحتقار ،
وانظر إلى قوله « قلوبها » فإن المراد بها هنا « قلوبهم » . أى قلوب أصحاب
هذه الألسنة .

ثم انظر كذلك إلى المقابلة بين سواد الأعلام وبياض الصحائف ، وإلى التجنيس
الناقص بين « سرورهم » ، و « سريرهم » . وإلى التجنيس التام بين « أنواره » بمعنى أضوائه
و « أن واره » بمعنى أخفه . وهكذا .

ونعود إلى رسالة الفاضل أيضا فنرى بعد ذلك ما نصه :

« وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت (١) قناته (٢) شققا (٣) ،
وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته (٤) وكان الأكثر عدداً
وحصى ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه (٥) العنان بالعيان ، عقوبة من الله
ليس لصاحب يد بها يدان . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عيونه
وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق (٦) نطف (٧)
السكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحخة بالمنى (٨) أو راعفة
بالمنون . وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث (٩) ، والرب المعبود
الواحد ، وكان عندهم الثالث .

فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب السكفر مهتومة (١٠) ، وطوائفه المحامية مجتمعة على
تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يرون فى ماء
الحديد لهم عصرة (١١) ، ولا فى فناء (١٢) الأفيصة لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة

(١) تشظت : تطايرت شظايا . (٢) القناة : الرمح :

(٣) وفى رواية أخرى شققا بقافين . والشفق والفرق ، بفتح الراء : الخوف

(٤) الحصاة . الحجر الصغير : والجمع الحصى :

(٥) عنان الدابة ، بكسر العين : لجامها . وعيان ، بكسر العين أيضا : رؤية .

(٦) تريق : تصب . (٧) نطف : قطرات ماء العين .

(٨) الرعاف : الدم يخرج من الأنف . (٩) الطامث : الخائض (١٠) مهتومة : مكسورة .

(١١) العُصرة بالضم : المنجاة (١٢) فناء البيت : ما امتد من جوانبه

والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة .

فرغ الفاضل من مقدماته ، وكانت آخر هذه المقدمات مدحه الخليفة ، ثم دخل في الموضوع الحقيقي للرسالة ، وهو هنا وصف الحرب التي انتهت بظفر المسلمين ببيت المقدس . فالآن يكتب صلاح الدين الى الخليفة بعد أن أظفر الله المسلمين بذلك العدو وقد تطايرت شظايا رماحه من الخوف ، وفرت جموعه من الذعر ، وكلت سيوفه فهي كالعصى ، وتناقص عدده وكان أكثر عددا من المسلمين ، ورأى المسلمون بأعينهم كيف تصرف قدرة الله تعالى في ذلك العدو ، وكيف أنزلت به من العقاب ما لا يقوى على رفعه أحد من البشر ، وكيف زلزلت أقدامه وكانت ثابتة على الأرض ، وكيف أغمضت عينه من الذل وكان شجعان المسلمين لا يستطيعون النظر إليها ، وكيف نام سيفه وكانت يقظته تذود النوم عن عيون المسلمين ، وكيف انكسر رمحه وكان مستقيما بالأمان ، راعفا بدماء المسلمين ؟

وبذلك أصبحت الأرض المقدسة طاهرة بعد تدنيس ، وأصبحت تقول بوحداية الله بعد التثايت ، وانهدمت بيوت المشركين ، وانكسرت نيوب الكافرين ، وأجمعت جيوشهم على تسليم البلاد . وأذغوا لكل ما طمع المسلمون فيه إذ ذاك . فلم تنجهم سيوفهم ، ولا وسعتهم أفنيتهم . وضربت عليهم الذلة والمسكنة الخ ...

أما الفن الفاضل هنا فقد بلغ في هذه الفقرة درجة عظيمة . فانظر هنا إلى المقابلة بين السيف والعصا في أول الفقرة ، وبين المنى والمنون في نهايتها ، وبين ذلة الكافرين وعزة المسلمين في وسطها . ثم انظر إلى الجناس بين « فرقه » بمعنى جموعه « وفرقا » بمعنى خوفا . وبين « العنان » بمعنى اللجام و « العيان » بمعنى الرؤية .

ثم انظر بعد إلى ما هو أهم من ذلك كله ، وهو السيوف والرماح كيف جعل الكاتب لها عيوننا تسكسف بالهزيمة ، وكيف جعل لهذه العيون جفونا نامت وكانت تذود النوم عن عيون المسلمين ، وكيف جعل للسيوف أنوفا جدعت ، وكانت تشمخ بالأمل ، وترعف بالدماء التي تقطر من أجساد المسلمين المجاهدين ؟

ثم انظر إلى القاضي الفاضل في قوله :

« ونيوب الكفر مهتومة » .

كيف جعل من الكفر شخصا له أنياب أصبحت مهتومة بعد الهزيمة .
ونترك من هذه الرسالة الفاضلية قطعه كبيرة ، حتى نأتى إلى قول الفاضل مانصه :
« وقدم المنجنىقات التى تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر (١)
لهم قسيها التى تضرب ، فلا تفارقها سهامها ولا يفارق سهامها (٢) نصالها ، فصاحوا السور
بأكنافه (٣) ، فاذا ساهمها فى ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسرا من المنجنىق يخلد
اخلاده إلى الأرض ، ويعلو علوه إلى السماء . فشج (٤) مرادع (٥) أبراجها ، وأسمع
صوت عجيجه (٦) ، ورفع مشار عجاجها (٧) ، فأخلى السور من السيارة ، والحرب من
النظارة ، فأمكن النقب أن يسفر للحرب النقب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته من
التراب فتقدم إلى الصخر فمضع مرده (٨) بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الآخر (٩)
الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حينئذ واستغاثته إلى أن كادت ترق
لمقبلة (١٠) وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تهرح الأرض .
وفتح فى السور باب سد من نجاتهم أبوابا ، وأخذ نقب فى حجره قال عنده الكافر
ياليقنى كنت ترابا . فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب
القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ،

هنا وصف الكاتب عمل المنجنىقات التى أخذت تقرب من جوانب الأسوار :
وحين أخذت سهامها تتخلل شرفات هذه الأسوار كما يتخلل السواك ثنايا الأفواه .
وكان المنجنىق يعلو فى السماء حيناً وينخفض إلى الأرض حيناً كأنه النسر ، واستطاع
المنجنىق كذلك أن يشق فتحات الأبراج وأن يجعلها تن ويعلوها الغبار . وهكذا حتى
خلت الأسوار جميعها من الناس كما خلا ميدان القتال نفسه من المقاتلة .

(١) أوتر القوس جعل الله وترا

(٢) السهم واحد النبل . والنصل حديدة السهم

(٣) أكتاف الطائر أجنحة وأكتاف السور جوانبه (٤) شج بمعنى كسر

(٥) مرادع من رَدع بمعنى كَرَجَ فهى فتحات فى الأبراج يُضرب منها . وفى نسخة مراتع

(٦) العجيح الصباح (٧) العجاج الغبار (٨) السرد النقب (٩) الأرق الطائش

(١٠) وفى مسالك الأبصار (لمقتله)

انظر مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ج ١ قسم ٢ ورقة ٢٩٦ محفوظ بدار الكتب المصرية

أما النقبابون فقد استطاعوا أن يكشفوا النقباب عن هذه الحرب الزبون ، وأن يدكوا هذه الحصون ، حتى عادت سيرتها الأولى من التراب والطين .
ثم عاد المنجنيق إلى تلك الصخور التي أمامه ، فطحنها بمعوله طحنا ، وما زال يضربها ضربا فيه حذق وفيه مهارة في وقت معا .

وهكذا حتى سمعت الصخرة الشريفة بالمسجد الأقصى حنين تلك الصخور المتهدمة وأنيبها واستغاثتها ، فرقت لها ، وعجت لخرابها ؛ وجاء النقبابون ففتحو أبوابا أخرى في السور ، أيأسست العدو من النجاة ، وصاح الكافر عندها : واحسرتاه . . . الخ .

أما الفن الفاضل فقد بلغ في هذه الفقرة ذروته ، ووصل إلى نهايته . وبحسبك أن تنظر هنا إلى المنجنيقات كيف جعل الكاتب من سهامها مساويك تدخل في ثنايا الشرفات الممتدة على السور ، وإلى هذه المنجنيقات التي جلبت النصر للمسلمين كيف خلقت فوق الأسوار كأنها النسور !

ثم انظر إلى معاول النقبابين كيف جعل منها أنيابا تمضغ بها الصخر . وانظر إلى الصخر نفسه كيف يئن من وقع هذه المعاول ، وكيف يعلو أنيبه حتى تسمعه الصخرة المقدسة بالمسجد الأقصى ، فترق له ، وينعطف قلبها عليه .

وانظر بعد هذا كله إلى تلك الصخور التي سحقتها المعاول سحقا ، كيف يبرأ بعضها من بعض ، وإلى الخراب الذي حل بها ، كيف يأخذ عليها موثقا فلن تبرح الأرض ! أليس في هذا كله تشخيص للجoadات ، يصبح به كل جماد منها شخصا له قلب ، وله عين ، وله سمع ؟

أليس ما فعله القاضي الفاضل أنه رسم لنا لوحة فيها صورة دقيقة للحرب ؛ وهذه الصورة تزدهم بالمناظر السكثيرة ، والحركات العنيفة ، والأصوات المخيفة ؛ فجمع في كل ذلك بين عمل الرسام والمصور والموسيقى والممثل والشاعر والكاتب في وقت معا . ودع عنك هذا كله ، وانظر إلى خاصة من خصائص القاضي الفاضل ، وميزة من ميزات أسلوبه ، هي له وحده ، وليست لسواه من الكتاب قبله ولا بعده ، باستثناء مريديه وتلاميذه .

وهذه الخاصة التي نلفت النظر إليها ، هي خاصة « نثر القرآن » ، على طريقة ابن العميد في نثر الأشعار . وبيان ذلك أن القاضي الفاضل كان يستطيع بهذه الطريقة أن يدمج

القرآن في كلامه، فسكانه جزء من هذا الكلام . ولا تقل إنها طريقة بسيطة أو مسبوقة، فالقول ببساطتها أو إمكانها مردود بمحاولتك تقليدها ، وعجزك كل العجز عن ذلك . والقول بأنها مسبوقة مردود كذلك بمحضك في آثار الكتاب جميعهم قبل الفاضل ، وانعدام هذه الخاصة في تلك الآثار . وهكذا استطاع الفاضل أن يستغل القرآن لنفسه استغلالاً فنياً صرفاً ، وأن يتخذ منه صبغاً من أجمل أصباغه الفنية التي ألف بينها بطريقة فاتنة . وانظر إلى قول الفاضل هنا :

« وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض ، وانظر إلى قوله كذلك :
« وفتح في السور باب سدّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ نقب في حجره قال عنده الكافر يا ليتني كنت تراباً ،
فذلك هو ما نقصده من « نثر القرآن » والأمثلة عليه في نثر الفاضل كثيرة ؛ منها في غير هذه الرسالة قوله :

« يا سيد أخيه - لا تسأل عن خاطر تتناوب عليه النوب ، ولا يأوى إلى ظل إلا وجدته ذا ثلاث شعب ؛ فدعني أدع هذا اليتيم الذي هو قلبي ، وأخيظ هذا الجرح الذي هو فمي ... الخ ، وقوله :

« أهلاً بطلعتي ، فإنها في غربتها مشرقة ، وبخواطره فإنها لا تدخل من باب واحد وتدخل من أبواب متفرقة » (١) .

أرأيت إذن إلى أسلوب القاضى الفاضل ، كيف يمتاز بالسجع والطباق والجناس ، وهى أمور يشترك فيها مع غيره من أصحاب الأساليب الأدبية التي سبقت أسلوبه ، ثم يمتاز بتجسيم المعاني وتشخيص الجماد ، وهما أمران أربى فيهما على من شاركه فيهما من الأدباء قبله وبعده ؛ ثم يمتاز بنثر القرآن ، وبتلك المعادلات اللفظية التي توحى إلى القارىء بأن ذهن القاضى الفاضل كان ذهنًا رياضياً ، أو به استعداد للتفوق في الرياضة . وهذان الأمران الأخيران يكاد الفاضل ينفرد بهما عن سواه من الكتاب الذين ظهروا قبله في ميدان الأدب العربى .

(١) انظر كتاب الفاضل : من كلام القاضى الفاضل : ص ٤ ب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٨٢ .

والأسلوب الفاضل لميزات وأوصاف أخرى ، لم تتح لنا النصوص المتقدمة فرصة إظهارها ، والتحدث عنها . فحسبنا هذا القدر من كلام هذا الزعيم الأدبي الخطير . وقد وعدنا أن نعرض أجزاء من رسالتين أخريين ؛ إحداهما للعماد الأصفهاني ، والأخرى لضياء الدين بن الأثير ؛ وسنرى من الموازنة بينهما وبين الرسالة الفاضلية المتقدمة أن ثلاثتهم من حلبة واحدة ، أو أنهم أصحاب مذهب يصح أن يطلق عليه المذهب الفاضلي .

أما العماد الأصفهاني فتحدث عن نفسه ، وقال إنه كان مريضاً بدمشق ، فلما سمع باستيلاء السلطان على القدس أبلَّ من مرضه ، وتوجه بنفسه إلى السلطان ، فوصل إليه ثاني يوم الفتح . قال : « وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ، ليغربوا بها ويشرقوا ، وهو يقول لهم : لهذه القوس بار ، وهذه المأذبة قار . قال : فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ؛ كل كتاب بمعنى بديع وعبارة ؛ ومنها كتاب إلى الديوان ببغداد افتتحته بهذه الآية :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنَّهم من بعد خوفهم أمنا ، (١) .

« الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخصَّ سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومسكن دينه المرتضى ، وبدَّلَ الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى ، للعصر الإمامي النبوي الناصري ، على يد الخادم أخلص أوليائه ، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائاته . وهذا الفتح العظيم ، والنجاح الكريم ، قد انقضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم .

الحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس ! وأعاده من الرجز ، وحقق من فتحه

(١) انظر كتاب الروضتين : (ج ٢ ص ٩٦) .

ما كان في النفس ، وبدل وحشة الكفر من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه
ما حيا ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال من البطرك والقس ،
وعبدية الصليب ومستقبلي الشمس . وقد أظهر الله على المشركين الضالين ، جنوده
المؤمنين العاملين ، وقطع دابر القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين . فكان الله شرف
هذه الأمة ، وقال لهم اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم ، وحقق في حقهم
امتثال أمره في قوله الكريم : « ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم » .

وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة
له من أعز الانصار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته أهل المقدس يوم الجمعة أهل
الأحد ، وقع من كان يقول إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول هو الله أحد ، وأعان الله
بأنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذي هو فتح الفتوح . وقد تعالى
أن يحيط به وصف البليغ نظما ونثرا ، وعبد الله في البيت المقدس سرا وجهرا ،
وملكت بلاد الأردن وفلسطين غورا ونجداً وبراً وبحراً ، وملئت إسلاما وكانت قد
ملئت كفرا ، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا ، والحمد لله شكرا ، حمدا
يحدد للإسلام كل يوم نصرا ، ويزيد وجوه أهله بشرى ، فتوجه بشرا .

وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ،
وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل رجالهم ، وسبي ذراريهم
ونسائهم . ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ، خوفا
بقتل الأسارى المسلمين ، وهم أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد
من مال وبناء بهدم وإحراق وإتلاف . وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ،
وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع ، وبذلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل
مال الفدا ، وما زالوا يبتهلون وبضرعون ، ويدلون ويخشعون ، حتى استقر الأمر
أنهم يفادون ، وأجيبَت الصخرة المقدسة عند استصراخها ، وبركت البركة الناهضة
إليها في مناخها ، وغسلت من أوضارها وأوزارها ، بعبرات العيون ، ورجع اضطرابها
إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان ، وصوخت للوفاء بعدها المجدد للإيمان ،
وأعيدت السكناس مدارس ، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية

دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدل بالانس فيها ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة .

وقد تسلمنا مع بيت المقدس ، جميع المعازل من حد الداروم إلى حد طرابلس ، وما كان جاريا في مملكة بيت القدس ونابلس ؛ ولم يبق إلا صور ، فإنها قد تأخر انتزاعها وتقدم امتناعها ، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها أطماعها ، وهي بتأييد الله مستفتحة ، والقلوب بتذليل جاحها منسرحة .

والواضح من قراءة هذه الرسالة من رسائل العماد ، أنها أسهل صنعة ، وأطول سجعاً وأوضح عبارة من رسالة الفاضل ، والكاتب فيها أشد حرصاً على الجناس بأكثر ألوانه المعروفة عند البلغاء .

ومن كتاب آخر للعماد الأصفهاني كتبه يوم الفتح ، قوله : وفيه شبه ما بكتابة القاضي الفاضل ، واقتداء ما بأسلوبه أو استمداد من معانيه :

« رأوا المنجنقيات قد أنزلت الأسواء بالأسوار ، وغارت الصخور للصخرة المباركة ، فجذت في إنقاذها من الإسار ، وهتمت ثنابا الأراج ، وأعضل بها في العلاج داء الأعلاج . فعانوا الحما ، وشاهدوا الموت الزؤام ، وأقامت المنجنقيات على عصابته حد الرجم ، وواقعت ثنابا شرفاته بالهتيم ، وتظايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة ، وحجرت على حلم السور بسفه الأحجار المتداركة ، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الأسوار ، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار . ونهضت لإصرار الصخرة المقدسة الصخور ، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور . فما أسر البيت الحرام بفكك أخيه من الأسر ، وإجراء الإسلام فيه لغسل أضرار الكفر ، وإنقاذ الصخرة المباركة من قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإخفافها من البهاء والرونق والعز الإسلامي بكسوة . ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه ، وطهرت من أرجاس أنجاسه بمياه العيون التي بها قذيت ، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت . وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة ، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة ، ودنا المسجد الأقصى فأقصى منه الساجد للشمس ، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس ، وأبدل الناقوس بالآذان ، بل

الكفر بالإيمان ؛ وصلى محراب الإسلام (يريد صلاح الدين) في المحراب الذي أسلم ،
وقد سنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم والنجاح الأنخم إلخ^(١) .
ويلاحظ القارىء لرسالة العباد أن معانيها كالمعاني التي أوردها القاضى الفاضل سواء
بسواء . غير أن الفاضل كان يشق على نفسه فى أداء معانيه بأكثر مما يفعل العباد . بل إن
القارىء ليحس أن الفاضل كان يستأنى فى كتابته ، ويتحذق تحذقاً بأكثر مما يفعل صاحبه .
ولست أدري أهل كان لهذه الأناقة والأناة صلة ما يشعور الفاضل فى نفسه أنه زعيم
الكتاب ، فينبغى أن تكون رسالته زعيمة الرسائل ؟ أم أن هذه الأناقة كانت نتيجة
طبيعية لطريقة الفاضل فى الكتابة ، وضرورة قصوى من ضروراتها ؟^(٢) .

* * *

أما ضياء الدين بن الأثير - صاحب المثل السائر - فقال إنه كتب كتاباً عن الملك
الناصر صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد ، يتضمن فتح البيت المقدس واستنقاده
من أيدي الكفار ؛ وذلك فى معارضة كتاب كتبه عبد الرحيم بن على البيسانى عنه^(٣) .
ولسنا نستطيع هنا أن نأتى على رسالة ابن الأثير كاملة لطولها . فلنكتف منها
ببضع فقرات ، قال : « خلد الله الديوان العزيز النبوى ، وجعل أيام دولته أتراباً ،
ومناقب مجده هضاباً ، وزادها على مرور الأيام شباباً ، وأوسعها توشية وإذهاباً ؛
إذا أوسع غيرها تلاشياً وإذهاباً ، ومنحها فى الآخرة عطاء وفقاً لا عطاء حساباً .
لو جمعت العصور فى صعيد واحد لكان هذا العصر عليها فاخراً ، وفاز بسبق

(١) الروضتين : ج ١ ص ١٩٨ .

(٢) قال عبد اللطيف البغدادى فى وصف القاضى الفاضل : دخلت عليه فرأيت شياً خائلاً ، كله رأس وقلب ،
وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى إخراج الكلام ، وكأنه
يكتب بجملة أعضائه . قيل وكان له غرام كبير فى الكتابة وتحصيل الكتب واستنساخها . وكان لباسه
البياض ولا يبلغ جميع ما عليه دينارين . ويركب معه غلام وركابى ، ولا يمكن أحداً أن يصحبه . قيل وكان
ضعيف البنية رقيق الصورة ، له حدة يغطيها الطيلسان . وكان فيه سوء خلق ، يكمد به نفسه ولا يقر أحداً
به . وكان يجلب أصحاب الأدب ويكرمهم ويعاونهم ، ويؤثر أرباب البيوت الغرباء ، ولا ينتقم من أعدائه :
فإنما أن يحسن إليهم ، أو يقتصر على الأعراض عنهم إلخ .

فانظر إلى قوله « وكأنه يكتب بجملة أعضائه » كيف أنها تصور لنا القاضى الفاضل حريصاً على انقائ
عبارته ، وإخراجها قطعة من نفسه ثقة بأن طريقته فى الكتابة محتاجة إلى كل هذا الجهد .

(٣) الروضتين : (ص ٩٨ ج ١) .

أوائلها وإن جاء آخرها . وليس ذلك إلا لحظوته بالدولة الناصرية التي كسته حبرا ،
وقلدته دررا . ودونت له من المحامد سيرا .

وقيض الله من الخادم ولما يواصل يومه في طاعتها بأمره ، ولا يرى إلا ومن
نفسه في خدمتها رقيب على نفسه . وطالما سعى بين يديها بمساع تغص بأخبارها محافل
القوم ، ويقال له فيها ما ضرك ما صنعت بعد اليوم . وقد سلفت منها آيات تتمايل في أشباهها
وأضرابها ، واستؤنف لها الآن واحدة تدعى بأمر كتابها ؛ وهي فتح بيت المقدس الذي
تفتحت له أبواب السماء . وكثرت بأحاديث مجده كواكب الظلماء ، واسترد حق
الإسلام ، وطالما سعت الهمم في طلبه بالزاد والماء . ومن أحسن ما أتى به أنه آنس
قبلته الثانية بقبلته الأولى ، وأطال منه كل ما قصرته يد الكفر وكانت هي الطولى ؛ وبه
صح لهذا البيت معنى اسمه ، وانتقل إلى الطهارة ونزاهتها عن الرجس ووصمه .

ثم وصف ضياء الدين حركة الزحف وعمل المجانيق بقوله : « وانفق الرأي على
لسان المنجنيق في خطبة عقيلية أبلغ خطابا ، وأدنى من المطلوب طابا ، وأنه إذا ضرب
بعصاه الحجر انبجست عيون أهله دما ، كما انبجست عيون الحجر ماء » .

ووصف الكاتب تقدم السلطان للقتال ، ومن ورائه عزائم الجند الذين معه ثم قال :
« ولم يكن قتاله بالسهم التي نهايتها أن تصف أجنتها للطار ، وتنال كلومها من
فوق الأسوار . بل بالسيوف التي إذا جالدت بلدا أخذت بكظمه ، وتوغلت في هجمه ،
وأغنت بسرعة خطوتها إليه عن المنجنيق وإبطاء هدمه .

وكانت وجوه المؤمنين في هذا المقام أحظى بلباس الإشراف ، وأتم بدارا والبدور
لا يكون تمامها في المحاق ؛ ولم يستشهد منهم إلا عدد يسير لم تدخله لام التعريف ،
وكانت أجنحة الملائكة تطيف بهم فأكرم بالمطاف والمطيف . وقد أسعد الله أولئك
بالشهادة التي هي الفوز الأكبر ، وقرنها بإدناء مضاجعهم من الأرض المقدسة التي هي
أرض المحشر ؛ فما يسرهم أن يعودوا إلى الدنيا إلا للاستزادة من ثواب الجهاد ، وأسر
من ذلك أن أرواحهم في حواصل طير خضر تعلق ^(١) من ثمار الجنة إلى يوم الميعاد .
ووصف العماد خضوع الصليبيين وإذعانهم ورغبتهم بعد ذلك في دفع الفدية ، ثم قال :

(١) تعلق أى تأكل من ثمار الجنة — أى تأكل وتجنزىء بالعلقة وهي الباغصة من الطعام .
النهاية لابن الأثير .

« ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار ، زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار ، واشتق من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار . وزاده نفرا إلى نفه أنه في تلك الأرض وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوى الذى كان موعده ، ومن صخرتها مصعده ، وذلك هو الإسراء الذى ركب إليه ظهر البراق ، واستفتح له أبواب السبع الطباق ورقى فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم ، فظفر خير ملقى بخير لاق . وبركة ذلك اليوم سرت إلى هذا فأطالت من شهرته ، وضمنت نصره الدين الحنيف الذى لله عناية بنصرته ، وجعلته تاريخا يؤرخ بفتحه ، كما أرخ للنبي صلى الله عليه وسلم بدار هجرته ، ومن هذه الرسالة أيضا قوله :

« ولما رأوا طلعة الإسلام داخلية عليهم أعلنوا بالجوار ، واصطرخوا جميعا كما يصطرخون غدا في النار ؛ وزادهم غيظا إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة ، وقد صار الناقوس أذانا ، وكلمة الكفر إيمانا ، وأقيمت الجمعة وهى أول جمعة حظى الأقصى بمشهدها ، وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها : فمن باك بدمعة سروره الباردة ، ومن يحيل نظرة في نعمة الله الواردة ، ومن شاكر للزمن الذى أبقاه إلى يومه هذا الذى كل الأيام له حاسدة :

من كان مولده تقدم قبله أو بعده فكأنه لم يولد

ثم قال :

« وجيء باللواء الأسود فركز من المنبر في أعلاه ، ونطق لسان حاله فقال : من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مولاه فأنا مولاه . ولم يكن لسان الخطيب بأفصح بيانا من لسانه ، غير أن هذا يزهى ببلاغ موعظته وهذا يزهى بعزة سلطانه . ولما ذكرت سمات الخلافة المعظمة أتبعها الناس بالدعاء الذى ملأ المسجد بعجيجه ، وسبق الكرام انكاتبون بزمله إلى السماء ووشيجه ، وكان اليوم فصلا ، والموقف حفلا ، وذلك الدعاء فرضا لا نفلا .

ومنها قوله :

« واستوطن المؤمن مكان الكفور ، وبدلت الظلمات بالنور ، وقالت الصخرة الآن جمع بينى وبين الحجر الأسود لخاطب الإسلام ، والجمع بين الأختين في هذا الأمر من الحلال لا من الحرام ،

ومنها :

« ولو أتيح للقلم الخيلاء في مقام المقال ، كما أتيح لصاحبه في مقام القتال ، لا ختالت مشيته في هذا الكتاب ، ولقال وأسهب فليس الإكثار هنا من الإسهاب . ولسكنه منعه من ذلك أن يكون ممن غر بعمله فأبطله ، وأرسل خطابه إلى الديوان العزيز ، فلم يقبضه بالأدب حين أرسله ... الخ

ومن السهل على القارئ أن يرى في رسالة ضياء الدين بن الأثير ما رآه في رسالة العماد ، من الحرص على السجع ، والاسراف في التجنيس ، وإيثار ما يسميه البلاغيون « بالتوجيه » ، كما في قوله : وقالت الصخرة الآن جمع بيني وبين الحجر الأسود مخاطب الإسلام ، والجمع بين الأختين في هذا من الحلال لا من الحرام ؛ وهو توجيه منقول من الفقه ، أو تورية منه .

ثم أن الموازنة بين هاتين الرسالتين معا وبين رسالة الفاضل ، تدلنا على أن العماد كان أكثر تعلقا بالطريقة الفاضلية ، وأشد أخلاصا لها . كما تدلنا على أن عبد الرحيم أبعد الثلاثة عن السهولة في تأليف الكلام ، أو البساطة في تحبير العبارة ، وعلى أن ضياء الدين بن الأثير منافس خطير للقاضي الفاضل نفسه .

ولنا أن نقارن بين ما كتبه الأول - وهو عبد الرحيم - في وصف المجانيق وعملها في هدم الأسوار ، وبين ما كتبه كل من العماد وضياء الدين بن الأثير في وصف هذه المجانيق ، فسرى أن الأخير اكتفى بوصف المنجنيق بأن له لسانا بليغا في الأداء ، وأن له عصا تضرب في الحجر فيتفجر منه الماء ، كما انفجرت عيون أهله بالدماء . وأما عماد الدين فيصف أحجار المنجنيق بأنها أنزلت الضرر بالأسوار ، وبأنها هتمت ثنايا الأبراج ، وبأنها أقامت على الكفار حد الرجم ، وبأنها أضرت بشرفات السور ، وألحقت الأذى بثناياه ، وبأنها كشفت عن عروس البلد بعد أن هدمت الأسوار التي كانت تحجبها عن الناظرين ، إلى آخر هذه الأوصاف التي تذكرنا بالأوصاف التي أتى بها الفاضل في رسالته .

على أنه لم يزل هناك فرق بين الفاضل والعماد ، وهو أن الأول أطول نفسا في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأنه أكثر استقصاء للمعاني ، وأصبر على تجسيم الجمادات ، وأنه أبسط قوة ، وأظهر قدرة على إلباس هذه المعاني ثياب الأشخاص ، والتحدث

اليها كأنها ذات عقول وأرواح . وذلك ما قصدنا إليه من قولنا إن الفاضل أبعد الثلاثة عن الأسلوب الطبيعي الذي لا تكلف فيه ، وإن أسلوبه أقرب الثلاثة إلى الخلق والإبداع ، وأشد إمعانا في دائرة الفن بمعنى الترف في التعبير . بل ذلك أيضا ما قصدنا إليه من القول في أول هذا الفصل ، بأننا من كتب القاضى الفاضل أمام نثر أكثر من الشعر كلفة ، وأحق منه باسم « الفن الرفيع » ، وهو اللفظ الذي كثر دورانه في العصر الحديث

على أن هناك طائفة أخرى من الرسائل الإخوانية المنسوبة إلى القاضى الفاضل ، ليس فيها هذا القدر من التكلف ، ولا هذا الإبداع في الكتابة ، ولا هذا الحظ من المحسنات البديعية على اختلافها . وهى الرسائل التى كان يبعث بها عبد الرحيم إلى صديقه ومولاه صلاح الدين ، فى المحنة التى وقع فيها هذا الأخير ، عقب الحملة الصليبية الثالثة . وهنا ، أعنى فى هذا المقام ، لم تسكن كتابات الفاضل للترف ولا للأناقة ، وإنما كانت رسائله فى تلك الحالة للضرورة أو للحاجة . فقد كان عليه أن يشارك السلطان فى أحزانه ، وقد كان عليه أن يقوى من عزيمته على المضى فى القتال . وإذا ذاك يكون من حق الفاضل أن يدع الفن والزينة جانبا ، وأن يعمل فى هذه الرسائل قلبه - لا عقله - إعمالا من نوع خاص ، وأن يسرع فى كتابتها ، لأن الظرف لا يحتمل الإمهال . والحق إن هذه الرسائل الفاضلية التى نأتى على بعضها الآن لتسُّ الوجدان مساقويا جدا ، وتؤثر فى المشاعر تأثيرا خاصا .

تذكر أنه أتى إلى الفرنج نجدتان ؛ إحداهما قريبة من إخوانهم بالشام ، والأخرى بعيدة من وراء البحار ، على حين أن المسلمين أنفسهم كانوا قد تعبوا من حمل السلاح ، وطلبوا من السلطان دستورا أو إجازة من القتال . فاجتمعت هذه المصائب كلها على السلطان صلاح الدين وخارت قواه ، وفعل الحزن به فعلا كاد يذهب بصبره وحلمه لولا لطف الله ، ولولا رسائل صديقه القاضى الفاضل التى كانت شفاء لصدره ، ومن هذه الرسائل قوله (١) :

« ... وما تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة ،

والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغنى بالزيادة مع الغنى ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه ، وضياح الفرصة ، واختلاف الرأى بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الألسنة بالآراء ، وبخل الأيدى بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس فى الراحة ، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظفروه ليسكون لهم عذرا فى القعود ، وكتمه المولى عن نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ؛ فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر ؛ ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العُرا ، لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوك غير الله ينصرها . وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها . فليس إلا التجرد للدعاء ، والتجملد للقضاء ، فلا بد من قدر معقول ، ودعاء مقبول . ومن الأمثال المنظومة :

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا
ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وأن يسلم على أيدينا القدس ثم ينصره . ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر . وإذا كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل المولى لا بد منه ، وهول لقاء الله سبحانه وتعالى ، فلأن نلقاه والحجة لنا ، خير من أن نلقاه والحجة علينا ^(١) . فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره . فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم .

وهذا دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بثروة . إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، واشتدى أزمة تنفرجى ، والغمرات تذهب ثم لا تجى ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية الكرب ، ونستغفر الله العظيم ، فانه ما ابتلى إلا بذنب .

ثم حدث أن انهزم المسلمون للصليبيين هزيمة كبيرة فى عكا — كما رأينا — فازداد حزن السلطان ، ووصلت إليه فى أثناء ذلك أنباء المسلمين المحاصرين فى عكا ، وقد أفناهم المرض والجوع والوباء ، وأنت سيوف الأعداء ، فأجهزت على البقية الباقية منهم

(١) أى إذا تقدم جنود السلطان إلى الموت قبله ولم يبق له جنود يحارب بهم ، فذلك أبلغ لحجته أمام الله .

وبلغ ذلك السلطان وهو في مخيمه ، فصاح من فوره قائلا :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي !

هنا - كان على الفاضل أن يعجل له برسائله المهدئة ، بل بتلك الرقي التي كانت تفعل في نفس السلطان فعل السحر ، وترده إلى شيء من الطمأنينة والصبر . فانظر إلى إحدى هذه الرسائل وفيها يقول الفاضل (١) :

« . يا مولانا ، أليس الله تعالى اطلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ، ولم يستصلح ، ولم يسهل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبيلة موحيه إلا أنت ؟

هذا - وفي الأرض من هو للنبوة قرابة ، ومن له المملكة وراثه ، ومن له المال كثرة ، ومن له في العدد ثروة ؛ فأقعدهم وأقامك ، وكسلهم ونشطك ، وقبضهم وبسطك ، وحبب الدنيا إليهم ، وبغضها إليك ، وصعبها عليهم ، وهونها عليك ، وأمسك أيديهم وأطلق يدك ، وأغمد سيوفهم وجرد سيفك ، وأشقاهم وأنعم عليك ، وثبطهم وسيرك . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين .

نعم - وأخرى أهم من الأولى : أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، ومزخر البحر ، ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ؛ ولا أموال تنفق فيهم ، ولا ملوك تحكم عليهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعمهم ، مهطوعين إلى الداعي ، ساعين في إثر الساعي ، وهم من كل حذب ينسلون ، ومن كل بر وبحر يقبلون كنت (٢) - يا مولانا - كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ولستك الإسلام للشرك هازم !

هذا ؛ وليس لك من المسلمين مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك إلا بالآجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة . تشتري منهم الخطوات شبرا بذراع ، وذراعا بباع ؛ تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم

(١) نفس المصدر صفحة ١٦٦ . (٢) جواب لقوله (لما) في أول الفقرة .

إلى نفسك ، وتسألهم الفريضة ، وكأنك تكلفهم النافلة ، وتعرض عليهم الجنة ، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم ، والآراء تختلف بحضرتك ، والمشورات تتنوع بمجلسك : فقائل لم لا تتباعد عن المنازلة ؟ وآخر لم لا نميل إلى المصالحة ؟ ومتنهد على فائت ما كان فيه حظ ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد ، مشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق ^(١) المعاملة ، وما كأنها طليعة الجيش ، ولا قفل الدار ، ولا خريزة السلك ؛ إن وهت تداعى السلك ، وانبت في يد الملك ؛ فألهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذل ، والتجلد وتحت قدمك الجمر ، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر :
ولكن مولانا صحيفة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

قليل التشكى اللهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
لا شبهة أن المملوك قد أطل ، ولكن قد اتسع المجال ، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ، ويسره عليه ، وحبه إليه . فرب ممتحن بنعمة ، ورب منعم عليه بمشقة ، وكم مغبوط بنعمة هي دأؤه ، ومرحوم من بلوى هي دوائه . ويريد المملوك بهذا ألا يتغير لمولانا — أبقاه الله — وجهه عن بشاشة ، ولا صدر عن سعة ، ولا لسان عن حسنة ، ولا ترى منه ضجرة ، ولا تسمع منه نهرة ، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها ، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها ، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا — عز نصره — بطرا ، فلا تحدث له ساعات الامتحان ضجرا .

والمملوك يستحسن بيتي حاتم ، ومولانا — أبقاه الله وخلص سلطانه وملسكه — يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذى قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
ومن هذه السكتب الفاضلية أيضا ^(٢) :

« المملوك يوصى المولى بالإسلام ، والإسلام هو قلب المولى ، فيروحه ولا يحمله ويشغله بما يثقله . ويوصى المولى بقلوب المسلمين ، وقلوب المسلمين جسم مولانا ؛

(١) من غلق الرهن كفرح استحققه المرتهن وذلك إذا لم يفك في الوقت المشروط . واستغلقني في بيعته لم يجعل لي خيارا في ردها . المحيط .
(٢) نفس المصدر ص ١٦٨ .
(٣) نفس المصدر ص ١٦٩ .

وقد بلغ المملوك من حمله على نفسه ، ما يخشى على مولانا الإثم فيه ؛ وإنما نتجشم كل مشقة ليسلم منه ، ونحن في ضرر قد مسنا ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلى به ، وفي طوفان فتنة ، ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . ولنا ذنوب قد سدت طريق دعائنا ، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا ، والله قادر لا سلاح لنا في دفعه إلا أن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقد جمع العدو لنا وقيل لنا اخشوه فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل ، متعجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل ، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم . وليس لنا إلا الاستعانة بالله ، فما دلنا الله في الشدائد إلا على أعلى الدعاء له ، وعلى طروق باب كرمه ، وعلى التضرع إليه ، « فلو لا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم » ؛ ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد ، مطرود عن الله ، مقطوع الحظ منه ، ولا حيلة إلا يترك الحيلة ؛ إن علم الله من جند مولانا أنهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم ، فيعذرهم المولى ، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة ، وقصروا في نصرة كلمة الله ، فيكفيهم مقت الله .

ومن هذه الرسالة الأخيرة :

« قيل للهيب : أيسرك الظفر ليس فيه تعب ؟ فقال أكره عادة العجز . ولا بد أن تنفذ مشيئة الله في خلقه ، لا راد لحكمه . فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره ، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور ، خير من أن يجري وهو ساخط موزور ، فيصطلي نارا لشدة — أعاذه الله منها ، ولا يجد راحة الثواب — وفر الله حظه منه . من شكاه بثه وحزنه إلى الله شكاه إلى مشتكى ، واستغاث بقادر ، ومن دعا ربه دعاء خفيا استجاب له استجابة ظاهرة . فلتسكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا ، ولا يقطع الظهور التي لا تشتد إلا به ؛ ولا يضيق صدورا لا تنفرج إلا منه ؛ وما شرد السرى ، وأطال على الأفسكار ليل السرى ، إلا ضائقة القوت بعكا . ولم يبق إلا ضعف نعم المعين عليه ترويح النفس ، وأعفاؤها من الفسك ، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يدبر الدهر إلا برب الدهر ، ولا ينفذ الأمر ، إلا بصاحب الأمر ، وأنه لا يقل الهم إن كثر الفسك :

قد قلت للرجل المقسم أمره فوض إليه تم قرير العين

يا مولانا — هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون ، وسهرت فيها والعيون هاجعة ، وهذه الأيام التي ينادى فيها : يا خيل الله اركبي ، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس ، وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بمائها بل بنارها ، هي نعمة الله عليك ، وغراسك في الجنة ، ومحملات محضرك يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ؛ وهي مجوزاتك على الصراط . وهي مثقلات الميزان ، وهي درجات الرضوان ، فأشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة ، واعلم أن مشوبة الصبر فوق مشوبة الشكر . ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله : لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب . وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار ، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار . ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق . وقد عرف ما جرى في سير الأولين ، وفي أنباء النبيين ، وأن الله تعالى حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدى بهداهم ، ويسلك سبيلهم ، ويقتدى بأولى العزم منهم . وما تغلو الجنة بشمن ! وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا ، وكأن ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم .

وأهم الوصايا ألا يحمل المولى هما يضعف به جسمه ، ويضر مزاجه ، والأمة بنيان وهو — أبقاه الله تعالى — قاعدته ، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق . وما يستحسن من وصايا الفرس : إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة — والعياذ بالله — فلا تجزع . ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه ، مع مقدور الله ، لا نصرف همه ، وكفى خطبه ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه ، قاتلت الملوك بطمعها ، وقاتل هذا بإيمانه . وإذا نظر الله إلى قاب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره ، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته . فهناك الفرح ميعاده ، واللطف ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقل متى نصر الله ؟ ولا يرص عن الله سبحانه ، فإن الراضى عن الله هو المسلم حقا الخ .

وكتب السلطان صلاح الدين إلى القاضي الفاضل بعد هذا كتابا من بلاد الفرنج

يخبره بما لاح له من أمارات النصر ، ويقول له : ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها . فكتب إليه الفاضل يقول : (١)

« فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا ، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه نحيث ، والآثام كانت مكتوبة ثم عفى عنها بهذه الساعات وعفيت . فيكفي مستغفرا لسان السيف الأحمر في الجهاد ، ويكفي قارعا لأبواب الجنة صوت مقارعة الأضداد ، وبعين الله موقفك ، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك ، وطوبى لقدم سعت في منهاجك ، وطوبى لوجه تلثم بمشار عجاجك ، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت ، وإن الخواطر بشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت . . . »

فانظر في هذه الرسائل كلها إلى القاضى الفاضل ، كيف سلك طريقة أخرى في الكتابة ، يوشك ألا يكون بينها وبين رسائله الأولى شبه مما إلا في السجع . بل انظر إليه كيف يهمل هذا السجع نفسه أحيانا ؛ وذلك عندما يورد طائفة من الأمثال العامة بعضها في إثر بعض ، كما في قوله :

« وما تغلو الجنة بثمر ، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر ، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا ، وكأنَّ ما قد كان لم يكن ، ويذهب التعب ويبقى الأجر ، وإنما يقظات العين كالحلم . »

أى درس في الجهاد ذلك الدرس القيم الذى أعطاه الفاضل مولاه السلطان في تلك المحنة التى مرَّت به ؟ وأى فن هذا الذى صدر عنه الفاضل في رسائله ! لا ، بل أى قلب هذا الذى كانت تتنزل عليه تلك المعانى العلوية ؟ لقد كان الفاضل وحده جيشا ثانيا يحارب في المحنة الصليبية .

وانظر إلى هذا الرجل الذى تمثلت فيه ثقافة عصره كلها تمثلا حسنا قد استطاع — فى مهارة وحذق — أن يفيد فائدة كبيرة من هذه الثقافة التى أخضعها لفنه ، وأن يمزج هذه الثقافة نفسها بهذا الفن مزجا خرجت به الطريقة الفاضلية في زينتها ، فبهرت أعين الناظرين إليها ، وجعلتهم ينظرون إلى صاحبها على أنه عاقل الكتابة العربية فى

عصره ، وإلى طريقته في الترسل على أنها كالشريعة المحمدية نسخت ما قبلها من الشرائع ! .
قليل جدا من الأدباء في جميع العصور الأدبية من يستطيعون أن يحلوا الثقافة
التي لهم إلى فن ، كما فعل القاضي الفاضل ، ومن سبقه من أعلام الأدب العربي ، من
لدى أبي تمام الطائي . وهؤلاء الذين وهب الله لهم تلك الهبة يجب أن يتمتعوا دائما بتقدير
الأجيال الأدبية المتعاقبة ، وذلك على الأقل إبقاء على الفن ، وإذكاء لروح الخلق ،
وضنا بالأدب العربي أن يفقد أغلى ما يعتز به ويفتخر على الآداب الأخرى .

تكفلت لك - أيها القارئ - بتحليل هذه النماذج الأدبية ، ولا غاية لي من
وراء ذلك إلا أن تقتنع معي بأن الزينة اللفظية في هذه النماذج لم تكن على حساب
المعنى ، ولو كانت كذلك لحاسبنا عليها أصحابها حسابا عسيرا ، لأننا في سبيل النقد الأدبي
لهذه النماذج ، لا في سبيل التقريظ الذي لا يتفق والمنهج العلمي .

وبعد ، فقد كان على النثر ما على الشعر من القيام بتسجيل الحوادث التاريخية ،
والوقائع الحربية ، التي اشتبكت فيها الجيوش الإسلامية بالجيوش الصليبية ، وكان على
كل واحد من كتاب الدواوين الإسلامية ، أن يبعث إلى ديوان الخلافة حيناً ، وإلى
أمراء الإسلام حيناً آخر ، بالرسائل الطوال ، في وصف كل موقعة من المواقع التي
انتصر فيها ملوك العرب الأبطال ، فهل كان علينا أن نسير في عرض هذه الرسائل
النثرية على النمط الذي اتبعناه في عرض القصائد الشعرية ، تتبع كل موقعة من هذه
المواقع بما كتب فيها من الرسائل ؟ أظن لا - وذلك للأسباب التي شرحناها في
مقدمة البحث ، وقلنا إن من أهمها أن الشعر كان أسهل تعبيراً من النثر ، وكان أدنى إلى
قلب الشعب . ومن ثم اكتفينا بنماذج قليلة لثلاثة من أعظم كتاب تلك الحقبة التاريخية
العظيمة ؛ وهم : القاضي الفاضل ، والعماد الأصفهاني ، وضياء الدين بن الأثير . ولا بد
أن لكل واحد من هؤلاء الثلاثة - بخاصة - ديوانا كبيرا جمعت فيه رسائله التي بعث
بها إلى الديوان ، وإلى أمراء الإسلام ^(١) .

(١) وقد رأيت أننا رجعنا بالفعل إلى ديوان الرسائل الفاضلية ، وعلمنا بوجود قطعة كبيرة من
ديوان الرسائل التي كتبها ضياء الدين بن الأثير . وأما ديوان رسائل العماد فوجوده عندنا مرجح فقط .

على أن الدرس التاريخي البحت لهذه الدواوين النثرية ، وترتيبها بحسب الحوادث التاريخية ، مما يهم المؤرخ أكثر مما يهم الناقد الأدب . فلهؤرخين - متى شاءوا - أن يعمدوا إلى هذه الدواوين ، وأن يرتبوها بحسب الحوادث والسنين ، فإن هذا الدرس والترتيب يفيد كثيرا في استجلاء معالم التاريخ . أما نحن فحسبنا هنا ما صنعناه من نقد طائفة قليلة من تلك الرسائل النثرية الجليلة ؛ وأكبر الظن أن النماذج الأخرى لا تكاد تبين عن خصائص فنية أدبية أكثر مما قد أشرنا إليه .

... وجزى الله كتاب العربية إبان المحنة الصليبية ما يحزى به المجاهدون المثابرون؛ فقد جاهدوا في الله بأقلامهم وأفكارهم ، وتولوا بأنفسهم تشجيع ملوكهم وأمراءهم وقوادهم ، وكانوا لسان الحكومات الإسلامية التي ساهمت في تلك الحروب الدينية . وأدارت دقة السياسة الإسلامية . وقد رأينا أولئك الكتاب الفضلاء يتخذون من ظروف المحنة وسيلة لإظهار فهمهم ، والإبانة عما وهب الله تعالى لهم من القدرة على التعبير بطريقة توافق مزاج العصر ، وتدل - كما رأينا - على أنهم كانوا بحق أصحاب فن خليق بالدرس .

الفصل العاشر

الخطابة والحروب الصليبية

كانت الخطابة الدينية التي يقصد بها إثارة الشعور الديني إبان الحروب الصليبية تسمع - بطبيعة الحال - في صلاة الجمعة ، وصلاة العيدين ، وفي أوقات الفتوح الكبرى ، وأوقات المحن القاسية التي كان يتعرض لها المسلمون على أثر هجوم الصليبيين ، ودخولهم مدينة هامة من مدن الإسلام في مصر أو الشام . وكان المكان الطبيعي لهذه الخطب كلها هو المسجد .

وكثيرا ما كان يعقب الصلاة مجلس كبير للوعظ ، يتولى الكلام فيه إمام كبير من أئمة المسلمين ، فيحضهم على قتال الكافرين ، أو ينقد فيه بعض ملوك المسلمين ممن قصروا في الحرب ، أو تساهلوا قليلا مع الفرنج ؛ كما حدث ذلك في المجلس الذي عقده الملك الناصر داود - ابن عم الملك الكامل - في جامع دمشق ، وندب فيه الإمام العظيم سبط ابن الجوزي ، فقام يندد بالملك الكامل في إعطائه للإمبراطور فردريك القدس .

وهاك مثالا آخر من الوعظ الديني الذي ينسب إلى هذا الإمام الكبير - سبط ابن الجوزي - وكأنه كان جزءا من برامج الدعاية السياسية ، وإثارة الحمية الإسلامية إبان الحروب الصليبية :

« حبس سبط بن الجوزي مرة بجامع دمشق ، ووعظ وحث الناس على الغزاة - وكان الناس من « باب الساعات ، إلى « مشهدين العابدين ، - فذكر حكاية أبي قدامة الشامي مع المرأة التي قطعت شعرها ، وبعثت به إليه ، وقالت له : اجعله قيذا لفرسك في سبيل الله . فاجتمعت عند سبط بن الجوزي شعور كثيرة ، فعمل الجوزي من الشعور التي عنده شكلا لحيل المجاهدين . ولما صعد المنبر أمر بإحضارها فكانت

ثلاث مئة شكال . فلما رآها الناس صاحوا صيحة واحدة ، وقطعوا مثلها . وكان والى دمشق حاضرا ومعه الأعيان .

فلما نزل سبط ابن الجوزى من المنبر قام والى دمشق ، ومشى الإمام وركب ، وركب الناس ، وخرجوا إلى باب المصلى ، وكانوا لا يحصون كثرة ، وساروا إلى نابلس لقتال الفرنج ، فأسبروا وهزموا وقتلوا ورجعوا سالمين غانمين ، (١) .

فانظر إلى هذه الحركة المسرحية البارعة التى قام بها هذا الامام الداعية للحرب ، وقدر فى نفسك إلى أى حد كان لوعظه هذا تأثير عميق فى قلوب المسلمين فى ذلك الوقت ! على أن هذا الوعظ الدينى لم يكن دائما بالمسجد وحده ، بل كان أحيانا فى ميدان القتال نفسه ، وفى الأماكن التى يربط فيها الجند . فكان المسلمون المحاربون إذا وهنوا أو ضعفوا ، أو ثقلت عليهم وطأة العدو ، وبدأ اليأس على وجوههم ، وترك أثره فى عزائمهم وقلوبهم ، فسكر السلطان صلاح الدين فى الأمر ، ودعا لهم بشيخ من كبار الأئمة فى الدولة ، فجلس يعظهم ويذكرهم بآيات الله ، على نحو ما كان يفعل « القاص » ، فى الدولة الأموية أو العباسية . مثال ذلك أنه حين استعاد الصليبيون عكا ، وقوى أمرهم بها ، واستطالوا على السلطان بطلب القدس ، وكان فى جيش المسلمين من دعاة الهزيمة والفشل رجلان من أمرائهم ، هما : ابن المشطوب وأبو الهيجاء السمين ، وكان من رأيهما إذ ذاك أنه لا بأس على السلطان من إجابتهما إلى طلبهم فى استرداد القدس ؛ وذلك حقنا لدماء المسلمين فى ذلك الوقت . فعزّت هذه المقالة على السلطان صلاح الدين ، وشق عليه قولهم ، فجمع أمراءه ليشاورهم فى الأمر ، ويحثهم على مجاهدة العدو ، وكان مجلسا عظيما ، دُعِيَ فيه القاضى بهاء الدين بن شداد للكلام ، فكان بما قال : « إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت فى لقاء العدو ؛ ونحن أولى من يتأسى به صلى الله عليه وسلم ؛ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت ؛ ولعل ببركة هذه النية يدفع هذا العدو » .

فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه ، ثم شرع السلطان — بعد أن سكنت طويلا فى صورة تفكير والناس سيكون كأن على رءوسهم الطير — فقال :

(١) شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلى : ج ٥ ص ١١١ .

« الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ؛ إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته . وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين ، وأموالهم وذرايرهم معلقة بدمكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم . فإن وليتم بأنفسكم - والعياذ بالله - طوى البلاد طيَّ السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم ؛ فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال . فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام . »

فانتدب لجوابه سيف الدين بن المشطوب الذي مر ذكره ، فقال :

« يا مولانا . نحن ممالكك وعبيدك ، وأنت أنعمت علينا وكبرتنا وعظمتنا وأعطينتنا وليس لنا إلا رقابتنا ، وهى بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن نموت ، »

وقال الجماعة مثل ذلك . فانبسطت نفس السلطان ، وطاب قلبه ، ثم انصرفوا ^(١) . فانظر إلى طريقة ابن شداد في التغلب على اليأس الذى استأثر بقلوب الجند ، وتصور كيف كان كلامه شديد التأثير حتى فى نفوس أولئك الذين نثروا بذور الجبن فى قلوب المحاربين ، فما كاد ينفض هذا الاجتماع الخطير حتى استحال أولئك المتخاذلون إلى مشجعين مستبسلين يقولون للسلطان « . . . وليس لنا إلا رقابتنا ، وهى بين يديك . والله لا يرجع أحد منا عن نصرتك إلا أن نموت ، ! »

ومهما يكن من شئ ، فإننا لا نريد أن نبالغ فى وصف هذه الخطب أو الوعظ من الناحية الفنية الخالصة . وإن كنا نعلم علم اليقين أن لها خطرهما الذى لا يدانى من الناحيتين السياسية والدينية كما رأينا . أما خطب القواد - كخطبة السلطان صلاح الدين التى مر ذكرها - فكانت قصيرة بطبيعتها ، ولاحظ لها من الإناقة الفنية ، أو الصنعة الأدبية . وأما وعظ الوعاظ فكان يرتجل ارتجالا ، لا يسمح كذلك بالتجويد والتأنق ؛ وربما كان هذا وحده كافيا لئلا يرتفع كلامهم إلى مستوى الفن بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة .

لقد كان الوعاظ يعتمدون فى نجاحهم على الحركات المسرحية ، التى يأتونها فى مجالس الوعظ ، كالحركة التى قام بها سبط بن الجوزى ، وكانوا يعتمدون على الآيات القرآنية ،

(١) النوادر السلطانية لبهاء الدين بن شداد ص ٢١٢ .

والأحاديث النبوية ، وعلى سيرة الأبطال المسلمين في الغزوات ونحو ذلك ؛ فيتألف لهم من كل ذلك مجلس كبير ، يؤدي مهمته في التأثير في السامعين بنجاح كبير ، منقطع النظير ، وكان السامعون مهيبين لقبول هذا التأثير .

أما الخطب التي كانت لها خصائصها الفنية التي ليس إلى أنكارها من سبيل ، فهي الخطب التي كانت تلقى من أعلى المنابر في أيام المحن أو الفتوح ، إذ كان أصحاب هذه الخطب يعنون بها ، ويتعجبون في إعدادها ، كما يتعجب الشاعر في قصيدته ، والكاتب في رسالته .

وسنكتفي هنا بأن نذكر مثلاً واحداً لهذه الخطب ، ربما يكون فيه غنى عن غيره من الأمثلة . ذلك المثل هو « خطبة القدس » ، وذلك في الجمعة التالية لجمعة الفتح ، إذ كان الفتح في يوم جمعة ، وضاق الوقت يومئذ عن أداء الفريضة .

ومنذ تسامع الناس في سائر الأطراف بهذا الفتح ، توافدوا إلى القدس من كل صقع ، وجاءوا إليه من كل فج . واجتمع من المسلمين عدد عظيم لا يقع عليه الإحصاء ، وامتلات عراض المسجد الأقصى وصخرته بالخلائق من جميع الأرجاء ، واستعبرت العيون ، وخشعت الأصوات ، ووجلّت القلوب ، ورشح جماعة من أكابر العلماء أنفسهم للخطبة في هذا اليوم العظيم ؛ فمنهم من عرض للسلطان بطلب ذلك ، ومنهم من صرح به ، والسلطان ساكت لا يبدى سره . فلما حان وقت الخطبة نص على رجل واحد ؛ هو القاضي محي الدين بن زكي الدين ، وقدمه لهذا الأمر الجليل . فرقى المنبر بالآهة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بليغة قوية ، بدأها بهذه الآيات القرآنية^(١) :

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

« الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » .

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .

وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدن ، وكبره تكبيراً .

(١) مفرج الكرب ج ١ ص ٢٩١ . والروضين ج ٢ ص ١١٠ .

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب .

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .

الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

الحمد لله فاطر السموات والأرض ، .

وهكذا نرى الخطيب آثر أن يبدأ خطبته بثمان آيات قرآنية فيها حمد الله ، لأن المقام كان يدعو إلى ذلك الحمد على ما أنعم الله تعالى به على المسلمين من نعمة الفتح .
ثم قال :

والحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ؛ قدر الأيام دولا بعسده ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ؛ القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينازع ، والأمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع . أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ؛ شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربه . وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله ، رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك ؛ الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وعرج به من السموات العلى ، إلى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى . صلى الله عليه وعلى خليفته أبى بكر الصديق السابق إلى الإيمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، .

تلك هى مقدمة الخطبة التى ألقاها محي الدين من فوق منبر المسجد الأقصى . وهى كما ترى مقدمة جميلة ، توضح قدرة الله الذى آثر بنصره المسلمين ، وتثنى على نبيه وعلى

الخلفاء الراشدين ، وتذكر جند صلاح الدين بأن المسجد الأقصى الذي حاربوا من أجله إنما هو مسرى نبيهم ، والبلد الذي فتحه السابقون من المسلمين بسيفهم . وذلك كله في عبارات مسجوعة ، وألفاظ أهم ما تمتاز به أنها ألفاظ ذات إحياء خاص ، يفهمه المسلمون ، ويستدعي من المعاني العزيزة على نفوسهم الشيء الكثير .

ثم قال الخطيب :

« أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ؛ لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ؛ وردها إلى مقرها من الإسلام ، بعد ابتدائها في أيدي المشركين قريبا من مئة عام ؛ وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ، وإمالة الشرك عن طريقه بعد أن امتد عليها رواقه واستعمر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد ، فإنه بنى عليه ، وبالتقوى بابه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ؛ فهو موطن أبيكم إبراهيم ومعراج ببيكم محمد عليه الصلاة والسلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون إليها في ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومقر الرسل ، ومهبط الوحي ، ومنزل تنزل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها إلى مريم ، وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ، ولم يرحله عن رتبة عبوديته . فقال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله » ، وقال : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » . وهو أول القبليتين ، وثاني المسجدين ، وثالث الحرمين . لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناجر بعد المواطنين إلا عليه . وفي تلك الفقرة من الخطبة حرص الخطيب على أن يبين للسامعين مقدار البلد الذي رده إلى الإسلام ، والضالة التي رجعت إليهم بعد قرابة مئة عام ، والشرف الذي نالوه هذا الفتح ، والكرامة التي أصبحت لهم بعد هذا النصر . وأفاض الخطيب في ذكر فضائل القدس كما رأيت .

ثم قال :

« ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم

بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار . فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية . فجزاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقر بتم به إليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء . فاقدرؤا - رحمكم الله - هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم لهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرَّب به عينا الأنبياء والمرسلون . فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذي تقوم بسيوفهم - بعد فترة من النبوة - أعلام الإيمان . فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء ؛ أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه ، ونصَّ عليه في خطابه ، فقال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا) ؟ أليس هو البيت الذي عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه السكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه وبقره ؟ أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلاً ؟ وغضب عليهم لأجله ، فألقاهم في التيه عقوبة العصيان ؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو إسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين . وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى . فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتهم لهذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطم عن طرقهم فيه

من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث . فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلى عليكم الصلوات المباركات .

وفي الفقرة السابقة تهنئة صادقة من الخطيب للمسلمين عامة ، وجند صلاح الدين خاصة . بدأها بطائفة من العبارات القصصية ، التي تشبه الشعر المجزوء من بعض الوجوه ، بل تشبه الشعر المرقص أيضا . وإن القارىء ليخيل إليه أن المنبر الذى كان يخطب الإمام من فوقه كان يرقص به رقصا حين يقول :

« فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزومات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية . »

ثم يستأنف الخطيب هذه العبارات المرقصة بقوله :

« جددتم للإسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، الخ . »

ثم طلب الخطيب إليهم أن يتوجهوا بالشكر لله الذى خصهم من بين عباده بهذه النعمة ، ورشحهم لهذه الخدمة ؛ بأن جعلهم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم راية الإيمان . وهنا احتاج الخطيب إلى العودة مرة أخرى إلى ذكر فضائل القدس ، وبلغ من ذلك ما أراد ، ثم رجع فخصهم على الشكر لله الذى وفقهم لما خذل فيه غيرهم من الأمم الماضية ، حتى أصبحت حياة المسلمين للبيت المقدس حقيقة واقعة ، لا أمنية باقية ، وأصبح المسلمون خليقين بأن يشكرهم الملائكة المنزلون . وكيف لا يشكرونهم وقد أmapوا عن طريقهم إلى البيت المقدس أذى الكفر والكافرين ، وطهروا هذا الطريق من ضر الشرك والمشركين ؟ ونعود إلى الخطبة نفسها فإذا الخطيب يقول :

« فاحفظوا - رحمكم الله - هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بنقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم فى رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده . وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان ،

فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواطن الجلال . لا - والله - ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقتربوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين .

فانظر إلى القاضي محي الدين بن زكي الدين وقد خاف أن يحدث هذا الفتح العظيم في نفوس الجند غرورا وزهوا كبيرا ، فقال : « وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، ويتداخلكم الطغيان ، فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم في مواطن الجلال . لا - والله - ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم . »

وأكثر من ذلك أنه حذرهم أن يتخذوا من هذا الفتح ذريعة إلى اقتراف المعاصي ؛ يفعلون ذلك دلالا من عند أنفسهم على الله والإسلام ، فيفسدون بذلك النصر الذي من الله به عليهم ، والفتح الذي خصهم به من دون غيرهم ، فيكونون (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، أو كالذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين) .

ونعود إلى هذا الإمام العظيم فإذا به يصل في خطبته إلى قوله :
« الجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم . انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ؛ فقد نادى الأيام بالثارات الإسلامية ، والملة المحمدية . الله أكبر : فتح الله ونصر . غلب الله وقهر . أذل الله من كفر . واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها ، وسيروا إليها عزما نكم وجهنوها . فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها . فقد أظفركم الله بهذا العدو المخدول وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضخى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون . وقد قال الله تعالى : (إن يكن منكم عشرون صابرون

يغلبوا متين) . أعاننا الله وإياكم على اتساع أوامره ، والازدجار بزواجره وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، « إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » .

وفي تلك القطعة التي يختم بها الخطيب خطبته المنبرية الأولى يدعو المسلمين إلى المضى في الجهاد من أجل الدين . ثم يلقي عليهم جملاً كأنها أوامر . ولذلك فصل بعضها عن بعض - في غير موضع للفصل - ليكون كل أمر منها جملة قائمة بذاتها ؛ وذلك حيث قال : انصروا الله ينصركم . اذكروا أيام الله يذكركم . اشكروا الله يزدكم ويشكركم . جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء الخ . ولا شك أنه كان من عناصر القوة في خطبة القاضي محي الدين تلك السجعات القصار التي تفرع ، الأسماع قرعاً قويا ، والتي كان يأتي بها الخطيب من آن لآخر . ومثلها في هذه الفقرة الأخيرة قوله : « الله أكبر . فتح الله ونصر ، غلب الله وقهر ، أذل الله من كفر الخ » .

وجلس الخطيب بعد خطبته الأولى ، ثم نهض بخطبته الثانية ، فقال ما جرت به العادة ، ثم قال بعد الدعاء للخليفة :

« اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامي عن دينك المدافع ، والذاب عن حرملك الممانع ، السيد الأجل الملك الناصر . جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصليبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مظهر البيت المقدس ، أبا المظفر يوسف بن أيوب ، محي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك برياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاهه . اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر في المغارب والمشارق دعوته .

واللهم فكما فتحت على يده البيت المقدس بعد أن ظننت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها ، وملكه صياصي السكفر ونواصيها . فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة ، إلا ألحقها بمن سبقها . اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ في مشارق الأرض ومغاربها

أمره ونهيه . اللهم وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء الممالك وأكنافها .
اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ماسكه على
الأمصار ، وبث سرايا جنده في سبيل الأقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أيوب الملوك
الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم كما أجريت على يده في الإسلام ، هذه الحسنة التي تبقى على الأيام ، وتتخذ على
مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى الذي لا ينفد في دار المتقين ، وأجب
دعاه في قوله : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن
أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » .

ثم دعا الخطيب للمسلمين كافة بما جرى به العرف في الخطب المنبرية ، ونزل فصلياً
بالناس فريضة الجمعة . وكان المنبر الذي ألقيت من فوقه هذه الخطبة هو المنبر الذي أنشأه
نور الدين محمود بن زنكي - رحمه الله تعالى - لبیت المقدس قبل فتحه بنيف
وعشرين سنة ، إذ أمر مهرة الصنّاع في حلب ، فصنعوه على أحسن وجه وأكمله . فلما
فتح صلاح الدين القدس أمر بهذا المنبر فنقل إليه ، وتناصرت الألسن يومئذ بالدعاء
لنور الدين بالرحمة ، ولصلاح الدين بالنصرة ، وعد الناس ذلك من كرامات البطل
الشهيد نور الدين ، الذي رأى بفراسته ، ونافذ بصيرته ، أن القدس يفتح في القريب
العاجل ، ويحتاج الأمر إلى منبر عظيم يليق به ، وقد كان - رحمه الله - لا يشغل قلبه ،
ولا يملأ نفسه غير هذه الغاية الشريفة .

ولما قضيت الصلاة ، نصب سرير للوعظ ، وتقدم السلطان صلاح الدين إلى
« زين الدين الواعظ » ليعظ الناس بحضرته ، « فحلب بعباراته الحلوة العبرات ، وشار
العسل بمعسول الإشارات ، وذكر الفتح وبكارتته ، والقدس وطهارته ، والدين
وجسارته ، والكفر وخسارته ، والقدر وإعانتته ، والظفر وإبانتته ، والصخرة وإصراخها ،
والروعة وإفراخها ، والنار وسراطها ، والقيامة وأسراطها ، والرحمة وبابها . . .
ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله ، والخير ودلائله ، والنجاح ووسائله ، والشرع
ومسائله ، وإحسان السلطان وفواضله ، والدين وحقه ، والكفر وباطله . وكان

يوما راجحا ، وسوما راجحا ،^(١) .

أما الصخرة المقدسة فقد رتب السلطان لها إماما ، ووقف عليها أرضا ودارا وبستانا ، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف . ورتب لها بعض الصوفية . « فما أبهج ليها وقد حضرت الجموع ، وزهرت الشموع ، وبان الخشوع ، ودرت من المتقين الدموع ، واقشعرت من العارفين الضلوع . فهناك كل ولي يعبد ربه ، ويأمل بره ، وكل أشعث أغبر لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره . وهناك كل من يحيي الليل ويقومه ، ويسمو بالحق ويسومه . وهناك كل من يختم القرآن ويرتله ، ويطرد الشيطان ويبطله ، ومن عرفته لمعرفته الأسحار ، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأذكار . وما أسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها ، وتلحق الشمس أنوارها ، وتحمل القلوب إليها أسرارها^(٢) .

ولم تزل هذه الصخرة المقدسة يتبارى ملوك بني أيوب في العناية بها ، والرعاية لها ، فمنهم من يغسلها بماء الورد ، ومنهم من يبذل حولها الصدقات ، ومنهم من يتولى بيده كنسها ومسحها ، تبركا بها ، ومنهم من يزودها بالبسط الرفيعة ، ومنهم من ينفق فيها كل ما يملكه ، ومنهم من يبنى حولها المدارس والربط ونحو ذلك .

تلك الخطب الصليبية التي أتينا في هذا الفصل بواحدة منها ، لم نعرف لها نظيرا في الأدب العربي ، غير خطب ابن نباته صاحب سيف الدولة . وكان ابن نباته الخطيب من أهل ميفارقين ، وهو خطيب حلب ، « وبها اجتمع بأبي الطيب المتنبي في خدمة سيف الدولة بن حمدان . وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ، ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصره سيف الدولة »^(٣) ؛ ذكر ابن خلكان أنه ولد سنة ٣٣٥ هـ وتوفي سنة ٣٧٤ هـ . فكذا أنه لم يتجاوز من العمر تسعا وثلاثين سنة .

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٠٩ نقلا عن كتاب البرق الشامى ، للعماد الأصفهاني .

(٢) نفس المصدر ص ١١٤ نقلا عن الفتح القسى للعماد .

(٣) انظر مقدمة ديوان خطب ابن نباته ص ١٠ نقلا عن ابن خلكان .

وأما ديوان ابن نباتة هذا فمملوء بالخطب الدينية عامة ، وخطب الجهاد خاصة . غير أن أكثر هذه الخطب الأخيرة جاءت مختصرة إلى حد ما ، ولأسنا ندرى أكان اختصارها من ابن نباتة نفسه ، أم كان اختصارها من صنع من عنوا بنشر خطبه من بعده .
ونريد في خاتمة هذا الفصل أن نأتي ببعض نماذج من خطب هذا الخطيب الكبير ، الذي أعان سيف الدولة بلسانه وبيانه ، وذكر القدماء أنه أبلى في ذلك بلاء دونه بلاء غيره برحه وسنانه .

فمن خطب ابن نباتة قوله بعد المقدمة (١) :

أيها الناس ، إلى كم تسمعون الذكر فلا تعون ، وإلى كم تقرعون بالزجر فلا تقلعون ؛ كأن أسماعكم تمج ودائع الوعظ ، أو كأن قلوبكم بها استكبار عن الحفظ ؛ وعدوكم يعمل في دياركم عمله ، ويبلغ بتخلفكم عن جهاده أمله ؛ صرخ بهم الشيطان إلى باطله فأجابوه ، وندبكم الرحمن إلى حقه فخالفتموه ؛ هذه البهائم تناضل عن ذمارها ، وهذه الطير تموت حمية دون أوكارها ؛ بلا كتاب أنزل عليها ، ولا رسول أرسل إليها ؛ وأنتم أولو العقول والأفهام ، وأهل الشرائع والأحكام ؛ تندون (٢) عن عدوكم نديد الإبل ، وتدرعون له مدارع العجز والفشل ؛ وأنتم والله أولى بالغزو إليهم ، وأحرى بالمغار عليهم ؛ لأنكم آمناء الله في كتابه ، والمصدقون بشوابه وعقابه ؛ خصكم الله بالنجدة والبأس ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ؛ فأين حمية الإيمان ، وأين بصيرة الإيقان ، وأين الإشفاق من لهيب النيران ، وأين الثقة بضمان الرحمن ؛ فقد قال عز وجل في الفرقان : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله إلا بشري لكم ولتطمئن به قلوبكم ؛ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » . فقد اشترط عليكم التقوى والصبر ، وضمن لكم المعونة والنصر ؛ أفتمهمونه في ضمانه ؟ أم تشكون في عدله وإحسانه ؟ فسابقوا رحمتكم الله إلى الجهاد بقلوب نقية ، ونفوس أبية ، وأعمال رضية ، ووجوه مضية ؛ وخذوا

(١) انظر ص ١٨٨ نفس المصدر .

(٢) تندون : تتفرون وتنفردون . يقال ندت الإبل : إذا تفرقت خوفاً ، وذهبت على وجوهها . وادرع

المدركة : لبسها .

بعزائم التشمير ، واكشفوا عن رموسكم عار التقصير ، وهبوا أنفسكم لمن هو أملك بها منكم ، ولا تركنوا إلى الجزع ، فإنه لا يدفع الموت عنكم ؛ « ولا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض ، الآية » فالجهاد الجهاد أيها الموقنون ، والظفر الظفر أيها الصابرون ، والجنة الجنة أيها الراغبون ، والنار النار أيها الهاربون ؛ فإن الجهاد أثبت فوائد الإيمان ، وأوسع أبواب الرضوان ، وأرفع درجات الجنان ، وإن من ناصح الله فيه ليين منزلتين مرغوب فيهما ، مجتمع على تفضيلهما : إما السعادة بالظفر في العاجل ، وإما الفوز بالشهادة في الآجل ؛ وأكره المنزلتين إليكم ، أعظمها نعمة عليكم ؛ فانصروا الله ، فإن نصر الله حرز من الهلكات حريز ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ، الخ .

إن أحسن ما نطقت به بلغاء الخطاب ، وأنور ما أضاءت به ظلماء الألباب ، كلام العزيز الوهاب ؛ ثم قرأ : « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض - الآية » .

فتلك خطبة من خطب ابن نباته في الحضر على الجهاد . وهي كما ترى تعتمد اعتمادا تاما على السجع ، وفيها وعظ وزجر ، وفيها حث على الدفاع عن الأوطان ، وهو أمر يقوم به الحيوان ، ذبا عن حياضه ، ودفاعا عن ذماره ، بدون حاجة إلى كتاب من عند الله ، أو رسول يرسله الله تعالى إليه . إلى آخر تلك المعاني المألوفة في الجهاد ، وهي المعاني التي ترى نظائرها في نهج البلاغة ، المنسوب للإمام علي رضي الله عنه .

وهذه خطبة أخرى لابن نباته ، وفيها يقول بعد المقدمة (١) :

أيها الناس ، إن الطرق إلى الله واضحة ، ولسكن طريق الجهاد أقصرها ، وإن فروض السكتاب لازمة ، ولسكن فرض قتال ذوى الإلحاد أو كدها . فما بال الجهاد فيكم مهملا ، وباب الاجتهاد دونكم مقفلا ، كأنكم لا تجدون عن الفشل معدلا ، ولا ترون غير الحياة الدنيا منزلا . يا حسرتنا على نفوس بالذل راضية ، وأمة على غير سمت الهدى راسية أفلا سامع يسمع فيجيب ، ألا نازع يقلع فينيب ، ألا رام يرشق حقيقة الغرض فيصيب . أين أهل العزائم والنيات ؟ أين أبناء الصبر والثبات ؟

أين حلفاء الصوم والصلاة؟ أين ذوو الصدقة والصلات؟ أين المشفقون من سوء
البيات؟ أين المحامون عن الحرم المصونات؟ أين الناظرون بعيون البصائر إلى مصادر
الغايات؟ أين المشتاقون إلى الحور الحسان المخلدات؟ أين الهاربون من ثقل الأوزار
والتبعات؟ أين الطالبون شرف المحيا والمات؟ أين الناشئون تحت خفق البنود
والرايات؟ أين الموفون بالعهود والأمانات؟ أين حُـمَّـال السور والآيات؟ أين
المنعوتون في سورتي الأحزاب والحجرات؟ هيهات هيهات هيهات ، أصبح والله أهل
هذه الصفات ، في بطون الفلوات ، وأصبحتم بعدهم رهائن الشتات ، ضالاً في مهالك
الشهوات ، مستسلمين لحلول المثلات ، أحياء ولكن في الحقيقة كالأموات ،
تسلكون سبيل الفساد ، وتتركون فضل الجهاد ، وتقعدون عن ادخار الزاد ، حتى
يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد ، فأطيعوا رحمكم الله ما تزرعون ، وأنفقوا في
سبيل الله ما تجمعون ، وأقلعوا عما عنه يستقلعون ، وارجعوا إلى مرضاة من إليه غدا
ترجعون ، وتفكروا في الموعدة فعساكم تنتفعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا
وهم لا يسمعون الخ .

ومن خطبة ثالثة لابن نباتة ، وفيها ذكر أخذ الدمستق (١) :

أيها الناس ، اتقوا الله تقوى من أناب إليه ، واحذروا مخالفته حذر من يوقن
بالعرض عليه ، واشكروا نعمه يزدكم من فضله وسعة ماله ، واسألوه التوفيق ، فإن
أزمة الأمور بيديه . . . وانظروا إلى صنيع الله بعدوكم طاغية الروم ، الذي ضلت
في انتظام أحواله ثواقب الأحلام والفهوم ، حين دوخ الأقطار ، وفتح الأمصار ،
وأخرب الديار ، وجاوز في بغيه وعتوه المقدار ، حتى إذا ارتعدت منه فرائص
الاسلام ، وخامت (٢) عنه جيوش الإقدام ، وطاشت لفرقه عقول الانام ، وتقاعست
عن الفتك به صروف الليال والأيام ، ووقع اليأس من دفعه ، لطف الله الكريم لكم
بلطيف صنعه ، وأناه من مأمنه ، وقتله بأنصاره في وطنه ، منه من الله لم تستوجبها
أفعالنا ، ونعمة لم تجل في طريقها آمالنا . فالآن عباد الله فاستديموها بإصلاح السرائر ،
وقابلوها بالاقلاع عن الصغائر والكبائر ، وخذوا على أيدي سفهاكم ، واعرفوا حقوق

علمائكم وكبرائكم ، والزموا طاعة ولائكم وأمرائكم ، وعودوا بالفضل من أموالكم على فقرائكم ، وسدوا ثغركم ، باتفاق أخلاقكم وآرائكم ، يعززكم الله وينصركم على أعدائكم ، واشتغلوا بما ندب الله إليه أيها الغافلون ، ولا تعدلوا عن أمره فتهلكوا كما هلك العادلون ، واحذروا أن يستحوذ على أموركم الأذليون ، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ، الخ .

تلك نماذج من خطب ابن نباتة ، التي اختلف القدماء أنفسهم عليها ، فمن معجب بها غاية الإعجاب ، ومن متقد لها في أمور لا تخفى على قارئ هذه الخطب . فمن المنتقدين لها ابن الأثير في كتابه المثل السائر ، وقد جاء انتقاده لها في موضوعين .

الأول — في باب (ما يسوغ من الألفاظ استعماله للشاعر ، ولا يسوغ للنثر) . وهنا انتقد ابن الأثير على ابن نباتة استخدامه في بعض خطبه لكلمة « اشمخر » ، قائلا إنها كلمة خاصة بالشعر ، كما في قول البيهقي :

شمخر تعلو له شرفات رفعت في رموس رضوى وقوس

والثاني — في باب (السجع) . وهنا انتقد ابن الأثير على ابن نباتة إغراقه في الكلام المسجوع ، إلى درجة أن الفقرتين من كلامه تتحدان في المعنى ، كما تتحدان في القافية ، وليس ذلك هو المراد بالسجع ، وإن كنا حين نتأمل كلام المفلحين من تقدم كالصابي ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وفلان وفلان ، نرى أن أكثر المسجوع منه كذلك ، والأقل منه ما أشرت إليه .

قال ابن الأثير : ولقد تصفحت المقامات الحريرية ، والخطب النبائية — على غرام الناس بهما ، وإكبابهم عليهما ، فوجدت الأكثر من السجع فيهما على الأسلوب الذي أنكرته . فالكلام المسجوع يحتاج إلى أربع شرائط :

الأولى — اختيار مفردات الألفاظ .

والثانية — اختيار التركيب .

والثالثة — أن يكون اللفظ في الكلام المسجوع تبعا للمعنى ، لا المعنى تابعا للفظ .

والرابعة — أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير

المعنى الذي دلت عليه أختها .

أما أبو هلال العسكري ، فذكر خطب ابن نباتة أو أشار إليها في موضعين :

الأول - في باب (الترصيع) حيث قال :

وقد ورد هذا الضرب كثيرا في الخطب التي أنشأها الشيخ الخطيب عبد الرحيم ابن نباتة ، ثم أورد شواهد من كلامه منها :

أيها الناس أسيموا القلوب في رياض الحكم ، وأديموا النحيب على ابيضاض اللمم ، وأطيلوا الاعتبار بانتقاض النعم ، وأجبلوا الأفكار في انقراض الأمم الخ .

الثاني - في باب (التضمين) حيث قال :

وقد استعمل هذا الضرب كثيرا الخطيب عبد الرحيم بن نباتة رحمه الله . فمن ذلك قوله في بعض خطبه :

فيأيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، فما لكم منه لا تشفقون ، فو رب السماء والأرض إنه لحق مثلما أنكم تنطقون . الخ .

. . .

وأما عز الدين بن أبي الحديد صاحب (الفلك الدائر على المثل السائر) فذكر خطب ابن نباتة مرارا في كتابه (شرح نهج البلاغة) ووازن بينها وبين كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ونقل عن سبط بن الجوزي أن خطيب الخطباء - ابن نباتة - كان يحفظ كلام أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، وأن عامة ألفاظه من معانيه الخ .
والخلاصة أن القدماء انتقدوا خطب ابن نباتة في ثلاثة أمور : وهي استخدام الألفاظ الشعرية أحيانا في الخطب النثرية ، والولوع بالسجع إلى درجة الترصيع ، وقد سبق أن رأينا في بعض خطب ابن نباتة أنه أتى بعشرين سجعة ذات قافية واحدة حيث قال : أين أهل العزائم والنيات ، أين أبناء الصبر والثبات . . . إلى قوله : مستسلمين لحلول المثلثات ، أحياء ولكن في الحقيقة كالأموات .^(١)

. . .

أما خطباء الحروب الصليبية الحقيقية فقد كانوا - فيما يظهر لنا - فريقين : فريق يؤثر السجع على طريقة تشبه طريقة ابن نباتة ، وهم الأكثرية الساحقة .

(١) راجع الخطبة الثانية من خطب ابن نباتة ، وهي التي استشهدنا بها في هذا الفصل .

وفريق يعدل عن السجع إلى طريقة الكلام المرسل ؛ وزعيم هؤلاء شيخ الإسلام، عز الدين بن عبد السلام . وإن كنا لا نعرف ذلك إلا بما أثر من القدماء في وصف الأسلوب الذي كان يجرى عليه هذا الإمام .

قال القدماء : « وكانت خطب السلف خالية من السجع ، إلا ما أتى عفوا بغير تكلف ولا تعسف . ولذا ذكروا في مناقب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، أنه ترك السجع في خطبه حين ولي الخطابة »^(١) .

غير أننا — للأسف — لم نعثر بعد على شيء من خطب هذا الشيخ الذي عدل عدولا تاما عن السجع . وإن كنا نعلم من سيرته أنه كان من الجرأة والجسارة والاعتداد بالنفس ، بحيث كان في العصر الأيوبي أمة وحده في كل شيء : في الفقه ، وفي الوعظ ، وفي انتقاد الحكام ، والشدة في مراقبة من كان من هؤلاء تحدثه نفسه بالخروج على حكم من أحكام الشرع . حتى إنه باع كثيرا من أمراء المماليك ، وأنفق الثمن في مصالح المسلمين .

مثل هذا الرجل الجريء ، لم يكن غريبا أن يخرج على هذا التقليد الأدبي المتين ، وهو مراعاة السجع في الكتابة أو الخطابة . ولا ريب عندنا في أنه أطلق قلبه ولسانه من تلك القيود القديمة ، كما أطلق عقله ورأيه وقلبه من تلك المخاوف التي ملأت قلوب غيره من الناس !

...

ومهما يكن الأمر فالذي رأيناه في خطبة القاضي محي الدين بن زكي الدين ، أنها قامت على السجع ، وأن فيها ما في خطب ابن نباتة من الترصيع حيناً ، والاعتباس أو التضمين أحياناً . هذا من حيث الأسلوب أو التركيب . أما من حيث المعاني فلا شك أن خطبة المسجد الأقصى أغزر أفكاراً ، وأعظم حظاً من التنظيم والتنسيق . ذلك أن المقام الذي قيلت فيه خطبة محي الدين بن زكي الدين ، غير المقام الذي كانت تقال فيه خطب عبد الرحيم بن إسماعيل .

أما هذا — ابن نباتة — فكان يقول في مجرد الحض على قتال الكافرين ،

(١) مقدمة ديوان خطب ابن نباتة ص ١٩ نقلا عن ابن أبي الحديد .

— وأما الآخر — وهو محي الدين — فكان يقول في يوم الفتح الذي انتصر فيه المسلمون انتصارا حاسما على الصليبيين في وقعة حطين . وشتان بين المقامين ، وبين حالتى المسلمين المعنوية فى هذين الموطنين .

فمن يدرى أى خطبة تلك التى كان يقولها ابن نباتة إذا قدر له أن يشهد انتصار صلاح الدين فى ذلك اليوم العظيم ، وحضوره المسجد الأقصى لأداء فريضة الجمعة الأولى بعد خروج الصليبيين من القدس .

ومهما يكن شئ فإن القارىء يحس فرقا واضحا بين سجع ابن نباتة ، وسجع محي الدين بن زكى الدين . فسجع هذا الأخير أوقع فى النفس ، وأعلق بالقلب ، وأخف على السمع ، وأمس للوجدان ، وأدل على قوة العاطفة من سجعات ابن نباتة السكثيرة العدد ، المتحدة القافية .

(وبعد) فلم تمدنا المصادر التى رجعنا إليها بعدد آخر من الخطب الصليبية ؛ وإن كنا نحمد الله على أن أظفرنا فى تلك المصادر بهذه الخطبة القوية التى للشيخ محي الدين ابن زكى الدين . ولعلنا نحظى فى المستقبل بعدد آخر من هذه الخطب لتسكون فرصة النقد أتم ، ومادته أغنى ، والحكم لهذه الخطب أو عليها أقرب إلى العدل .

الفصل الحادي عشر

في الفروسية والجهاد

لم يكن المسلمون ليلقوا بأنفسهم في أتون هذه الحرب الدينية الضروس ، إلا وعندهم من الإيمان العميق ما يجعلهم يتحملون ويلايتها ، ويستعينون بأهوالها ، ويركبون أخطارها ، واثقين بأنهم إنما يزدودون عن دينهم وعقيدتهم ، ويدافعون عن بلادهم وعشيرتهم ، ويتقربون بهذا الجهاد زلفى إلى الله ورسوله ، والحياة الصحيحة في نظر المؤمن محبة لله تعالى وجهاد في سبيله .

ولم يكن المسلمون لينهضوا بذلك العبء حتى يكون أمامهم مثل يحتذونه ، وطريق يترسمونه . وقد وجدوا هذا المثل كاملا في القرآن الكريم ، ووجدوا هذا الطريق لأحبا في سنة رسوله العظيم . ثم أتى علماءهم وفقهاؤهم وزعماءهم الروحيون ، فلم يفعلوا أكثر من أن شرحوا لهم آى الذكر الحكيم ، وأحاديث الرسول الكريم ، ومزجوا ذلك كله بسير المجاهدين الأولين ، وتألفت لهم من ذلك كله كتب خاصة ، سموها « كتب الجهاد » ، وهى التى نتحدث عنها في هذا الفصل .

فأما القرآن الكريم فقد دعا إلى الحرب في مئة آية وتسع آيات موزعة بين سور البقرة والتوبة والفتح والعنكبوت والنحل والنساء والأنفال والحديد والحج والأحزاب ومحمد والحشر والصف (١) .

ومن هذه الآيات على سبيل المثال قوله تعالى :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم

(١) راجع كتاب (تفصيل آيات القرآن الحكيم) للأستاذ جون لا بوم — ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي — (انظر ص ٥٨٠) — وانظر أيضا كتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وضعه الأستاذ محمد عبد الباقي تجد أن مادة (جاهد) وما تفرع منها ذكرت في خمس وأربعين آية قرآنية . فليراجعها من أراد .

وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ، الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . . سورة الأنفال

وقوله تعالى :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عسرون صابرون يغلِبوا مِئتين . وإن يكن منكم مِئة يغلِبوا أَلْفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » . سورة الأنفال

وقوله تعالى :

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء وليكن لا تشعرون » . سورة البقرة

وقوله تعالى :

كتب عليكم القتال ، وهو كره لكم ، وعسى أن تسكروها شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » . سورة البقرة

وقوله تعالى :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » . سورة التوبة

وأما كتب الحديث فقد جاءت بطائفة صالحة من كلام النبي عليه الصلاة والسلام في موضوع الجهاد وآدابه ، وفضل المجاهد وثوابه . وقد راجعنا كتاب « مفتاح كنوز السنة » للعالم « ونسك الهولندي » (١) فاذا البخاري أتى بخمسة وخمسين حديثاً في هذا المعنى ، وأتى مسلم بتسعة وستين ، والترمذي بخمسة وأربعين ، وأبو داود بثمانية وثلاثين ، والنسائي بواحد وخمسين ، وابن ماجه باثنين وثلاثين ، وهكذا .

ومن هذه الأحاديث أيضاً على سبيل المثال :

عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله عليه وسلم فقال : داني على عمل يعدل الجهاد . قال لا أجده . ثم قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل

(١) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية كذلك الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . راجع الترجمة —

مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر (١) ؟

يريد الرسول بذلك أن يقول إن فضل المجاهد في سبيل الله كفضل الرجل القائم لا يفتر أبد الدهر ، الصائم لا يفطر أبد الدهر .

وعن أبي هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المجاهد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله ، كمثل الصائم القائم . وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه ، أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة (٢) .

وعن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها . والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها (٣) .

وعن عبد الرحمن بن جبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار (٤) .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن في الجنة مئة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله . كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض (٥) .

وعن الجاموس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضبا ، ويقا تل حمية ، فرفع إليه رأسه (وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما) فقال : من قاتل لتسكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله عز وجل (٦) .

وكل هذه أحاديث من البخاري .

ومن أحاديث مسلم :

عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه ، مات على شعبة من نفاق » (٧) .

ومن أحاديث النسائي :

(١) البخاري كتاب الجهاد ٥٦ (الباب الثاني) .

(٢) نفس المصدر المتقدم (٣) نفس المصدر باب ٧٣ (٤) باب ١٦

(٥) كتاب ٩٧ باب ٢٢ (٦) كتاب العلم باب ٤٥

(٧) مسلم : كتاب الامارة — حديث ١٥٨

عن سلمان الخير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« من رابط يوما وليلة في سبيل الله كان له كأجر صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطا أجرى له مثل ذلك من الأجر ، وأجرى عليه الرزق ، وأمن من الفتان ،^(١) .
وفي مسند أحمد :

عن ابن عباس قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عليهم وهم جلوس فقال : « ألا أخبركم بخير الناس منزلا ؟ قال — قلنا بلى يا رسول الله . قال : رجل ممسك برأس فرس في سبيل الله حتى يموت أو يقتل ،^(٢) .
وفي رواية أخرى :

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم (تبوك) فقال :
« ما في الناس مثل رجل أخذ بعنان فرسه ، فيجاهد في سبيل الله ، ويحتمل شرور الناس ،
ومن أحاديث الترمذي :

عن كعب بن مرة عن عمرو بن عنبسة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من شاب شربة في سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ،^(٣) .

أما الفقهاء فقد جعلوا في كتب الفقه بابا خاصا بالجهاد . شرحوا فيه آدابه ، ونوهوا فيه بأجر المجاهدين في سبيل الله ، واعتمد الفقهاء في كل هذا — كعادتهم — على القرآن والسنة . واشتهر بذلك نفر من أئمة العصر الأيوبي وعصر سلاطين الأتراك ، منهم عز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وهبة الله بن القفطي ، والنووي ، وابن تيمية ، وابن كثير ، وغيرهم كثير . وما أظننا بحاجة إلى استعراض (باب الجهاد) في كتب الفقه بعد إذ قدمنا للقارئ صورة من الآيات والأحاديث التي اعتمد عليها الفقهاء في هذا الباب

(١) كتاب الجهاد رقم ٢٥ باب ٣٩ . والفتان الشيطان ومنكر ونكير — انظر القاموس المحيط

(٢) مسند أحمد جزء أول ص ٣١٩ (٣) كتاب الجهاد باب ٩

لم يبق - بعد ذلك - إلا أن نشير إلى كتب الجهاد والفروسية التي ألفها علماء ينتمون إلى عصر الحروب الصليبية .

وقد ظفرنا بأسماء طائفة من هذه الكتب ، ننوه منها على سبيل المثال بكتابين في الجهاد ، وآخر في الفروسية . فأما الجهاد فهما ألف فيه :

أولا - كتاب « فضائل الجهاد » للشيخ بهاء الدين شداد . قال إنه ألفه للسلطان صلاح الدين الأيوبي .

قال ابن شداد في كتابه (النوادر السلطانية) يصف السلطان صلاح الدين وحبه للجهاد :

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا في آله ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره به ، ويحثه عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة ، تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحية على برج عكا ، فلو لم يكن في البرج لقتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد . وأنا ممن جمع له فيه كتاباً ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى في فضله ، وشرحت غريبها . وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الأفاضل عز نصره ،^(١) .

ثانياً - « كتاب الاجتهاد في طلب الجهاد » لابن كثير : وهو إسماعيل بن عمر عماد الدين أبو الفداء القرشي الدمشقي الشافعي ولد عام ٧٠١ هـ وتوفي عام ٧٧٤ هـ وكان تلميذاً لابن تيمية ، ولسكنه لم يتفق معه في مذهبه . ومدحه أستاذه وأثنى عليه تلاميذه . وصنف كتباً كثيرة ؛ ومنها كتاب (الأحكام) ، وكتاب التاريخ الذي سماه (البداية والنهاية) ، وكتاب (التفسير) ، وكتاب (طبقات الشافعية) ، وكتاب (مناقب الإمام الشافعي) .

(١) انظر النوادر السلطانية ص ١٦ وما بعدها .

ويحدثنا بروكبان أن للكتاب نسخة خطية بمكتبة كوبريلي بالآستانة رقمها ٨٦٤ . ولكننا لم نصل إلى هذه النسخة .

ومن تصانيفه كذلك هذا الكتاب الذى نحن بصدده الآن ؛ وهو كتاب :
« الاجتهاد فى طلب الجهاد » ألفه إجابة منه لرغبة الأمير (منجك) نائب السلطنة
بالشام ، وقد رغب إليه هذا الأمير أن يكتب له ما تيسر من القرآن والسنة والآثار
الحسنة فى المراقبة بالشغور الإسلامية ، ليرغب أهلها فى ثواب ما أهلهم الله له من
الرباط فى الشغور ، التى هى حفظ حوزة الإسلام .

قال ابن كثير : فأجبت به إلى ما أمر ، لأنه نائب الإمام ، وفيما أمر طاعة لله ولرسوله
عليه أفضل الصلاة والسلام .

ثم قال : وقد كنت جمعت فى ذلك مجلدا بسيطا ، فاختصرت منه منهجا وسيطا .
ثم مضى فى كتابه فأتى فيه أولا بسبع آيات من القرآن ، فيها تحريض على القتال ، بدأها
بالآية الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدا فيكم غلظة ،
واعلموا أن الله مع المتقين » سورة التوبة .
ثم أتى بثلاثة عشر حديثا لرسول الله عليه الصلاة والسلام فى موضوع الجهاد .
ومنها قوله :

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« لأن أربط ليلته فى سبيل الله أحبّ إلىّ من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر
الأسود » .

وعن فضالة بن عبيد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول :

« كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله ، فإنه ينمو له عمله إلى
يوم القيامة ويأمن فتنه القبر » .

وفى صحيح البخارى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخيصة ^(١) إن أعطى رضى ، وإن لم يعط

(١) الخيصة : ثوب معلم من خز أو صوف .

سخط . تعس وانتكس . وإذا شيك^(٢) فلا انتقش^(٣) . طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه . إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة . الخ

وفرغ الإمام من ذلك ثم أتى بفصل ذكر فيه وقعتين كانتا في زمن السلطان زين الدين أبي المعالي شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى ملك مصر وتوابعها عام ٧٦٤ هـ ، وعمره ١٠ سنوات ، فكان الأمير (يلبغا) هو الأتابك الذي بيده أمور الدولة . ثم أتى ابن كثير في كتابه بعد ذلك بفصل تاريخي قصير ، ذكر فيه طرفا من الحروب التي دارت بين المسلمين والروم على الشام ، وكيف فتح البيت المقدس في أيام عمر بن الخطاب ، وكيف بعث معاوية ابنه يزيد في جيش كثيف لمحاصرة القسطنطينية ، وكيف فتح المسلمون في أيام الوليد بن عبد الملك جميع جزيرة الأندلس . وكيف استقرت هذه الممالك في أيدي المسلمين إلى حدود الخمس مئة من الهجرة .

فلما كانت سنة بضع وتسعين وأربع مئة ، وقد ضعفت الدول الشامية والمصرية في الخلافة الفاطمية تدانت الفرنج - لعنهم الله - إلى بعض السواحل فملكوها ، واستمر بيت المقدس في أيديهم نحو من تسعين سنة ، حتى انتزعه من أيديهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة ، واسترد منهم أكثر السواحل البحرية إلا (عكا وصور) . فاقتدى به الملوك بعده ، فاستنقذوا منهم بقية السواحل ، حتى كان آخرها (عكا) فتحها الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون ، وذلك في سنة تسعين وست مئة ، فلم يبق للفرنج في السواحل جليل ولا حقير ، ولا مقدار قطمير ، ولا فتيل ولا نقير ، والله الحمد والمنة وبه ، التأييد والعصمة .

ثم قال ابن كثير :

فزعم الذين كفروا من هؤلاء الفرنج - لعنهم الله بما حدثتهم به أمانهم الكاذبة - أنهم يسترجعون ما كان بأيدي أسلافهم - لعنهم الله - من هذه السواحل المذكورة .

(٢) شيك : دخل جسمه شوكة وهي المعروفة ، أو هي السلاح .

(٣) انتقش : نزعته منه الشوكة بالمنقاش .

وهيهات . كذبت - والله - الظنون ، وخزى الكافرون ، والله حائل بينهم وبين ما يشتهون . . .

وزعم صاحب قبرص - لعنه الله - أنه سيعود ملك بيت المقدس إليهم (ولا سبيل لهم إلى ذلك مرة أخرى) أبداً الأبدين ، ودهر الدهرين .

فأجاب ابن كثير على هذه المزاعم كلها بكتابه ما سماه « بالبشارة » ، وبها ختم الكتاب ، وفيها يبشر جميع المؤمنين بشيء استنبطه من القرآن ومن السنة . فأما القرآن فمن قوله تعالى :

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ، ولتعلمن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأساً شديداً ، فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ، فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما علوا تتيهوا . عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً . »

فذكر تبارك وتعالى أنه سلط على بني إسرائيل - بذنوبهم - عدواً من سواهم فقتل من المقاتلة خلقاً كثيراً وسبى من الذرية جمعا غفيرا . وهذا المسلط عليهم - فيما ذكره أكثر المفسرين - يختصر صاحب العراق . هذا في المرة الأولى كما قال تعالى (فإذا جاء وعد أولاهما) .

ثم ذكر تعالى أن في المرة الثانية أراد الأعداء أن يفعلوا معهم كما فعلوا في أول مرة ، فذكر تعالى أنه رحمهم ، ولم يسلط عليهم عدوهم ، بل أجارهم من ذلك . ثم قال :

« فنحن أيضاً - أيتها الأمة المحمدية - قد ابتلينا في بيت المقدس باستحواذ الأعداء عليه في حدود الخمس مئة سنة ، وأنه استمر في أيديهم تسعين سنة ، حتى أنقذه الله من أيديهم على يد الملك الناصر صلاح الدين يوسف كما تقدم . فليس إليه بعد ذلك سبيل إن شاء الله تعالى .

وأما السنة فقد ثبت في صحيح مسلم وغيره من حديث النواس بن سمعان وغيره

رضى الله عنهم في نزول عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان من السماء على المنارة الشرقية بدمشق. وهي محاصرة بجيوش الدجال وقت صلاة الفجر، وقد أقيمت الصلاة. فيقول له إمام المسلمين: «تقدم يا روح الله» فيقول: «لا»، إنما أقيمت الصلاة لك». فيصلي وراء إمام المسلمين تسكراً من الله لهذه الأمة. ثم يكون عيسى عليه السلام من هذه الأمة بمنزلة الإمام الأعظم، كما ثبت في الصحيحين.

والمقصود أنه قال في حديث النواس بن سمعان «فيوحى الله إلى عيسى بن مريم أنى قد أخرجت عباداً لى، لا يدان لأحد بقتالهم، فخص عبادى فى جبل الخضر عني جبل بيت المقدس — فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله فيهم، فيصبحون فرساً كموت رجل واحد» (١).

فذلك دليل على بقاء بيت المقدس فى أيدي المسلمين إلى ذلك الحين. الخ هذا مثال من كتب الجهاد التى تشير إليها أو نموذج منها، وهى كما نرى لا بد من اشتغالها على آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأخبار تاريخية تتصل بفلسطين، أو بيت المقدس. ولا بأس من اشتغالها كذلك على هذه البشارات التى درج الفقهاء على تبشير المسلمين بها، لعلمهم أن للمسلمين استعداداً كبيراً لقبولها، ورغبة ملحة فى سماعها، واطمئناناً عظيماً إليها.

وأما الفروسية الإسلامية فمن أشهر ما ألفه العلماء فيها: كتاب عنوانه: «الفروسية» للإمام شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب الدمشقي المعروف (بابن القيم) إمام المدرسة الجوزية وابن قيمها. وكان عالماً فقيهاً جرى اللسان، قوى الجنان. وقعت حياته بين عامى ٦٩١ هـ، ٧٥١ هـ. وكان قد غلب عليه حب أستاذه (ابن تيمية) فكان لا يخرج على شىء من أقواله، بل ينتصر له ويحتج لرأيه، ويظهر الإعجاب به. وهو الذى هذب كسبه، ونشر علمه. وكان ابن القيم — فيما يقول ابن كثير — طويل النفس فى مصنفاته يتعانى الإيضاح جهده، فيسهب جداً، وله فى ذلك ملامحة قوية. قال: وكان كثير العبادة لا أعرف فى زماننا من أهل العلم من هو أكثر عبادة منه.

«ولما كان على عقيدة شيخه ابن تيمية، مناصراً آراءه، فقد كان من الطبيعى أن يناله

(٢) لا يدان لأحد بقتالهم أى لا طاقة له. وجبل الخمر: بفتح الخاء: وفروسي: أى هلكى.

ما نال شيخه من المحن ، فحبس معه في المرة الأخيرة بقلعة دمشق ، منفردا عنه ، بعد أن أهين وطيف به على جمل مضروبا بالدرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت شيخه .
بدأ المؤلف كتابه بإثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم سابق بالأقدام ، وسابق بين الإبل ، وسابق بين الخيل ، وشارك في المصارعة ، ورمى بالقوس ، وطعن بالرمح ، وتقلد السيف ، وركب الخيل مسرعة ومعرة ، وحضر نضال السهام ، وصار مع إحدى الطائفتين ، فأمسكت الأخرى ، فصار مع الطائفتين كليهما .

وأتى المؤلف على جميع الأحاديث الدالة على ذلك ، وأشار إلى أهم الأخبار المؤيدة له . وزاد على هذا أن أبا بكر الصديق رآه من المشركين بعلم من الرسول وإذن منه وذكر أن الشارع إنما أباح الرهان في الرمي ، وفي العلم ، وفي المسابقة بالخيل والإبل والأقدام ، وفي المصارعة ، والسباحة ، وحمل الأثقال ، لما في هذا كله من التحريض على تعلم الفروسية ، وإعداد القوة للجهاد ، وهو مذهب أبي حنيفة وابن تيمية خاصة .
ووفق ابن القيم يوضح هذا المذهب ، وأتى - على عادة العلماء - بمناظرات كثيرة تبين وجهتي النظر : فمناظرة في موضوع الرهان والمغالبة ، ومناظرة في أيهما أفضل : ركوب الخيل أم رمي النشاب ؛ فركوب الخيل أفضل بخمس عشرة درجة ، والرمي أفضل بعشرين درجة وهكذا .

وكأنني بالمسلمين في العصور التي نؤرخ لها وهم يقرءون هذه المناظرات ، وفيها أحاديث الرسول في الحضر على ركوب الخيل ، والحضر على تعلم الرماية وغيرها من فنون الفروسية قد أقبلوا عليها ، وربوا أولادهم وشبابهم تربية إسلامية صحيحة من هذه الناحية وكان لذلك أكبر الأثر في انتصارهم على العدو ، وانظر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا » مسافة إلى قوله :

« إن الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة : صانعه المحتسب في عمله الخير ، والرامي به ، والممد به ، فارموا ، واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا .
كل هو باطل . ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته

أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق . ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها — وفي رواية — كفرها .

وفي صحيح مسلم عن عقبة قال :

« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي .

وعن عمرو بن عنبسه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . من رمى بسهم في سبيل الله وبلغ العدو فأصاب أو أخطأ كان له عتق رقبة .

وعن أبي ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مشى بين الغرضين كان له بكل خطوة حسنة .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ستفتح لكم الأرض ، وتكفوا المئونة ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه .

وكان العرب يعتقدون أن كل سهم يقوم مقام رجل ، فإذا كان مع الرجل مئة سهم عد بمائة رجل ، ويرون أن الخصم يخاف من النشاب أضعاف خوفه من السيف أو الرمح .

من أجل ذلك مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا طلحة لإجاده في الرمي . قال :

« صوت أبي طلحة في الجيش خير من فئة ، وكان أبو طلحة من أحسن الصحابة رميا وأشدهم نزعا .

وروى أن قوما كانوا يتناضلون . فقيل يا رسول الله قد حضرت الصلاة . فقال : « إنهم في صلاة ، فشبهه رمي النشاب بالصلاة ، وكفى بذلك فضلا^(١) .

أما الخيل فلها من حديث رسول الله نصيب كبير أيضا . روى النسائي في سننه عن أنس قال : لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل ،

وعن أبي ذر أن النبي قال :

« ما من فرس عربي إلا يؤذن له عند السحر بكلمات يدعو بهن : اللهم خولتني من خولتني من بني آدم ، وجعلتني له فاجعلتني من أحب أهله وماله إليه .

ومن الأحاديث أيضا « أن من ارتبط فرساً في سبيل الله فإن شبعه ، وريه ، وروثه ، وبوله في ميزانه يوم القيامة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ارتبطوا الخيل وامسحوا بنواصيها وأكفهاها . ولا تقلدوها الأوتار ^(١) . »

وحسب الخيل فخرا أن الله سبحانه وتعالى أقسم بها في كتابه . قال تعالى :

« والعاديات صبيحا ، فالموريات قدحا ، فالمخيرات صبيحا . »

وهذا عمر بن الخطاب يعلم الناس الفروسية :

قال علي بن الجعد حدثنا شعبة ، قال : أخبرني قتادة ، قال : سمعت أبا عثمان

النهدي قال ^(٢) :

« أتانا كتاب من عمر بن الخطاب . ونحن بأذربيجان :

أما بعد ، فاتزروا ، وارقدوا ، وانتعلوا ، وألقوا الخفاف ، وألقوا السراويلات ،

وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل . وإياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فإنها

حمام العرب ، وتمعددوا ^(٣) واخشوشنوا ، واخملولقوا ^(٤) ، واقطعوا الركب ،

وانزوا على الخيل نزوا ، وارتموا الأغراض . »

قال ابن القيم : هذا تعليم منه للفروسية ، وتمرين البدن على التبذل وعدم الرفاهية

والتنعم ، ولزوم زى ولد إسماعيل بن إبراهيم ^(٥) . فأمرهم بالانزار والارتداء والانتعال

وإلقاء الخفاف ، لاعتقاد الأرجل الحر والبرد ، فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما . وقوله

« وألقوا السراويلات » : استغناء عنها بالأزر ، وهو زى العرب . وبين منفعتي الإزار

والسراويل تفاوت من وجه ، وهذا أنفع من وجه ، فالإزار أنفع في الحر ، والسراويل

أنفع في البرد ، والسراويل أنفع للراكب ، والإزار أنفع للمشاة .

وقوله : وإياكم والتنعم وزى العجم ، فإن التنعم يخنث النفس ، ويكسبها الأنوثة

والكسل ، ويخون صاحبه أحوج ما يكون إلى نفسه الخ .

وانتقل المؤلف من هذه المناظرات التي أشرنا إليها ، إلى ذكر مظاهر الفروسية ،

(١) أى قلدوها طلب اعداء الدين ، ولا تقلدوها طلب اوتار الجاهلية . وقد تكوك الأوتار جمعاً لوتر

القوس ، ويكون المعنى : لا تجعلوا في اعناقها الأوتار فتختنق (النهاية لابن الأثير) .

(٢) كتاب الفروسية ص ٩

(٣) تمعددوا : أى الزموا المعدية ، وهى عادة معد بن عدنان في أخلاقه وزيه وفروسيته .

(٤) اخملولقوا : من قولهم اخلواق السحاب بعد تفرقه : أى اجتمع وتهباً للطر ، وصار خليقاً له . فالمعنى

تهبوا واستعدوا لما يراد منكم ، وكونوا خلقاء به .

(٥) إشارة إلى الحديث : ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً .

وهي ثلاثة أشياء : ركوب الخيل ، والمسابقة عليها ، ورمى النشاب ، واللعب بالرمح ، ثم دخل مرة أخرى في الرهان أو المغالبة ، وأورد فيها كلاما كثيرا يهتم الفقهاء ورجال الدين ، أكثر مما يهتم النقاد ورجال الأدب . ثم تكلم في السباق ومراتبه وشروطه ، وفي السلاح وصنوفه ، وفي الرمي مرة أخرى وآدابه . وهنا قال ابن القيم : تقدم أن الملائكة لا تحضر من اللهو شيئا إلا الرمي . فينبغي للرماة أن يعلموا مقدار من يحضرتهم ، وهم الملائكة ، فينزلوا بهم منزلة الأضياف ، والكرام يكرم ضيفه ، واللئيم يقابله بخلاف ما يليق به من الإكرام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

فينبغي للمناضل أن يعد رواجه إلى المرمى كرواحه إلى المسجد ، واجتماعه بمن هناك كاجتماعه برؤساء الناس وأكابرهم ، ومن ينبغي احترامه منهم ، ولا يعد رواجه لهم باطلا ولعبا ضائعا ، بل هو كالرواح إلى تعلم العلم ، فيذهب على وضوء ذا كرا لله عز وجل ، عامدا إلى روضة من رياض الجنة ، وعليه السكينة والوقار . فإذا وصل إلى الموضع دخل بأدب وسلم ، ووضع سلاحه ، وحسن أن يصلي ركعتين ، وليس بتحية البقعة ، ولكنها مفتاح للنجاح والإصابة . فالأمر إذا افتتحت بالصلاة كانت جدرة بالنجح ، ثم يدعو الله ويسأله التوفيق والسداد... ثم يخرج قوسه ويتفقددها ، ثم يتفقدسهامه فيمرها على إبهامه ، وينظر ما ينبغي الرمي به ، فإذا وقع على رشق منه ، وهو النذب ، مسحه وتركه ، ثم يوتر قوسه ، ويتفقد وتره ، وينظر في سميته القوس ومخافرها . فإن كانت على الاستواء رمى عليها ، وإن كان فيها اختلاف تجنبها ، فإذا رمى رسيه لم يملكه على خطأ ، ولم يضحك عليه منه . فإن هذا فعل السفلى ، وقل أن أفلح من اتصف به ، ولا يحسده على إصابته ، ولا يصغرها في قلبه ويقول : رمية من غير رام ، ونحو هذا الكلام . ولا يحسن أن يحد النظر إلى رسيه حال رميه ، فإن ذلك يشغله ، ويشوش عليه قلبه ، وينبغي للرماة أن يخرجوا هذا من بينهم ، فإن ضرره يعود عليهم .

فإذا وصلت النوبة إليه قام وشمر كفه وذيله ، وسعى الله ، وأخذ سهامه بيمينه ، وقوسه بيساره ، ووقف على موقفه بأدب ، وسكينة ، ووقار ، وإطراق ، ولباقة ، وخفة ، واستمداد من الحول والقوة بيده ، أن يمدد بالقوة والإصابة ، ويجعل

سهامه بين رجله ، وسية قوسه السفلى على الأرض ، والعليا عند صدره ، ثم يأخذ السهم فيديره على إبهامه ، ويمسك القوس بلباقة ، ويفوق عليها السهم كما ينبغي ، ويعتمد على وسطها ويمد ، فإذا بلغ نهايتها سكن قليلا ، ثم أطلق ، فإذا خرج السهم تأمل موضع وقوعه ، فإن مر سادا حفظ ذلك الوضع والهيئة ، ورعاه كلما رمى . وإن خرج إلى يمين الغرض ، أو يساره ، أو أعلاه ، أو أسفله ، نظر في علة ذلك ، ومن أى شيء حدث ، هل هو من قبل القوس أو الوتر أو السهم أو الريح ، أو من قبل الرامي نفسه . أما من قبضه ، أو عقده ، أو إطلاقه ، أو نظره . فإذا وقع على علة الخطأ تجنبها ، وسعى الله عند كل رمية . فإن أصاب حمد الله وأثنى عليه ، وقال : هذا من فضل ربي . وإن أخطأ فلا يتضجر ولا يتبرم ، ولا ييأس من روح الله ، فخطأ هذا الباب أحب إلى الله من الإصابة في أنواع اللعب سواه ؛ ولا يشتم قوسه ، ولا سهمه ، ولا يده ، ولا أستاذه ، . فإن هذا كله من الظلم والعدوان ، وليصابر الرمي وإن كثرت خطؤه ، فيوشك أن ينقلب الخطأ صوابا ، وليعلم أن الخطأ مقدمة الصواب ، والإساءة مقدمة الإحسان^(١) .

لك أيها القارىء . — إن أردت — أن تعيد قراءة هذه الفقرة السابقة فسترى أنها تشتمل أكثر الأمور التي نطلق عليها في عصرنا هذا (آداب الرجل الرياضي) ، وسترى أيضا أن الفارس الإسلامى لا بد أن يكون بهذه الأخلاق العالية ، والآداب الرفيعة ، والذوق الحسن ، والحس الدقيق ، والفهم المستقيم للحياة الرياضية على وجهها الصحيح ، رجلا مثاليا متزنا من جميع نواحيه .

• • •

تلك الفروسية تعلمها الأوربيون من المسلمين ، وأخذوها عنهم ، وانتفعوا بها في بلادهم ، وظهر أثرها واضحا في أخلاقهم ، وذلك منذ العهد الإقطاعي ، وهو العهد الذى يفخر على غيره من العهود بشيء واحد ، هو نظام الفروسية ، إلى عصرنا الحاضر ، وهو العصر الذى تباهى فيه الأمم الأوربية باهتمامها العظيم بالألعاب الرياضية . وختم ابن القيم كتابه بفصل مدح فيه القوة والشجاعة ، وذم فيه العجز والجبن ،

وأقن في سبيل ذلك ببعض آيات القرآن ، وأحاديث الرسول . منها قوله صلوات الله وسلامه عليه :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

ثم ذكر المؤلف طائفة صالحة من أشعار الحماسة مثل :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعى

ومثل :

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ومثل :

وما مات منا سيد في فراشه ولا ظل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الغضبات نفوسنا وليست على غير الغضبات تسيل

ثم وضح المؤلف معنى الشجاعة والقوة والثبات ، وضرب الأمثال بشجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وثبات أبي بكر رضى الله عنه ، وشجاعة عمر بن الخطاب وصبر آل الزبير وأبنائه ، ورتب الشجعان مراتب : أولها الهام ، فالمقدام ، فالباسل فالبطال ، فالصنديد . وقال إن الناس ثلاثة :

رجل ، ونصف رجل ، ولا شيء .

فالرجل من اجتمع له إصابة الرأي والشجاعة .

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

فإذا هما اجتماعا لنفس حرة بلغت من العلياء كل مكان

ونصف الرجل من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر ، والذي لا شيء من عرى

عن الوصفين جميعا .

قال تعالى في تدبير الحروب أحسن تدبير : يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا

واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا

وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . فأمر المجاهدين بخمسة أشياء ،

ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت ، وإن قلت وكثر عدد عدوها . فهذه الأشياء هى :

الثبات ، وذكر الله سبحانه وتعالى ، وطاعته وطاعة رسوله ، واتفاق الكلمة ، وعدم التنازع ، والصبر .

هذا مثال من أمثلة السكتب التي ألقت في الفروسية ، وهي الموضوع الذي شغل المسلمين في عصورهم المختلفة ، وإن كان المؤلفون الأوائل أدرجوا الفروسية في موضوع أنساب الخيل . ومن أولئك القدماء الأوائل : أبو المنذر هشام بن أبي النصر محمد بن السائب الكلبي النسابة السكوفي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ وله كتاب اسمه (نسب الخيل في الجاهلية والإسلام) .

والهرثمي ، وله كتاب اسمه (كتاب الخيل) ألفه للهامون .
وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ وعنوان كتابه (أسماء خيل العرب وفرسانها) .
والأسود الغندجاني من علماء القرن الخامس ، وعنوان كتابه (خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها)

قال ناشر كتاب (ابن القيم) :

وللدولة الغزنوية والسلجوقية والخوازرية والعثمانية وسائر الأتراك فرسان معروفون في التاريخ . وفي الفروسية كتب مؤلفة ، كانت تدرس في الدولتين البحرية والبرجية ، في طباق القلعة بمصر ، وهي أقدم مدرسة حربية كانت تتسع لاثني عشر ألف تلميذ حربي . وكثير من تملك السكتب في الخزانة التيمورية ، (١) .

والذي نعلمه أيضا أن لعلماء العصور التي تؤرخ لها كتباً كبيرة في موضوع الجهاد والفروسية منها على سبيل المثال :

كتاب لابن الملقن ، واسمه (قصر السيل ، في أمر الخيل) (٢) .
وكتاب (العز والمنافع ، للمجاهدين بالمدافع) ؛ ألفه إبراهيم بن غانم الأندلسي (٣) ،
وكتاب (علوم الفروسية) لبدر الدين رماح ، كتبه المنصور قلاوون (٤) وغيرها كثير .
وقد اطلعنا على أكثر هذه السكتب الأخيرة المخطوطة ، فإذا بها لا تخرج في نهجها

(١) نفس المصدر المتقدم — المقدمة ص ب (٢) مخطوط ٢١٤ فنون حربية .

(٣) مخطوط ٧٤ — فنون حربية (٤) ٤ فنون حربية م .

وطريقتها عن طريقة السكتاب الذى أطلنا عنده الوقوف ؛ وهو كتاب ابن قيم الجوزية . وكلها ثمرة من ثمرات العصر الذى نؤرخ له ، وهو عصر يمتاز — كما رأينا بطابع الصرامة والجد ، فكان من البديهي أن تتفق آثاره الأدبية والعلمية وهذا الطابع وحده دون سواه

وبعد ، فقد كان من أهم مظاهر الفروسية عند المسلمين فى أثناء الحروب الصليبية ، لعبة الصواج ؛ وكان يلعبها نور الدين ومعه كبار قواده ، ورجال دولته ، وفيهم أسد الدين شيركوه ، وأخوه نجم الدين أيوب ، وولده صلاح الدين . وكانوا كلهم يحذقون هذا اللعب ، ويظهرون فيه من المهارة ما يدعو إلى الإعجاب .

قال ابن الأثير يصف طرفا من فروسية نور الدين :

« سمعت جمعا كثيرا من الناس لا أحصيهم يقولون إنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسن منه ، كأنما خلق عليه ، لا يتحرك ولا يتزلزل . وكان أحسن الناس لعبا بالكرة ، وأقدرهم عليها ، لم ير (جوكانه) يعلو على رأسه . وكان ربما يضرب الكرة ، ويجرى الفرس ، ويتناولها بيده من الهواء ، ويرميها إلى آخر الميدان . وكانت يده لا ترى والجوكان فيها ، بل تكون فى كم قبائه استهانة باللعب ،^(١) .

وكم شهد الميدان الأخصر بدمشق نور الدين ومعه أجناده وأبطاله وهم على ظهور جيادهم ، يتقاذفون الكرة بصوالجهم ، فى منظر عجب يجتمع الناس لرؤيته والاستمتاع به . وقد كان فى هذا اللعب وأمثاله رياضة للخيل ورياضة للجند ، وتدريب لهم على تحمل المشاق ، وتمارين لهم على إصابة الهدف . وأهم من هذا كله أنه كان فى نظرهم نوعا من عبادة الله تعالى ، فإنهم كانوا لا يمارسون لعبة ما لمجرد التسلية ، أو ترويح النفس أو الجسم ، ولكن لتقوية الجند الذين عليهم أن يجاهدوا فى سبيل الله ، بأجسام قوية ، وأخلاق قوية ، ونفوس قوية فى وقت معا .

ومن ثم كانت احتفاء الدولة النورية عظيما بألعاب الفروسية عامة ، واللعب بالصواج خاصة ؛ يأخذون أنفسهم فى أثناءها « بالخلق الرياضى » الذى تحدثنا عنه

(١) انظر الروضتين ص ٨ ج ١ نقلا عن ابن الأثير .

وأشار إليه ابن قيم الجوزية في كتابه المتقدم عن الفروسية . فلا على نور الدين أن يغلبه نجم الدين ، ولا على نجم الدين أن يغلبه صلاح الدين ، ما داموا جميعا يؤدون بهذا اللعب حق الله عليهم ، وحق الجهاد الذي يهيئون أنفسهم له .
ولقد قام الأدب الأوربي في كثير من قصصه ورواياته بتمثيل هذا الجانب القوي من جوانب المسلمين الذين ساهموا في الحروب الصليبية ، وهو جانب الفروسية ؛ فملئوا كتبهم بكثير من الحكايات والنوادر التي تدل على مهارة رجل كصلاح الدين ، ومباغ حذقه في ركوب الخيل ، والضرب بالسيف ، وإصابة الهدف ، « ولو كان هذا الهدف خيطا من حرير يطير في الجو » . وجاءت هذه القصص كلها دليلا على إعجاب القوم بفروسية هذا البطل الإسلامي الكبير ، وإعجابهم كذلك (بخلقه الرياضي) الذي ليس له نظير .

ولولا أننا نتحدث عن أثر الحروب الصليبية في الأدب العربي لا الأوربي لأتينا بكثير من الشواهد والأمثلة على ما نقول ، ولألحقنا بهذا الفصل ملخصا لبعض القصص أو الأساطير الأوربية ، التي أمدت الأوربيين بصورة دقيقة للفروسية الإسلامية ، وجاءت دليلا أدبيا — إلى جانب الأدلة التاريخية — على أن المسلمين الشرقيين ، هم الأساتذة الحقيقيون لأوربا في هذا الفن .

ذلك هو « روح الفروسية » عند المسلمين المجاهدين ، وتلك هي الغاية الرئيسية من مزاولتها والاشتغال بها ، واعتبار ذلك جزءا من « الجهاد » الذي فرضه الله عليهم من أجل الدين ، بل « العبادة » التي كتبها الله عليهم كمؤمنين . ولولا نظرهم إلى الفروسية هذه النظرة لما زاولها من رجالهم قوم أتقياء كنور الدين ، يقدمون الاعتبار الديني دائما على أي اعتبار سواه .

ليت الفلك يدور دورته ، فيعود للمسلمين مثل هذا الروح المعنوي القوي ، وتعود لهم الرغبة في مثل هذه الأنواع النافعة من الرياضة الحربية ، وتعود لهم تلك النزعة التي سيطرت على أسلافهم في العصور الوسطى ؛ فإن في ذلك وحده ما يكفي لأن يعيد إليهم عازب مجدهم ، ويرجع إليهم سالف شرفهم ، وتطمئن إليهم زعامة العالم الحديث !

الفصل الثاني عشر

في فضائل البلاد الإسلامية

... ولم يكن المسلمون المجاهدون ليهتفوا بالحرب ، ويتسابقوا إلى السيف ، ويمسكوا بأعنة الخيل ، ويرابطوا بالنهار وبالليل ، إلا وعقولهم قبل قلوبهم مؤمنة بأنهم إنما يذودون العدو عن بلادهم التي اختارها الله أن تكون وطنًا للإسلام، وأرضا يعيش عليها المسلمون وذرايرهم إلى ما شاء الله .

وقد أجمع علماء النفس على أن العقل البشري إدراك ووجدان وإرادة . فإذا أدركت قيمة الأشياء بعقلك إدراكًا ما، شعرت نحوها شعورًا ما، ودفعك هذا الشعور إلى نوع من التصرف ، تقوم به جوارحك إرضاء لمشاعرك ، ونتيجة لاقتناعك بقيمة هذا الذي ظفر منك بهذا النوع من الوجدان .

ولقد كان على العربي الذي اندفع كالسيل يخوض الحرب ، على النحو الذي أتينا في كتابنا هذا على طرف منه ؛ كان عليه قبل أن يخوض غمار هذه الحروب ، ويضحى بنفسه وماله في سبيلها ، أن يدرك قيمة البلاد التي كتب عليه أن يحميها من العدو الخارجي ، وأن يعرف مقدارها في نفسه ونفوس المسلمين من أمثاله ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

ولكن كيف تيسر هذا الإدراك للأمة الإسلامية ؟ ومن الذي أتاهم بهذه الطريقة القوية ؟ أو من الذين قاموا بهذا الدور الخطير ، وهو تعليم المسلمين درسًا في القومية الإسلامية ؟

لقد تيسر هذا كله للمسلمين عن طريق الدين ، والذين قاموا بهذا الدور الخطير هم الفقهاء والعلماء المسلمون . وكانت الطريقة الوحيدة لتعليمهم هذا الدرس الجليل ، هي : الحديث . .

ولا تعجب أن يقوم الحديث وحده بهذه المهمة الكبيرة ، وأن ينهض وحده بهذا العبء الثقيل ؛ فقد نشبت الحروب الصليبية في عصر لا اعتبار فيه لغير الدين ، ولا يصغي

لغير الفقهاء المسلمين، ولا يعبأ بغير ذلك من صنوف العلم ولم تكن العلوم الحديثة التي تعين على فهم الوطنية في عصرنا الحاضر قد ظهرت بعد . ومع هذا قام الحديث وحده - كما قلنا - مقام جميع هذه العلوم ، وأربى تأثيره عليها جميعا في هذه السبيل .

ثم إن الحكومات الإسلامية نفسها في تلك العصور كانت تحفل بالحديث ، وتتسابق في ابتناء المدارس الكبرى لتعليمه وتشجيعه . ويسجل التاريخ أن الملك العادل نور الدين كان أول من بنى دارا للحديث في دمشق ، وأن ملوك الإسلام اقتصدوا به في هذا الصنيع ، فانبثت هذه المدارس في جميع أقطار العالم الإسلامي ، ونمغ في الحديث علماء كثيرون كانوا موضع إجلال الحكومات الإسلامية جمعاء ، كما كانوا موضع تبجيل الشعب الإسلامي في كل مكان ، وعليهم اعتمدت الحكومات في الدعاية للحرب .

وتبوأ رجال الدين عامة - والفقهاء والمحدثون منهم خاصة - هذه المكانة العالية بين الناس والحكام ، فشعروا بأن عليهم واجبا روحيا وعلميا لا يقل في خطره عن الواجب الحربي أو المادي . وبالفعل قام الفقهاء والمحدثون بواجبهم هذا كاملا غير منقوص ، في داخل مدارسهم ، وعن طريق كتبهم التي نشروها بين الناس ، وعلموهم بها دروسا شتى في الحياة والجهاد . ومعنى هذا ، أنه بينما كان الجنود المحاربون يجاهدون بسيفهم في الميدان ، كان العلماء المحدثون يجاهدون بعلمهم خارج الميدان ، فيهيئون الأذهان للاقتناع التام بفكرة الحروب الصليبية ، والنظر إلى كل من ساهم فيها بجهد ما على أنه مجاهد في سبيل الله تعالى^(١) . وتلك هي الخطة التي وضعها ملوك الإسلام كنور الدين وصلاح الدين وخلفاء هذا الأخير من بعده .

وكما كتب العلماء رسائل في الجهاد والفروسية ، واعتمدوا فيها على الكتاب والسنة ، كذلك كتب العلماء رسائل أخرى في موضوع آخر ، يتصل اتصالا وثيقا بالحروب الصليبية ، ونعني به فضائل البلاد الإسلامية . وأهمها في ذلك الوقت الشام ، وبيت المقدس ، ومصر . أما الحجاز واليمن والعراق ، فلم تتجه إليها كثيرا همم العلماء ، لا لشيء إلا لبعدها عن مناطق القتال الذي كان يدور بين المسلمين والصليبيين في تلك الفترة .

(١) راجع في ذلك كتاب الحركة الفكرية في العصرين الأيوبي والمملوكي في مصر للمؤلف .

ومع ذلك فقد سارت السكتب التي ألفت في فضائل هذه الأقطار على نسق السكتب التي ألفت في فضائل القدس والشام ومصر .

وأما الطريقة التي اتبعت في تأليف هذه السكتب فقد سبقت الإشارة إليها ، وهي تتلخص في إيراد الآيات القرآنية ، التي يظن أنها تمتدح كل بلد من هذه البلاد الإسلامية ، ثم الإشارة إلى طائفة صالحة من الأحاديث النبوية التي تتضمن هذا المعنى ، فمن العلماء من يطيل ويسهب ، ومنهم من يوجز ويقل . والراجح أن الطبقة الأولى من هؤلاء العلماء كانوا يسهبون ، وأن الطبقة الثانية منهم كانوا يلخصون ما كتبه علماء الطبقة الأولى ، ويقفون عند هذا الحد .

ولا يزيد في هذا الفصل الأخير من فصول هذا الكتاب أكثر من أن نشير إشارة بسيطة إلى بعض هذه المؤلفات ؛ نأتي بها على سبيل المثال ، ونترك للباحثين من بعد استكمال هذه الدراسة ، متى رغبوا في ذلك .

* * *

فمن السكتب التي كتبها أصحابها في ذكر فضائل بيت المقدس كتاب للقاسم بن عساكر المتوفى عام ٦٠٠ للهجرة ، عنوانه « الجامع المستقصى ، في فضائل المسجد الأقصى » ، ولم نلاحظ بالعثور على هذا الكتاب نفسه ، وإنما عثرنا على مختصر له ، للشيخ برهان الدين الغزاوي ، ^(١) باسم « باعث النفوس ، إلى زيارة القدس الشريف المحروس » . والقاسم هذا هو ولد الإمام المشهور بابن عساكر المتوفى عام ٥٧١ هـ صاحب كتاب « تاريخ دمشق » .

وقد صرح برهان الدين في كتابه بأنه لم يفعل أكثر من أنه اختصر كتاب القاسم بن عساكر ، بعد أن حذف منه الأسانيد خوف الإطالة . ورتبه بعد ذلك على ثلاثة عشر فصلا :

(١) ويسميه كاتب مادة ابن عساكر في دائرة المعارف الإسلامية ابن الفركاح — انظر مجلد أول عدد رابع ص ٢٣٨ . وأما الكتاب المذكور فخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٥١٤ مجاميع ، ٤٢٣ تاريخ

- الأول — في ابتداء بناء المسجد الأقصى الشريف .
- الثاني — في شد الرحال إليه وفضل إتيانه ، ومن أين يدخل الداخل مدينة القدس ، ومن أين يدخل مسجدها الخ .
- الثالث — في فضل الصلاة وفضل الحج إلى مسجد المدينة والمسجد الأقصى الشريف في عام واحد .
- الرابع — في فضل الإحرام في بيت المقدس وفضل الأذان فيه .
- الخامس — فضل الصلاة فيه والصيام .
- السادس — فضل الصخرة وأنها من الجنة .
- السابع — فضل البلاطة السوداء ومن أين يدخل الداخل الصخرة .
- الثامن — في قبة المعراج وباب النبي وباب الرحمة ، ومحراب زكريا ، والصخرات التي في مؤخر المسجد وباب مسكنة ، وباب حطة ، ومحراب عمر بن الخطاب ، وقبة السلسلة ، وباب التوبة الخ .
- التاسع — في ماء بيت المقدس ، وعين سلوان ، وجب الورقة .
- العاشر — في الساهرة ، وفضل من مات في بيت المقدس .
- الحادي عشر — قيمن رأى أن يزور تلك المواضع الشريفة .
- الثاني عشر — في جامع فضائل بيت المقدس .
- الثالث عشر — في فضائل قبر إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم .
- وهاك أمثلة من الأحاديث التي ساقها المؤلف في غضون كتابه هذا . فها قال في الفصل الأول : روى البخارى عن أبي ذر الغفارى قال : قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع في الأرض أولا ؟ قال المسجد الحرام . قلت : ثم أى ؟ قال المسجد الأقصى . قلت : كم كان بينهما ؟ قال : أربعون سنة .
- وبما قال في الفصل الثاني :
- عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجد المدينة ، ومسجد إبراهيم ، ومسجد بيت المقدس . والصلاة فيه — أى بالمسجد الحرام — بمئة ألف صلاة ، والصلاة في مسجدى بألف صلاة ، والصلاة في المسجد الأقصى بعشرة آلاف صلاة .

وروى أبو ذر قال : قلت يا رسول الله ، أخبرنا عن بيت المقدس . قال : أرض المحشر والمنشر ؛ ايتوه فصلوا فيه .

وعن كعب رضى الله عنه قال : إن الله تبارك وتعالى بابيه مفتوح في سماء الدنيا بحذاء بيت المقدس ، ينزل فيه كل يوم سبعون ألف ملك يستغفرون لمن أتى بيت المقدس يصلي فيه .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من زار بيت المقدس محتسبا حرم الله تعالى لحمه وجسده على النار .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما بنى سليمان بيت المقدس سأل ربه عز وجل أن يعطيه ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة :

سأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه ؛ وسأله حكما وعلما لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه ؛ وسأله ألا يأتى هذا البيت أحد يصلى فيه إلا رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؛ وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك .

ومما قال المؤلف فى الفصل الثالث :

عن محمد بن سعيد قال : قلت لعثمان بن عطاء الخراسانى : ما تقول فى الصلاة فى بيت المقدس ؟

قال : نعم — آيته فصل فيه ؛ فإن داود عليه السلام أسسه ، وبناه سليمان عليه السلام ، وبلغه بالذهب والفضة ، وليس فيه شبر إلا وسجد عليه ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، فلعل جبهتك أن توافى جبهة ملك أو نبي !
وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن الخضر وإلياس يصومان كل عام شهر رمضان فى بيت المقدس ثم يتوجهان إلى الحج الشريف .

ومما قال المؤلف فى الفصل الرابع :

عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى ، إلى المسجد الحرام ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ووجبت له الجنة » .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : « من أحرم معتمرا في شهر رمضان من بيت المقدس عدلت عشر غزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .
تلك هي الطريقة التي سار بها المؤلف في كل فصل من فصول كتابه الذي اختصره من كتاب المستقصى ، للقاسم بن عساكر ، كما ذكرنا من قبل .
وأشار المؤلف إلى الآيات القرآنية التي ذكرت في فضل بيت المقدس ، ومنها قوله تعالى :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .
والأرض هنا هي بيت المقدس .
ومنها قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين » .
قال : وهما بيت المقدس .

وانطلق المؤلف في ذكر فضائل هذه البقعة الطاهرة من أرض الله ، فقال :
وفدى الله إسحق على صخرة بيت المقدس .
وقرب نوح القربان على صخرة بيت المقدس .
وشد الله لداود ملكه بيت المقدس .
وألان له الحديد ببيت المقدس .
ومن الله على داود وسليمان ببيت المقدس .
وغفر الله تعالى خطاياهما ببيت المقدس .
ورد الله على سليمان ملكه ببيت المقدس .
وبشر الله زكريا بيجي في بيت المقدس .
وسخر الله الجبال والطير لداود في بيت المقدس .
وأنزل الله على مريم فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف في بيت المقدس .
وولد عيسى بن مريم ببيت المقدس .
ونزلت آياته كلها عليه ببيت المقدس .
ورفعه الله إليه من بيت المقدس الخ .
ومن المکتب التي ألقت في هذا الموضوع نفسه على طريقة المکتب المتقدمة

كتاب بعنوان « مشير الغرام ، إلى زيارة القدس والشام ، ألفه شهاب الدين أحمد بن محمد المقدسى الشافعى المتوفى سنة ٧٦٥ هـ ^(١) .

ذكر فيه فصلا فى أسماء بيت المقدس . وآخر فى الحث على زيارة المسجد الأقصى طلبا للعبادة . وثالثا فى إعلام النبى صلى الله عليه وسلم بفتح بيت المقدس بعده . ورابعا فى أعيان الصحابة رضى الله عنهم بمن زاروا بيت المقدس كعمر بن الخطاب ، وأبى عبيدة ابن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وأبى ذر الغفارى الخ . وخامسا فى فتوح القدس الشريف على يد عمر رضى الله عنه .

وهكذا نلاحظ أن هذا المؤلف خلط شيئا من التاريخ بشىء من فضائل البلاد فى كتابه ، ولكنه لم يتوسع فى التاريخ ، لأن الموضوع لا يتسع لذلك .

وأتى بعد المقدسى هذا علماء آخرون فى عصور متأخرة عن عصر الحروب الصليبية ، كلهم يسمى (المقدسى) وصنفوا فى هذا الموضوع ، واعتمدوا اعتمادا كبيرا على كتب العلماء الذين سبقوهم إليه . ومن هؤلاء على سبيل المثال عالم اسمه (أبو المعالى المشرف ابن المرجى بن إبراهيم) المعروف بالمقدسى ، ألف كتابا أو مجموعا فى فضائل بيت المقدس وقبر الخليل عليه السلام وفضائل الشام ^(٢) ورتبه على نحو مئة فصل من الفصول القصيرة ، فجاء هذا الكتاب الأخير أشبه بموسوعة فى هذا الموضوع .

وقد راجعنا هذه الموسوعة فوجدناها مشتملة على أكثر الأخبار المتصلة بالقدس ، أو الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة فى وصف مناقبه والإشادة به .

وفى فضائل الشام بوجه عام كتب العلماء كتباً شتى بنفس الطريقة التى رأيناها متبعة فى كتب فضائل القدس . ومن هؤلاء أيضا على وجه المثال العالم الحافظ (أبو سعد بن عبد الكريم بن محمد بن منصور بن عبد الجبار) المعروف (بالسمعانى) المتوفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وكتابه بعنوان (فضائل الشام) ^(٣) قال فيه :

عن عبد الله بن حوالة رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤ تاريخ .

(٢) صورة شمسية رقم ٣١٩٤ تاريخ بدار الكتب المصرية .

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية : رقم ٧٤٩ ، ٧٥٠ .

انكم ستجندون أجنادا ، فجند بالشام ، وجند بالعراق ، وجند باليمن .

فقال الحوالى رضى الله عنه : يا رسول الله خر لى .

قال عليكم بالشام ، فمن أبى فيلحق بيمنه ، وليسق من غدره ، فإن الله عز وجل قد تنكفل لى بالشام وأهله . وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم ، ولا تزال طائفة من أمتى منصورة على الناس لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة ، وأوماً بيده إلى الشام . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الخير عشرة أعشار ، تسعة بالشام ، وواحد فى سائر البلدان . والشر عشرة أعشار ، واحد بالشام وتسعة فى سائر البلدان . وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم .

وعن أبى أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنزلت على النبوة فى ثلاثة أمكنة : بمكة ، والمدينة ، وبالشام .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بينا أنا نائم إذ رأيت عمود الإسلام احتمل من تحت رأسى ، فظننت أنه مذهب به ، وأتبعته بصرى ، فحمل به إلى الشام . ألا وإن الإيمان حين تقع الفتن بالشام . »

وعن فاتك الأسدى عن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« الشام سوط الله فى أرضه ينتقم به ممن يشاء » — « الحديث » .

وقالوا لعل بن أبى طالب : « العن أهل الشام . » قال : « لا ، لآنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الأبدال بالشام . بهم يرحم الله جميع أهل الأرض ، وينصرهم على الأعداء ؛ كلما هلك منهم رجل أخلف الله مكانه رجلاً . »

وهكذا أخذ المؤلف يسوق مجموعة صالحة من الأحاديث فى مدح أهل الشام ، إلى أن ختم كتابه بطائفة قليلة من الأشعار فى هذا المعنى . منها قول الشاعر :

ألا ليت شعرى هل أبيت ليلة يورقنى بالغوطين نسيم

وهل يجمعن الكأس شملى بفتية على الدهر منهم نضره ونعيم

وسار العلماء الذين عنوا بمناقب الشام على هذا النهج المتقدم ؛ يأنون بالأحاديث النبوية ، والآيات القرآنية . من مثل قوله تعالى :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » ،
وقوله تعالى :

« ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . »

وقوله تعالى : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم . »

وقوله تعالى : « ونجيناً لوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها . »

غير أن بعض السكتب كانت تأتى بطائفة من الأحاديث النبوية ليست فى السكتب
الأخرى ، وكانت يذكر سندها ، وتعقب برأى المؤلف على قوة السند أو ضعفه . فمن
الأحاديث التى أتى بها الإمام العالم شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد
ابن عبد الهادى المقدسى^(١) فى كتاب له بعنوان (فضائل الشام)^(٢) قوله :

عن نافع عن ابن عمران أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم بارك لنا فى
شامنا ، اللهم بارك لنا فى يمننا » ، قالها مراراً ، فلما كان فى الثالثة أو الرابعة قالوا :
يا رسول الله : وفى عراقنا ، قال : « بها الزلازل والفتن ، وبها مطلع قرن الشيطان » .
قال المؤلف : وهو حديث صحيح رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فسطاط المسلمين يوم
الملحمة بالغوطة إلى جانب مدينة يقال لها دمشق من خير مدائن الشام » ، رواه الطبرانى .
وفى رواية أخرى : « ستفتح عليكم الشام ، فإذا خيرتكم المنازل فعليكم بمدينة
يقال لها دمشق ، فإمها معقل المسلمين من الملاحم ، وفسطاطهم منها بأرض يقال لها
الغوطة » .

ومن الذين كتبوا فى فضائل الشام أبو الحسن على بن محمد الربعى المتوفى
سنة ٥٨٣^(٣) وقد سار على نهج أصحاب السكتب السابقة ، فلا داعى للإطالة بذكره .

أما « مصر » فقد ظفرت كذلك بطائفة من السكتب التى ألفت فى محاسنها وفضائلها ،
وذلك منذ بدأ هذه الحركة المؤرخ المشهور (بابن زولاق) المتوفى عام ٢٨٩ هـ . ثم

(١) لم نعرف بعد تاريخ وفاته (٢) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥١٩ مجاميع

(٣) أنظر فضائل الشام مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٧٨١ مجاميع

استمرت هذه الحركة إلى القرن العاشر الهجري ، حين ظهر كتاب عنوانه (الفضائل الباهرة ، في محاسن مصر والقاهرة) ألفه عالم مشهور (بابن ظهيرة) ، وهو صاحب كتاب آخر من كتب الفضائل ، اسمه (الجامع اللطيف ، في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) .

ولندع هذا الكتاب الأخير ، لأنه لاصلة له بالموضوع الذي نفيض فيه ، ولننظر في الكتاب الأول ، وهو (الفضائل الباهرة ، في محاسن مصر والقاهرة) . قال المؤلف في أوله ، بعد حمد الله تعالى والثناء عليه :

وبعد ، فقد أكثر الناس في المفاضلة بين مصر والشام ، ولم يزالوا يلهجون بها قديما وحديثا . . . وللناس في ذلك كلام كثير ، من نظم ونثر ، وأخبار الإقليمين بحمد الله معروفة مشهورة ، فقد صنف فيها كتب كثيرة مفيدة ، وتواريخ عديدة . . . وفصل الخطاب بين البلدين ، أنه لا مفاخرة بينهما في الفضل الأخرى ، وشرف البقاع ، كما دل عليه النصوص ، من الكتاب والسنة وأقاويل الأئمة .

كيف وبلاد الشام مواطن الأنبياء ومدافنهم ، وبها الأرض المقدسة ، ولم يثبت أنه دفن بأرض مصر نبي . ولسكن المفاخرة تقطع فيما عدا ذلك . ولقد أحسن القاضي الفاضل حيث قال : « إن دمشق تصلح أن تكون بستانا لمصر » . ولا شك أن أحسن ما في البلاد البساتين . . » الخ

ثم قال ابن ظهيرة : ولقد سألتني بعض الإخوان في جمع شيء يتعلق بذلك ، « فذكرت محاسن مصر القاهرة بالخصوص ، وترجيحها على غيرها بالنصوص ، وكل ذلك مع العدل والإنصاف ، والخلو من التعصب والاعتساف ، فإن لي بالإقليمين صلا أصيلا ، وعرقا صالحا نبيلًا ، لأن مولدي ومنشئي قريب من البلاد المقدسة من رض الشام ، وأصول آبائي القديمة من أرض مصر ، والسلام . وإني وإن كنت إلى الأخيرة أقرب ، فالرجوع إلى الحق أوجب ، وذكر الفضائل للنفوس السليمة أطيب . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

أربعة لا تشبع من أربع : عين من نظر ، وأثر من ذكر . وأرض من مطر ، أذن من خبر .

وسميته: « الفضائل الباهرة ، في محاسن مصر والقاهرة » . وانحصر في مقدمة وفصول :

فالمقدمة ، في الحث على سكنى الأمصار العظام ، والترغيب فيها ، وحب الوطن .

عن علي كرم الله وجهه أنه قال :

اسكنوا الأمصار العظام ، فإنها جماع المسلمين ، واحذروا منازل الغفلة والجفاء ،

وقلة الأعوان على طاعة الله تعالى .

وكان كسرى أنوشروان يقول : لا تنزلن بلدا ليس فيه خمس : سلطان قاهر ،

وقاض عادل ، وسوق قائمة ، وطبيب عالم ، ونهر جار .

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من بدا فقد جفا ، وسكان الكفور ،

كسكان القبور .

ولما أشرف الإسكندر على الموت ، أوصى أن تحمل رتمته في تابوت من ذهب إلى

بلد الروم ، حبا لوطنه .

وكانت العرب إذا سافرت حملت معها من تربة أرضها ما تستنشق ريحه ، وتستشفه

وتشربه في الماء ، لتتداوى به من تغير الماء والهواء !

ومن ظريف ما حكى أن ابن عبادة مرض حين ولي (الرقة) ، فما كان ينجح فيه

الدواء ، فقال له طبيبه : سديه تغير الهواء ، فبعث إلى بغداد ، فحمل الهواء في أجرة ،

فكان يفتح في كل يوم في وجهه جرابا حتى يرى .

تلك هي خلاصة المقدمة .

أما فصول الكتاب فكثيرة :

منها فصل في ذكر حدود مصر ، وفصل في ذكر ملوك مصر إلى الوقت الذي عاش

فيه المؤلف ، وهو أوائل الدولة العثمانية . وفصل في ذكر كور مصر المشهورة ، يتخلل

ذلك كله طائفة من الآيات القرآنية التي أشارت إلى مصر ، من نحو قوله تعالى « ادخلوا

مصر إن شاء الله آمنين » ، وقوله تعالى : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي » ،

وقوله تعالى : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوا منها حيث يشاء » . كما يتخلل ذلك

طائفة من الأحاديث النبوية ، نحو قوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستفتحون أرضا

يصح فيها القيراط » . وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض

يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما » .

وقوله صلى الله عليه وسلم : ستفتح عليكم مصر بعدى ، فاتخذوا بها جنذا كشيفا ،
فذلك الجند خير أجناد الأرض ، فقال له أبو بكر : لم يا رسول الله ؟ فقال : لأنهم هم
وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « من أعيته المكاسب فعليه بمصر ، وعليه بالجانب الغربى ،
وقوله صلى الله عليه وسلم : قسمت البركة عشرة أجزاء ، تسعة فى مصر ، وجزء فى
الأمصار كلها . ولا يزال فى مصر بركة أضعاف ما فى الأرض كلها .

وعن عبد الله ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أهل مصر
أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة ،
وبقريش خاصة ، .

وأعقب ذلك فصل فى (دعاء الأنبياء لمصر وأهلها) ، منه قوله :

قال عبد الله بن عمر : لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ، مثل له الدنيا ، شرقها
وغربها ، وسهلها وجبلها ، وأنهارها وبحارها ، وبناءها وخرابها ، ومن يسكنها من الأمم ،
ومن يملكها من الملوك ؛ فلما رأى مصر أرضا سهلة ذات نهر جار ، مادته من الجنة ،
تنحدر فيه البركة ، وتمزجه الرحمة ، رأى جبلا من جبالها مكسوا نورا ، لا يخلو من
نظر الحق إليه بالرحمة ، دعا عليه السلام فى النيل بالبركة ، ودعا فى أرض مصر بالرحمة
والبر والتقوى ، وبارك على سهلها وجبلها سبع مرات ، وقال : « أيها الجبل المرحوم ،
سفحك جنة ، وتربتك مسكة ، يدفن فيها غراس الجنة ، لا خاتك يا مصر بركة ، ولا
زال لك ملك وعز يا أرض مصر ، فىك الخبايا والكنوز ، ولك البر والثروة ، وسال
نهرك عسلا ، كثر الله زرعك ، وأدر ضرعك ، وزكى نباتك ، وعظم بركتك .

فانظر إلى خيال الشعب الإسلامى عامة ، والشعب المصرى خاصة ، كيف امتد فى ثنايا
الزمن حتى أدرك آدم ، وأجرى على لسانه هذه الأنشودة الجميلة فى حب مصر ، وحب
النيل ، وهذا الدعاء الجميل لها . أجل أن العلم لا يطمئن ، ولا يصح له أن يطمئن إلى مثل
هذه الأحاديث ، ولكن الأدب يقبلها ويرتاح لها ، ويستمسك بها ، وينظر إليها
نظرة إلى قصيدة شاعر ألهب حسه حب الوطن ، وملاً قلبه الفخر به ، والإعزاز له .

وأتبع المؤلف ذلك الفصل فصلا عنوانه : « وصف العلماء لمصر ، ودعاؤهم لها ، ثم

فصلا في ذكر من ولد بمصر وكان بها من الأنبياء ، ثم فصلا عنوانه : « عجائب الدنيا » ،
منه قوله : قال الجاحظ وغيره : « عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة ، منها بمصر عشرون ،
وعشر في سائر البلاد » .

وتأتى بعد ذلك فصول ، أحدها في ذكر ما اختصت به مصر دون غيرها من البلاد ،
وفي نهاية قوله على لسان الأئمة : « من دخل مصر ولم يستغن ، فلا أغناه الله » . ثم
فصل في الشهور القبطية ومزية كل شهر ، وفصل في ذكر القاهرة بالخصوص ، وفصل
في ذكر محاسن مصر الكلية الجامعة ، وفصل في مدارسها وجوامعها . ثم ختم الكتاب
بطائفة من أشعار الشعراء في مدح مصر . ومنها قول العلامة زين الدين عمر بن الوردى :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها هم الأنام ، فقابلها بتقبيل
يا من يباهى ببغداد ودجلتها مصر مقدمة والشرح للنيل

وذلك في معارضة قول ابن زريق الكاتب :

سافرت أبغى لبغداد وساكنها مثلا وذلك شيء دونه الياس
هيئات بغداد الدنيا بأجمعها عندي وسكان بغداد هم الناس

فذلك مثل من أمثلة السكتب التي ألفت في محاسن مصر ، على غرار السكتب التي
ألفت في الشام ، وفي القدس مع ملاحظة شيء واحد ، هو أن الكلام عن مصر لا يخلو
من معلومات تاريخية وغير تاريخية تسمح بها البيئة المصرية ، ولا تسمح بمثلها بيئة أخرى
من البيئات الإسلامية ، ذلك بأن مصر بلد ذات تاريخ قديم ، وهذا التاريخ وإن لم
يعرفه الناس معرفة تقرب من الصحة إلا في العصر الحديث ، فقد كانوا يدركونه إدراكا
غامضا في تلك العصور التي تؤرخ لها ، وهو مع غموضه وإبهامه واعتماده على الخرافة
إدراك له قيمته من الناحية الوطنية ، التي تعيننا في هذا البحث .

وغنى عن البيان أنه ليس من وكدنا في فصل كهذا ، أن نستوثق من صحة الأحاديث
النبوية الواردة فيه ، أو نحقق الأخبار التي اشتملت عليه .

فالذي يعيننا من كل ذلك ، هو دلالة على عصية المسلمين لأوطانهم ، وحبهم لها ،
واستعدادهم لنزود العدو الخارجي عنها ، لما لها في نفوسهم من المكانة الدينية ، إلى
هذا الحد .

خاتمة البحث

آن لنا بعد هذه الجولة الطويلة في ميادين الأدب الصليبي ، أن نلخص الرأى الذى تكون لنا فى أثنائها عن هذا الأدب : شعره ونثره ، أو أن نحاول أن نصل إلى التقدير العام لقيمة هذا الأدب ، وللغاية التى كان يهدف إليها .

وإذا شئنا تقدير هذا الأدب الصليبي ، فمن الخير أن نحتكم إلى مقياس من أصدق مقاييس النقد عند الشرقيين والأوربيين على السواء . وهذا المقياس هو مقياس «المذهب العاطفي» ، ويسميه الأوروبيون «بالمذهب الرومانتيكى» ، ويسميه الشرقيون المحدثون «بالمذهب الذوقى» .

وعندى أن من الإنصاف للأدب الصليبي ، أن نقيسه بمقياس المذهب العاطفي ، مادام هذا الأدب نفسه قائما على أساس متين من العواطف الحارة ، التى اشتركت فى الشعور بها جميع الأقطار الإسلامية ، منذ شروعا فى مقاومة الخطر الصليبي .

ومعنى ذلك فى صراحة واضحة ، أن الأثر الإقليمي هنا يجب أن يكون ضعيفا فى جملته فى هذا الأدب الصليبي — أو بعبارة أخرى — لا يصح للباحث هنا أن ينتظر فروقا كبيرة بين الأدب الذى أنتجته مصر فى محنة الحروب الصليبية ، والأدب الذى أنتجته الشام ، أو الأدب الذى أنتجه العراق فى أثناء هذه المحنة .

والسبب فى ذلك واضح كل الوضوح ؛ وهو أن شعورا واحداً كان يسيطر على جميع هذه البيئات الإسلامية على السواء ، وهو شعور الغضب من العدو الأجنبى ، الذى استقر فى بلاد الإسلام ، وشعور الفرح بالقدرة أخيرا على مقاومته ، ثم طرده منها وإجلاله عنها ، وإعادة البلاد إلى أهلها كما كانت من قبل أن يدهمهم هذا العدو .

وفى هذا الظرف الذى كان يسيطر فيه على العالم الإسلامى كله شعور واحد ، كان الأدباء أنفسهم يصدرون فى آدابهم كذلك عن فكرة واحدة ، أو هدف واحد ؛ وهو هدف يتلخص — كما رأينا — فى وجوب الذود عن المواطن الإسلامية عامة ، وعن البيت المقدس خاصة . وإذ ذاك لا يكون ثم مجال كبير لظهور الفروق الإقليمية ، أو التأثيرات التى يخلقها اختلاف البيئات .

ثم لا تنس بعد ذلك أن الأدب الصليبي شعره ونثره ، كان يدور كله حول غرض واحد من أغراض الأدب عامة ، أو باب واحد من أبوابه ، وهو « باب الحماسة » .

والخلاصة إذن أن الأقاليم الإسلامية التي ساهمت في الحروب الصليبية ، وأدب الحروب الصليبية ، كانت تتحد كلها في الفكرة أو الهدف الذي صدرت عنه في هذا الأدب ، كما كانت تتحد كلها في العاطفة أو الشعور الذي عبر عنه هذا الأدب ، كما كانت تتفق كلها في الباب الذي جعلته محورا لجهودها الفنية ؛ « وهو باب الحماسة » .

وعلى الرغم من هذا كله ، رأينا فروقا بسيطة بين الأقاليم الإسلامية التي شاركت في أدب الحروب الصليبية ، بل رأينا فروقا صغيرة أو كبيرة بين شعراء الإقليم الواحد من هذه الأقاليم الإسلامية ، وهذا معنى قولنا في جميع البحوث التي نكتبها ، والمحاضرات التي نلقيناها على طلابنا في الجامعة : إن أخذنا بنظرية الإقليمية في الأدب ، لا يصح أن يكون معناه مطلقا إلغاء ما نسميه بالأصالة الفردية لكل أديب من أدباء هذه الأقاليم عامة ، وكل أديب من أدباء الإقليم الواحد خاصة ، بل مهما بالغنا في قيمة النظرية الإقليمية التي تصدر عنها في بحوثنا الأدبية ، ومهما أقنعنا أنفسنا بصحتها أو بدقتها في تقدير الأدب ، فإنه من الحق علينا دائما ألا نغفل عن هذه الأصالة Originalité التي تميز في نظرنا بين شاعر وآخر ، أو بين كاتب وآخر ، اشتراكا في بيئة واحدة ، وظروف حيوية واحدة .

ومهما يكن من شيء فقد رأينا فروقا ما بين الأقاليم الإسلامية التي شاركت في أدب الحروب الصليبية . وكانت هذه الفروق تطل علينا من حين لآخر ، ثم لا تلبث بعدها أن تذوب في اللون العام لأدب هذه الحروب .

السنا نلاحظ - أولا - أن الأدب الصليبي يختلف في كمه من قطر لقطر ، فقد كان هذا الأدب هزيعا قليلا في العراق ، على حين أنه كان غزيرا وخصبا في مصر والشام . والسبب في ذلك بين لا يحتاج إلى برهان ، وهو أن هذين القطرين الأخيرين هما اللذان نهضا حقا بأعباء الحروب الصليبية . وأما العراق - وهو مقر الخلافة الإسلامية العباسية - فكان موقفه غير موقف مصر والشام من هذه المحنة الإنسانية المؤلمة . ثم السنا نلاحظ - ثانيا - أن هذا الأدب يختلف شكله في قطر ما عنه في قطر آخر .

فقد كان الأدب الصليبي في الشام يميل إلى الزينة اللفظية ، ويسرف إلى الدرجة القصوى في ميله إلى هذه الزينة التي بلغت أوجها على يد رجل كالعماد الأصفهاني ، على حين كان الأدب الصليبي في مصر أقرب في مجموعه إلى القصد والاعتدال في استخدام الزينة اللفظية ، بالقياس إلى أدب الشام ، وهو الأدب الذي يصح أن يكون أقوى من يمثله هو العماد .

والواقع أن أدب هذا الأخير - بوجه خاص - يعتبر مرحلة قائمة بذاتها من مراحل الأدب الصليبي . يساعدنا في الذهاب إلى هذا الرأي أن حياة هذا الأديب طالت ، واقتربت بفترة كبيرة من فترات هذه الحروب ؛ فقد عاش الرجل جنباً إلى جنب مع أكثر أبطالها ، وبقي أدبه من شعر ونثر معبراً عن أكثر وقائعها وأحوالها ، وظل هذا الأدب يمتاز بهذا اللون الذي شاركه فيه الشعراء الآخرون مشاركة ما ، ولكنه - أي العماد - انفرد بالإسراف فيه إسرافاً جعل من حقه أن يحتكره لنفسه ، أو يقصره النقاد عليه .

ثم ألسنا نلاحظ - أخيراً - أن الأدب المصري الصليبي - وذلك باستثناء النتاج الفاضلي وحده ، لظروف سنذكر بعضها - كان فوق ميله إلى القصد في استخدام البديع ، يمتاز في مجموعه بوضوح العبارة وإشراقها ، وبميله إلى السهولة ، وبعده عن التعقيد . وقد ظهرت هذه الصفات كلها بوضوح في شعر المصريين . وحسبك هنا أن تعيد النظر فيما نظمه البهاء زهير أو ابن مطروح - على وجه التمثيل - لترى كيف جنح كل منهما إلى سهولة اللفظ ، ومال كل منهما إلى استخدام التورية في الشعر ، وكان كل منهما واضحاً في تعبيره ووضوح العامة في كلامهم ، والسهولة والوضوح والتورية هي أهم ما كان يمتاز به الأدب المصري ، والعقل المصري في ذلك العصر ^(١) .

وقد رأيت أننا استثنينا أدب القاضي الفاضل من الأدب المصري ، وكان لا بد أن نستثنى أدب رجل كإبن عنين من الأدب السوري ، ونستطيع أن نعثر بين حين وآخر على ضروب كثيرة من هذا الاستثناء الذي نشير إليه . وذلك مصداق ما ذهبنا إليه من أنه ينبغي - حين نضع قاعدة أدبية للنقد ، أو حين نطبق نظرية ما من

(١) راجع في ذلك كتاب الحركة الفكرية في مصر للمؤلف .

نظرياته - ألا نبالغ في اتباع هذه القاعدة ، أو نسرف في تطبيق هذه النظرية ، فنغض النظر هنا عما نسميه « بالأصالة الفردية » .

فاما القاضي الفاضل - ولم نسلكه كما رأيت في الأدباء المصريين الخالص - فقد كان مدرسة وحده في مصر ، وكان من أخلص تلاميذه فيها شاعران : أحدهما مصرى أقام في مصر ؛ وهو ابن سناء الملك ، والثاني مصرى لم يقيم في مصر ، وهو كمال الدين بن النبيه . وأذكر أنى قلت عن القاضي الفاضل في بعض كتبي^(١) : « إن هذا الرجل كان غريبا عن الديار المصرية ، وأنه وفق فيها مع هذا توفيقا يدعو إلى الإعجاب كله ، والتقدير كله ، في إدارة دفتها السياسية ، ودفتها الأدبية . ذلك أن عبد الرحيم البيسانى هذا ينحدر من أصلاب رجال عاشوا في فلسطين ، ثم أتى الى مصر ، والتحق فيها بديوان الإنشاء الفاطمى ، ثم ظهر فيها على مسرح السياسة المصرية والآداب المصرية ، وكتب له النجاح التام في كل ميدان من هذين الميدانين على حدة .

والمهم هنا هو ميدان الأدب ، وفيه نرى عبد الرحيم يسرف في استخدام البديع ، وكان لهذا السبب وحده شديد الإعجاب بأدبه صديقيه العماد الأصفهاني وابن سناء الملك ، وكان عبد الرحيم يشق على نفسه كثيرا في هذا الأدب ، وذلك على نحو يذكر بما فعل أبو تمام في الشعر . فكان أشبه رجل بالنتحات الماهر ، أو الرسام الخاذق ، ينقطع عن الحياة والأحياء ، ليخلو إلى نفسه وفنه ، حيناً من الزمان ، ويخرج بعد هذا كله بقطعة فنية خالدة ، تستحق الإعجاب .

وهذه الطريقة في صنع الأدب طريقة صعبة على نفوس المصريين ، لا يحسنها رجالهم ، ولا تميل اليها أذواقهم إلا بمقدار ما يتفق ذلك والاتجاه العام للأدب في عصر من العصور . وقد كان الاتجاه الأدبي العام وقتئذ نحو البديع . ومن ثم كان على المصريين أن يأخذوا منه بحظ ، ولكن هذا الحظ نفسه ضئيل بالقياس إلى حظوظ غيرهم من أدباء العصر . وهذا كله من حيث الأدب الذى تركه لنا القاضي الفاضل . اما من حيث الأدب الذى تركه لنا ابن عنين فقد رأينا أنه ينفرد من بين أدباء الشام بميزة ظاهرة في أدبه لم يشاركه فيها كثيرون من أدباء وطنه ؛ وهذه الميزة التى انفرد بها ابن عنين هى « جزالة اللفظ » ، وهى جزالة أضفت على قصائده

(١) الإشارة هنا إلى كتاب الحركة الفكرية المتقدم ذكره .

الحماسية لونا من الفخامة والروعة ، وأمدته بشيء كثير من القوة ، ارتفعت بها قصائد ابن عنين الى الصف الاول من صفوف الحماسة العربية كما عرفنا .
ومع ذلك فقد كانت القصائد التي استعرضناها من شعر ابن عنين في هذا الكتاب ليلة في جملتها . وأعتقد أن بقية شعره في ديوانه الذي تم طبعه الآن ، خليق بالدراسة .
وهكذا رأيت أن ابن عنين يقف من أدباء الشام موقفا منفردا ، كما وقف القاضي الفاضل من أدباء مصر موقفا منفردا ؛ فدل هذا وذاك على صحة ما ذهبنا اليه ، من أن الأخذ بالنظرية الإقليمية ليس معناه إغفال النظر عن الأصالة الفردية إغفالا تاما .

* * *

ونريد بعد هذا أن نعود إلى « المذهب العاطفي » الذي قلنا إنه يجب أن نعتبره المقياس الصحيح للأدب الصليبي .

وأنت تعرف أن مذاهب النقد في كل مكان وزمان تلتقي كلها عند نقطة واحدة ؛ وهي أن الأدب فن التعبير ، ثم تفرق بعد ذلك :

فمن قائل إن الأدب فن التعبير عن الشخصية ، كما ذهب إلى ذلك سانت بييف - ومن قائل أنه فن التعبير عن العصر ، كما ذهب إلى ذلك برونتيير الخ .

غير أن المذهب العاطفي لا يعبا بشيء من تلك المقاييس ، ولا يقف عند شيء من تلك القواعد والأصول ، ولكنه يرى أن لكل تعبير أدبي روحا يظهر من خلاله ، وأن له حياة ينبض بها ، وأن مهمة الناقد العاطفي أو الذوقي هي دراسة هذا الروح ، أو الكشف عن هذه الحياة .

فما قصد الشاعر أو هدفه من هذه القصيدة ؟ وما عمله فيها ؟ وإلى أي حد نجح في عمله الفني ؟ وهل استطاع أن يؤثر فينا بقصيدته وما مدى هذا التأثير ؟ الخ .

هكذا يسأل الناقد الحديث - على المذهب العاطفي - نفسه حين يتعرض لنقد أثر فني .
أي أن هذا الناقد الحديث لكي يتذوق أثرا فنيا ما يحاول جاهدا أن يعيد خلقه في نفسه ، أو ينشئه من جديد في ذهنه ، أو يغامر بروحه في روايته ومفاته ، وإذا ذلك فقط يستطيع أن يحكم له أو عليه . أو بعبارة أخرى يستطيع أن يتأثر بهذا النص الأدبي تأثرا ما ، ويعبر عما وجدته من هذا التأثير تعبيرا صحيحا قريبا من الإنصاف بقدر المستطاع .

لسنا نريد أن نتعرض لشرح هذا المذهب ، ولا نريد أن نتحمس له أو عليه ، ولا بنا من حاجة إلى المناظرة فيه . وإنما أردنا أن ندل القارىء على أنه ربما كان من أعدل مذاهب النقد الحديث ، وعلى أنه أولى هذه المذاهب بالتطبيق على أدب الحروب الصليبية ؛ ذلك الأدب الذى قلنا إنه يعبر عن تلك العواطف الإنسانية ، التى كانت تغمر قلب المحارب الإسلامى .

وحسبك من هذا المذهب العاطفى ، أنه يحمل معه قانونه الذاتى ، ومقياسه الذى يدعو الناس إلى أن يقيسوه به ، ويحكموه فيه .

ونحن حين نغامر بأرواحنا فى هذا الأدب الصليبي ، أو حين نحاول أن نعيد خلقه فى نفوسنا ، أو إنشاءه من جديد فى أذهاننا ، أو بعبارة أخرى حين نلقى على أنفسنا بعض الأسئلة المتقدمة نستطيع أن نطمئن إلى أن إجاباتنا عن هذه الأسئلة ستكون دائماً فى صف هذا الأدب ، بل شهادة له بأنه قد عبر عن غرضه تعبيراً ترك أثره فىنا أعظم ما يكون التأثير .

ألم تبلور فكرة الحروب الصليبية — كما قلنا فى المقدمة — أحسن تبلور وأكمله فى أذهان الشعراء ؟ ألم يعبر الشعر الصليبي أصدق تعبير وأوضحه عن عواطف الخاصة والعامّة من المسلمين على السواء ؟ ألم يرسم الشعر للقادة والأبطال خططهم ، ويصور لهم آمالهم ، وينقل إليهم ما يعبر عنه بالرأى الإسلامى العام ؟

بلى . فعل الشعر كل ذلك ، فضلا عن كونه نجح فى إذكاء الروح المعنوية فى النفوس ، فكان يزيد فى فرح المسلمين بالنصر وقت النصر ، ويهون عليهم وقع الهزيمة وقت الهزيمة ، ويقوى فى نفوسهم الأمل بأنهم المنتصرون فى نهاية المعركة .

وباختصار كان الشعر الصليبي يمتاز بأمرين : هما القوة من جهة ، والصدق من جهة ثانية . وهو بهذين الأمرين ، أدب يستحق الإعجاب والتخليد .

ومعنى هذا أن الزينة اللفظية لم تسكن كل شئ فى هذا الشعر الصليبي ؛ واسكن كان وراء هذه الزينة — كما رأينا — أمور شتى : إشعال للعواطف ، وقدرة عجيبة على الإيحاء ، وتصوير جميل للوقائع ، وغناء متصل بالبطولة ، وشعور جارف بالقوة ، أحال الشعر الصليبي كله إلى جذوة نار ، كانت بردا وسلاما على قلوب أبطال الإسلام ، ولظى يستعر فى قلوب أعدائه !

وهكذا كان الشعر الصليبي مسيرا بكل دقة للعاطفتين الدينية والسياسية للمسلمين ،
 في محنة الحروب الصليبية ، في جميع مراحلها :
 فيوم احتاج المسلمون إلى تحريك الهمم في بغداد — وذلك بعد نجاح الحملة الصليبية
 الأولى في امتلاك كثير من البلاد — استمعنا إلى شعر صليبي يذيب الأكباد ، ويحرك الجهاد .
 ويوم رفع البطل زنكي علم الجهاد رأينا الشعراء يقفون إلى جانبه ، يعظمون من
 همته ، ويرفعون من مكانته ، ويمنونه الأمان العذاب ، ويصورون له شعور المسلمين في
 جميع الأقطار أجمل تصوير وأصدق في وقت معا . ثم يوم خلفه في جهاد الصليبيين ابنه
 البطل نور الدين ، ناضل عنه شاعراه العظامان ، ابن القيسراني وابن منير ، فجاء شعرهما
 مقياسا دقيقا لحرارة المسلمين ، معبرا أصدق تعبير كذلك عن آمالهم ومشاعرهم ، محركا
 لهممهم إلى درجة ليس بعدها حظ لمستزيد .

ثم انتهى أمر هذا الجهاد المير إلى البطل صلاح الدين ، وأصبح وحده المسئول
 عن طرد الفرنج من بيت المقدس ، وكتب له الظفر بهذه الأمنية العزيزة على نفوس
 المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وإذ ذاك سجل مقياس الحرارة أعظم ارتفاع
 لعواطف المسلمين ، وكان على الشعر أن يقوم بالتعبير عن هذه العواطف التي بلغت
 ذروتها ، وتناهت في حرارتها وشدتها .

ثم أتى خلفاء صلاح الدين ، وقضت سياستهم — لحكمة ما — أن يفرطوا حيناً وإلى
 أجل مسمى في بيت المقدس — فبكى الشعر هذا الحادث الجلل ، وقال الشعراء في الحزن
 على بيت المقدس شعرا حادا ، لا يقل في روعته وحدته عن الشعر الذي قيل في الفرح به .
 والخلاصة أننا إذا قلنا عن الشعر الصليبي إنه كان شعر العاطفة الحادة قبل كل
 شيء ، لم نبعد عن الحقيقة ، ولم نعبر إلا عن الواقع . ومعنى ذلك كله أنه يقوم على أساس
 واحد هو الصدق . وحسبه ذلك ليكون شعرا خالدا على الزمان باقيا مابقي الدهر .

أما النثر فكان تابعا للشعر في هذا المضمار ، غير أنه كما رأينا ، كان يستغرق
 في عمله وقتا أكبر من وقت الشعر ، أو كانت تقوم به أرستقراطية أدبية خاصة ، لها
 طريقتها في التعبير عن مشاعر القوم . وهذه الأرستقراطية الكاتبة هي طبقة الوزراء

والسكتاب ممن كانوا يساهمون في تدبير الدولة ، وكان لهم ضلع كبير في الحروب الصليبية .

وهذا هو السيب الذي جله جاءت رسائل القاضى الفاضل أولا ، والعماد الأصفهاني وابن الأثير ومحيى الدين بن عبد الظاهر بعد ذلك معبرة تعبيرا ممتازا عن هذه الحروب ، شارحه شرحا متأنقا لوقائعه . وهذا معنى ما قلناه من أن هذه الرسائل لم تكن تسكتب للشعب ، وإنما كانت تصدر من الملوك إلى الخلفاء . في حين أن الشعر كان يراعى فيه أن نظم لكي يسمعه الشعب كله على اختلاف طبقاته .

من أجل ذلك أيضا كانت عنايتنا في هذا البحث بالشعر أظهر من عنايتنا بالنثر . فلقد كان الشعر في محنة الحروب الصليبية أشبه شيء بالصحف اليومية ، تنقل إلى القارىء أخبارا شتى ، وأفكارا شتى ، وعواطف شتى . ومن كل هذه الأخبار والأفكار والعواطف كان يتألف الرأى الإسلامى العام . وفرق كبير — كما قلنا في المقدمة — بين الباحث الأدبى والباحث التاريخى . أما الأول فتتجه أكثر عنايته نحو هذا الرأى الإسلامى العام ، يرى كيف عبر عنه الأدب . وأما الثانى فعنايته تتجه إلى الوثائق الرسمية التى يستأثر بها النثر دون الشعر .

ولقد كان هناك سيل جارف من الرسائل الديوانية التى لو أردنا أن نخصيها بوجه ما لأعيانا الإحصاء . فنحن لا نستطيع مطلقا أن نلم بما كتبه السكتاب فى الدواوين الإسلامية الحكومية وقت المحنة الصليبية ؛ بل نحن لا نستطيع أن نلم بما كتبه واحد فقط من كتاب ديوان الانشاء فى هذه الأقطار الإسلامية . وتصور معى مقدار ما كتبه فى ذلك رجل كالقاضى الفاضل ، أو العماد الأصفهاني ، أو ضياء الدين بن الأثير ، أو غيرهم من الوزراء وكتاب الدواوين فى شتى أنحاء الشرق الإسلامى . إن ما كتبه كل واحد من هؤلاء ليملا المجلدات الضخمة التى لو ظفرنا ببعضها لاستغرق بحثها أضعاف الزمن الذى قضيناه فى هذا البحث .

على أنه إن أعوزتنا القدرة على جمع السكتب الديوانية فى موضوع الحروب الصليبية فلم تعوزنا القدرة على وصف هذه السكتب من الناحية الفنية . وقد مددنا حبل القول فى هذه الناحية بما لا يحتاج القارىء فيه إلى مزيد ، وطفقنا نحلل الرسائل الفاضلية

والعمادية بنوع خاص تحليلاً خرجنا منه بهذه النتيجة التي وصلنا إليها من قبل ، وهي أن النثر كان أشد تعقيداً من الشعر ، أو بعبارة أدق ، أن النثر كان أدخل في دائرة الفن من الشعر .

ونحن مضطرون هنا إلى الاعتراف بأننا أغضينا النظر عمداً عن لون هام من ألوان النثر ؛ هو النثر التاريخي — وعذرنا في ذلك أن النثر التاريخي نفسه بعيد عن حدود الأدب البحت ، وإن من الباحثين من لا يعدونه في الأدب إلا من قبيل التجوز . ونحن نعلم أن من هذا النثر التاريخي ما روعي فيه الأسلوب الأدبي مراعاة طغت طغياناً كبيراً على مراعاة الحقائق التاريخية . وقد أشرت إلى ذلك في مقدمة هذا البحث وفي كتاب « الحركة الفكرية في مصر » ، وسأشير إليه بإذن الله تعالى في كتاب « الحركة الأدبية » . وربما كان أوضح مثال لهذا النثر التاريخي الذي كانت العناية فيه بالعبارة الأدبية أكثر من العناية فيه بالحقائق التاريخية كتاب للعماد الأصفهاني في التاريخ ، اسمه (الفتح القسي في الفتح القدسي) ؛ وهو كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، فضلاً عن أنه محلي بألوان البديع المختلفة التي من أهمها عند العماد الجناس والطباق .

ونحن وإن كنا قد استمتعنا بالزينة اللفظية في شعر العماد ، وأحسبنا على كل حال بأنها خفت على قلوبنا ، وعلقت بنفوسنا ، فإننا نشعر بثقل هذه الزينة اللفظية نوعاً ما في نثر هذا الأديب الممتاز — وهو العماد — وخاصة في النثر التاريخي الذي اصطلاح أكثر النقاد على تسميته نثراً علمياً لا أدبياً .

والقارىء لكتاب تاريخي من كتب العماد لا يسعه أحياناً إلا الضحك ، وهو ضحك ليس مصدره اللذة أو المتسع ، ولا مبعثه التقدير أو الإعجاب ، وإنما مبعثه الإشفاق على هذا الكاتب الغريب الذي كلف نفسه هذا الشطط . وأرغم قلبه وقته كل هذا الارغام ، وأكثر إكثاراً معيباً من الجناس والطباق .

وإذن فقد أغضيت النظر عن هذا النثر التاريخي لسببين وهما : يعد التاريخ عن الأدب نفسه من جهة ، وتكلف العماد والشديد في نثره التاريخي من جهة ثانية . ومهما يكن من أمر هذا النثر ، فالذي لا شك فيه أن محنة الحروب الصليبية تركت

آثارها واضحة قوية في الحركة التاريخية . فكتبت الكتب الكثيرة في تاريخ هذه الحروب ، وجاءت هذه الكتب كلها على ألوان شتى : فمنها ما كان تاريخاً صرفاً ، ومنها ما كان تاريخاً يمتزج به الأدب امتزاجاً حلواً ، ومنها ما كتب في التاريخ العام لهذه الحقبة ، ومنها ما كتب في تاريخ بعض الوقائع الخاصة أو السنوات الخاصة ، ومنها ما كتب في سير الأبطال الخ . وقد فصلنا القول في ذلك كله في كتاب « الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول » .

أما الخطابة من جهة ، والجهاد والفروسية من جهة ثانية ، وكتب فضائل البلاد من جهة ثالثة فكانت كلها تصدر عن ذلك المعين الذي لا ينضب ماؤه ؛ وهو القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والتاريخ الإسلامي نفسه في نهاية الأمر ، ومن ثم جاءت هذه الكتب كلها رطبة بماء الدين ؛ متأثرة تأثراً عميقاً بالكتاب والسنة وسير الأبطال المسلمين . وكان لذلك كله تأثير سحري في النفوس ، وقدرة سحرية كذلك على تقوية الروح المعنوية في الجيش الإسلامي والشعب الإسلامي .

وعندنا أن هذا التأثير السحري بلغ من نفوس المسلمين في إبان تلك الحروب ما قد تعجز عن أن تبلغه الصحافة والاذاعة معا في العصر الحديث . ولمن يريد أن يهتمنى بالمبالغة في ذلك أن يوازن معي بين أثر الصحافة والاذاعة في نفوس الناس في الوقت الحاضر ، وبين أثر الكتب التي أشير إليها في نفوس الشعب الإسلامي في الفترة التاريخية التي أصفها . وأنا واثق كل الثقة من أنه سيخرج من هذه الموازنة بنتيجة واحدة ؛ وهي أن تلك الكتب الإسلامية التي كانت تعتمد على القرآن والحديث والتاريخ كانت أعمق أثراً في النفوس ، وأنها كانت من أقوى الأسباب الحقيقية في صبر المسلمين على الحرب ، ومضيقهم فيها حتى أحرزوا ذلك النصر .

ولياذن لي القارئ فأعود به مرة أخرى الى الزينة اللفظية التي هي اللون العام للأدب الصليبي ، فأنبه الأذهان فيها إلى ملاحظة تستحق الذكر : نحن نعلم أن البديع قديم في الشعر العربي عامة والشعر العباسي خاصة . ولعل بشار بن برد يعتبر من أوائل الذين عنوا بالبديع في الشعر ، ثم تبعه مسلم بن الوليد ،

ثم أبو تمام الطائي . وهذا الأخير هو الذى أمسك بزمام البديع وسلك به طرقا لم يألفها القدماء قبله ولا بعده .

ذلك أن أبا تمام كان عالما إلى جانب أنه شاعر . ومتى دخل العلم على الشعر فقد أصبح مخلوقا من طراز آخر ، أقل ما يقال فيه أنه طراز تنكره طبيعة الشعر الذى هو لغة العواطف قبل كل شئ .

وبعد أبى تمام ظهر فى عالم البديع رجال ؛ أهمهم أبو الطيب المتنبي ، وأبو العلاء المعرى . وكان كل منهما عالما مثقفا كآبى تمام ، ولكنهما لم يستطيعا ما استطاعه أبو تمام من إحالة هذه الثقافة التى يملكها إلى فن ، والاستفادة منها فائدة تظهر فى الشعر . ومن ثم كثرت الإشارات فى شعريهما إلى الفلسفة والتصوف والتشيع والنحو واللغة والعروض والفقه والتاريخ . ولكنهما لم تعد كونها إشارات فقط ؛ وليست هضما صحيحا لهذه الثقافات على اختلافها بمعدة الفن — إن صح هذا القول — كما نجد ذلك عند حبيب ابن أوس .

وهكذا لم يكن الأدب العربى ليظفر بعد أبى تمام برجل مثله يملك مثل هذه الموهبة العجيبة التى يستطيع بها تحويل المعارف الانسانية إلى أدوات فنية .

والذى نريد أن نخرج به من هذا الحديث الأخير هو أن الأصل فى الشعر أنه لغة الشعور ، والأصل فى الشاعر أنه ليس بحاجة إلى الثقافة ؛ بخلاف السكاكب فإنه فى أمس الحاجة إليها . غير أن الشعر يستطيع أن يفيد من الثقافة فائدة كبيرة على شرط أن تكون للشاعر هنا موهبة ممتازة ، يقوى بها على إحالة الثقافة ذاتها إلى فن شعري .

ونحن نعلم أن الثقافة الإسلامية فى العصر الذى شهد الحروب الصليبية كانت ثقافة محدودة بحدود الدين ، فليس غريبا إذن ألا تظهر فى الأدب الصليبي كله أمور تدل على تأثره بالفلسفة والحلول والتناسخ ، وغير ذلك من العلوم التى شاعت فى عصور أنجبت مثل أبى تمام وأبى الطيب وأبى العلاء والمؤيد داعى الدعاة ، ومن ذهب مذهبهم ، ولف لفهم .

ومن ثم كان عذر الشعراء المسلمين فى عصر الحروب الصليبية أوسع من عذر سواهم من الشعراء المسلمين فى العصور التى شاعت فيها تلك الثقافة الإسلامية .

ومع هذا وذاك فقد أفاد الأدب الصليبي من نوع الثقافة الدينية التى شاعت فى

عصره . ووجدنا الشعراء يميلون إلى نوع من البديع يسمى « التوجيه » . وهذا التوجيه كان أداة فنية صالحة في أيدي الشعراء استطاعوا بها أن ينقلوا كثيرا من المصطلحات العلمية من جو العلم إلى جو الشعر .

وهنا نجد أن هؤلاء الشعراء وقفت قدرتهم عند هذا الحد . ومعنى ذلك أن مواهبهم الفنية من هذه الناحية لم تكن أكثر من موهبة المتنبي والمعري ، وأنها لم تصل قط إلى مكانة أبي تمام . ولانكاد نستثنى من أدباء العصر الذي نؤرخ له غير (القاضي الفاضل) ؛ فهو وحده القادر — كما رأينا — على إحالة هذه الثقافة الدينية التي عرفها إلى فن ، وذلك بطريقة تذكرنا دائما بجيب بن أوس . ومن ثم تقف شخصية القاضي الفاضل وسط الأدباء المصريين والسوريين على السواء كتمثال كبير أقيم في أكبر ميدان من ميادين العاصمة الكبرى لدولة الأدب الأيوبي خاصة ، والأدب الصليبي بوجه أخص !

...

والخلاصة في الأدب الصليبي أنه يمتاز بصفات عامة ، ثم ينفرد كل فن من فنونه بصفات خاصة . أما الصفات العامة فهي التي تحدثنا عنها ، وقلنا إنها تتلخص في القوة وصدق العاطفة . وأما الصفات الخاصة فأهمها هنا صفة السجع التي ينفرد بها النثر دون الشعر ؛ ونجدها في الخطابة أقوى منها في الكتابة . وبالسجع وغيره من ألوان الزينة اللفظية والمعنوية يقترب الشعر الصليبي عامة ، والنثر الصليبي بوجه أخص اقترابا عظيما من الفن بمعناه الصحيح .

يقول الأستاذ ولیم مارسية في ذلك :

« يحمل بنا ألا نشدد الحكم على النثر المسجوع ، فهو الذي أمد العربية بعدد من جواهرها الأدبية ، وهو الذي أكسبها آثارا فيها من جودة الصناعة ، ودقة النقش ما يجعلها مثالا تطبيقيا لقاعدة الفن المطلق الخالص ، أو ما يعرف عندهم — أي عند أدباء العربية — بالفن للفن »^(١)

ويقول الأستاذ هـ . أ . ر . جب :

« ولطالما قيل إنه ليس للعرب فن . وقد يكون هذا صحيحا إذا حددنا الفن بأعمال

(١) مقال بعنوان (اللغة العربية) للأستاذ مارسية نشر بمجلة الرسالة العدد ٦٤١ (السنة الثالثة عشرة) .

كالنحت والطلاء الخ . ولكنه يكون تحديدا ظالما خاطئا . فالفن هو أى نتاج يعبر فيه الشعور الجمالى عن نفسه . . . وميدان الشعور الجمالى عند العرب هو — أساسا — الكلمات واللغة ؛ وهذا أكثر إغراء ، بل أعظم خطرا من سائر الفنون . ومن ثم كان من السهل أن نفهم السبب فى أن العرب — الذين عندهم استخدام الكلام البليغ أسمى الفنون — يرون فى القرآن أعجوبة حقيقية . وعملا فوق طاقة البشر ،^(١)

والمهم أن البديع بألوانه المختلفة لم يفسد هذا الأدب الصليبي ، ولم يكن فيه على حساب المعنى . فلا محل إذن لتشديد النكير على هذا الأدب ؟ بل يجب علينا أن نقدره ، وألا نخشى الإسراف فى إعجابنا به وتقديرنا له . على أننا نلاحظ أن جزءا كبيرا من المعانى التى وردت فى هذا الأدب قليلة الحظ من العمق ، وأن قلة حظها منه ربما مكنت الأدباء من التفتن فى الزينة اللفظية ، بل الإسراف فيها إلى الحد الذى رأيت . ومع ذلك فنحن ننظر حتى إلى هذه الظاهرة الأخيرة بشيء من الحذر . فالواقع أن الأدب الصليبي غنى بالمعانى من حيث هى ، ولكنها معان لا تكند الذهن ، ولا تعوق الأديب الذى يؤثر فى تأديتها طريق الفن البحت ، كما فعل أدباء العربية فى إبان الحروب الصليبية . ودعنى أذكرك — أيها القارىء — مرة أخرى برسائل القاضى الفاضل التى كتبها للسلطان صلاح الدين فى محنة خارت فيها قواه ، ودخل بسببها اليأس إلى قلبه ، وأعلن هذا اليأس نفسه فى قوله :

اقتلوني ومالكاً واقتلو مالكا معي

وهى المحنة التى أصابته عقب الحملة الصليبية الثالثة كما عرفنا . إننى كلما نظرت فى هذه الرسائل ، وفكرت فى جلال المعنى الذى تحمله كل رسالة منها ، وإلى سمو الروح الذى أطل عليها ، عظم فى نفسى ما للفاضل من دين على والاسلام والعروبة .

وكما نظرت فى هذه الرسائل إلى الفن الذى سما إلى التعبير عن تلك الأفكار ،

(١) Modern Trends in Islam

والعبارة المذكورة أخذت من ترجمة إلى اللغة العربية لجزء من هذا الكتاب نشر بمجلة الرسالة العدد ٧٠٩ (السنة السادسة عشرة) .

وجلاها في تلك الصورة الرائعة التي تبهر الإبصار عظم في نفسى ما للفاضل من يد على الأدب والكتابة . وتحققت بعد ذلك كله من صدق السلطان صلاح الدين الأيوبي حيث قال : ما ملكت البلاد بسيفكم ولا رماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل !
أجل - هكذا تكون مهمة الأدب ، وهكذا يكون عمل الأديب . ومن هنا يكون قلم رجل واحد بمثابة جيش كامل يحارب به في صف الدولة إبان الحرب ، ويندود به اليأس عن قلوب رؤسائها ، ويحميها من الخور أو الضعف الذى يصيبها في مثل الظروف التى مرت بعاهل الدولة الأيوبية ، عقب الحملة الصليبية التى أشرنا إليها .
وإذن فهما كانت أطماع النقاد والعلماء ، ومهما كانت مثلهم العليا في الفن أو المهارة في الأداء ، فإنهم لن يستطيعوا أن ينسكروا على الأدب الصليبي ، الذى أوردنا منه أمثلة في هذا البحث أنه أدب ممتاز ؛ ليس ذلك لإمعانه في الصنعة والتفنن فحسب ، ولكن لهذا ، ولأمرين آخرين عظيمين ؛ هما : القوة وصدق العاطفة .

وهكذا كتب الله النصر في تلك الحروب الصليبية للشرق على الغرب ، وكتب التاريخ نفسه صفحة ذهبية لهذا الشرق الذى نهض لمقاومة الغرب ، واستعان في مقاومته بقوة مادية وأخرى معنوية . والحق أن الفريقين وإن كادا يكونان متساويين في هاتين الناحيتين، إلا أن الذى لا شك فيه هو أن الشرق الإسلامى كان يفضل الغرب المسيحى في شئ هام ، هو « الأخلاق » .

وأنا من يعتقدون أن أبطال المسلمين من لدن عماد الدين ، فنور الدين ، فصلاح الدين ، خلفاء هذا الأخير إنما كانوا يحاربون الصليبيين بسلاح متين هو سلاح الأخلاق ، بل كانوا يجاهدونهم بسياسة لم يحسنها الصليبيون دائما ، وهى سياسة الشرف . وأعتقد اعتقاداً جازماً أن أبطالنا المسلمين إنما ظهروا على أعدائهم من أمراء الصليب لأسباب كثيرة أهمها هذا السبب !

ذلك هو العمل الضخم الذى قامت به الآداب العربية لخير الحروب الصليبية . وهو - كما ترى - يدل على أن الأدباء والفقهاء شاركوا في هذه الحروب الدينية الطاحنة بأقلامهم وأذهانهم ، وبصدقهم وإيمانهم مشاركة لا تقل في خطرهما عما قام به

الجنود المقاتلون في الميدان بسيوفهم ورماحهم وقوتهم وعتادهم ، وربما لم يكن من التزيد في القول أن ننظر نحن إلى هذا العمل الأدبي الضخم على أنه كان أعظم أثرا وأجل خطرا من العمل الحربى الذى قام به الجندى .

ولا عجب في هذا فالجانب المعنوى فى القتال له من الفائدة المحققة ما ليس للجانب المادى بحال من الأحوال .

(وبعد) فهذا بحث لم أبغ به غير وجه الله والعلم ، فلاشكر الله فيه على ما هدى ، ولاضرع إليه سبحانه وتعالى فى طمع وأدب أن يتقبله منى قبولا حسنا وكفى ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ؟

مصر الجديدة فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٨

عبد اللطيف حمزة

فهرس الكتاب

صفحة	
٩	مقدمة البحث
١٣	الفصل الأول - المرحلة الأولى من قصة الحروب الصليبية
٣٥	الفصل الثاني - الشعر في خدمة عماد الدين
٤٤	الفصل الثالث - المرحلة الثانية من قصة الحروب الصليبية
٥٦	الفصل الرابع - الشعر في خدمة نور الدين
١٠٥	الفصل الخامس - المرحلة الثالثة من قصة الحروب الصليبية
١١١	الفصل السادس - الشعر في خدمة صلاح الدين
١٤٨	الفصل السابع - المرحلة الرابعة من قصة الحروب الصليبية
١٥٨	الفصل الثامن - الشعر في خدمة خلفاء صلاح الدين
١٧٥	الفصل التاسع - الرسائل النثرية والحروب الصليبية
٢٠٣	الفصل العاشر - الخطابة والحروب الصليبية
٢٢٢	الفصل الحادى عشر - فى الفروسية والجهاد
٢٤٠	الفصل الثانى عشر - فى فضائل البلاد
٢٥٣	خاتمة البحث

فهرس الأعلام

(١)

د ابن ،

ابن الأثير (المؤرخ) ٣١ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٥١

٥٤ ، ٢٣٨

ابن الاعرابي ٢٣٧

ابن التعاويذي ١٠١ ، ١٢١ ، ١٤٤

ابن تيمية ٢٢٥ ، ٢٢٦

ابن تيسان ١٢٧

ابن جبير (الأندلسي الرحالة) ١٤٣

ابن الحرستاني ١٠١

ابن الخطيب الشاعر ٣٦

ابن دقيق العيد ٢٢٥

ابن زولافي ٢٤٨

ابن زريق الكاتب ٢٥٢

ابن الساعاتي (أبو الحسن علي بن محمد بن

رستم) ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦

ابن سعدان الحلبي ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٢٨

ابن سناء الملك (هبة الله) ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٥٦

ابن ظهيرة ٢٤٩

ابن عبادة (والي الرقة) ٢٥٠

ابن عباس (المحدث) ٢٢٥ ، ٢٤٤

ابن عمران (الصحابي) ٢٤٨

ابن العميد ٢١٨

ابن القيم (شمس الدين محمد بن أبي بكر)

٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧

٢٣٨ ، ٢٣٩

ابن القيسراني (أبو عبد الله محمد بن نصر

ابن صغير) ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٣ ، ٤٤

٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧

٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠

١٧٤ ، ٢٥٩

ابن كثير (اسماعيل بن عمر أبو الفداء) ٢٢٦

٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠

ابن لاون ١٢٤

ابن ماجة ٢٢٣

ابن الملقن ٢٣٧

ابن ممتي (الأسعد) ١١٨

ابن منير الطرابلسي ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

٤٢ ، ٤٣ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧

٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١

١٧٤ ، ٢٥٩

ابن نباتة (عبد الرحيم بن اسماعيل) ١٣ ، ٢١٤

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

٢٢٠ ، ٢٢١

ابن يغمور ٢٧١

د أبو ،

أبو أمامة (الصحابي) ٢٤٧

أبو بكر الصديق ٢٠٧ ، ٢٣٦ ، ٢٥١

أبو تمام (حبيب بن أوس) ١١ ، ٦٥ ، ٧٥

١٠٣ ، ٢٦٣

أبو الحسن علي بن محمد الربعي ٢٤٨

أبو الحكيمة المغربي (الشاعر) ٤١ ، ١٣٠

أبو ذر الفقاري ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦

أبو سعد بن عبد الكريم (المشهور بالسماعي)

٣٦ ، ٢٤٦

أبو سعيد الخدري ٢٤٣

أبو شامة (أنظر شهاب الدين أبا محمد

عبد الرحمن المقدسي)

أبو طاهر الخطيب ٣٦

أبو طلحة (الصحابي) ٢٣٢

أبو الطيب المتنبي ١٢ ، ٩٠ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

اسماعيل بن نور الدين (الملك الصالح) ١٠٦

الأسود الفندجاني ٢٣٧

الأشرف موسى بن الملك العادل ١٥١، ١٥٨

١٦٠، ١٦٣، ١٦٥

افتخار الدولة ٣٠

الأفضل بن بدر الجمالي ٣٠، ٣٢، ٣٣

الب أرسلان ١٣

الباس (عليه السلام) ٢٤٤

الأمير بالله (الخليفة الفاطمي) ٢٣

أما لريك (انظر عموري)

أم سلبية ٢٤٤

اندرأوس (القديس) ٢٨

أنس بن مالك ٢٤٤

أوربان الثاني ١٥، ٢٤، ١٤٨

(ب)

باركر ١٦

البخاري ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧، ٢٤٣، ٢٤٨

بختنصر ٢٢٩

بركياروق السلجوقي ٣٠

بروتير ٢٥٧

برهان الدين الغزاوي ٢٤٢

بشار بن برد ٢٦٢

بطرس القديس ٢٨

بطرس الناسك ٢٥

بلا جيوس ١٥٠

بلدوين (جوسلين) ٢٨، ٤٤، ٤٦، ٤٧

بهاء الدين بن شداد ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٢٦

بهاء الدين زهير ١٥٥، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧

١٧١، ١٧٤، ٢٥٥

بهاء الدين قراقوش (انظر قراقوش)

بوهمند (البيموند) ١٤، ٢٨، ٢٩، ٥٤

(ت)

الترمذي ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٤٨

أبو طي النجار ١٢٩

أبو عبيدة بن الجراح ٢٤٦

أبو عثمان النهمي ٢٣٣

أبو الهلاء المعري ٢٦٣، ٢٦٤

أبو فراس الحمداني ١٢

أبو الفضل بن حميد ١٢٨

أبو قدامة الشامي ٢٠٣

أبو المجد المسلم بن الخضر بن قسيم الحموي

٣٥، ٥٨، ٦١

أبو المحاسن بن تغري بردي ٢٢

أبو المظفر الأيووردي ٣١

أبو المعالي بن المرجي (المشهور بالمقدسي)

٢٤٦

أبو المعالي الخطيري ٣٦

أبو المتندر هشام بن أبي النصر السكبي ٢٣٧

أبو هريرة ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧

أبو هلال العسكري ٢١٩

أبو الهيجاء السمين ٢٠٤

أبو يعلى التميمي (الشاعر) ٤١

ابراهيم (عليه السلام) ٢٠٨، ٢٤٣

ابراهيم بن غانم الأندلسي ٢٣٧

أبرويز ١١٧

آدم (عليه السلام) ٢٥١

ارمانوس (الامبراطور البيزنطي) ١٣

ارناط ٤٩، ٥٠، ١٠٢، ١٠٧، ١٠٨

١١٩، ١٣١، ١٣٥

اسامة بن منقذ ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٨١، ٨٤

١١١، ١١٣

أسد الدين شيركوه ٤٤، ٤٨، ٤٩، ٥٢

٦٣، ٨٥، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٥

٩٦، ٢٣٨

الاسكندر الأكبر ٢٥٠

اسماعيل بن ابراهيم (عليه السلام) ٢٣٣

تقي الدين عمر (الملك المظفر) ١١٩
توران شاه بن الملك الصالح ١٠٣ ، ١٥٦ ،
١٧١

توفيق بن محمد لدمشقي ٣٦

(ج)

الجاحظ ٢٥٢

الجاموس ٢٢٤

جان دي برين ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤

جب (أ. هـ) ٢٦٤

جرير ٣٦ ، ٣٧ ، ٨١

جمال الدين بن مطروح ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤

جمال الدين الكتاني ١٥٨

الجمال الواسطي (أبو غالب محمد بن سلطان

ابن الخطاب المقرئ) ١٢٤

جودفري ١٤ ، ٢٨ ، ٣٠

جوستاف لوبون ٥٦

الجويني (أبو علي الحسن بن علي العراقي)

١٣٧ ، ١٢٠

(ح)

حافظ ابراهيم ٣٧

الحافظ بن عساكر ٣٦

الحكيم أبو الفضل الجلياني ١٤١ ، ١٤٥

(خ)

خالد بن الوليد ٣٦

الخبوشة (الفقيه) ٩٩

الخضر (عليه السلام) ٢٤٤

(د)

داود (عليه السلام) ٢٤٤

داود (الملك الناصر) ١٥٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ٢٠٣

دعبل الخزاعي ١٦٩
دمستق (Zimiskis) ١٢ ، ٢١٧

(ر)

راجح بن اسماعيل الأسدي (المعروف

بالحلي) ١٦١

رتشارد الأول (قلب الأسد) — أو

الانكستار ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٤٦

الرشيد بن بدر النابلسي ١٣٦

الرشيد بن الزبير ٨٥

ريوند الصنجيلي ٢٧

(ز)

زين الدين أبو المعالي بن الناصر محمد بن

قلاوون ٢٢٨

زين الدين عمر بن الوردى ٢٥٢

زين الدين الواعظ ٢١٣

(س)

سانت بيغ ٢٥٧

سبط بن الجوزي (شمس الدين) ١٦٨ ، ٢٠٣

٢١٩ ، ٢٠٤

ست الفخر ١٦٠

سعادة الضربير الحمصي ١٢٣

سعيد الحلبي الشاعر ١٢٧

سليمان الخير ٢٢٥

سليمان (عليه السلام) ٢٤٤

سهل بن مسعود الساعدي ٢٢٤

سييف الدولة الحمداني ١٢ ، ١٣٠ ، ٢١٤ ، ٢١٥

سييف الدين بن المشطوب ٢٠٥

سييف الدين غازي ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٦

(ش)

شاكر بن عبد الله (أبو بشر) ٩٤

شاوور ٤٨ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٥

١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،
١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،
١٤٩ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ،
٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ،
٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ،
٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٥ ،
صلاح الدين خليل بن الملك المنصور
قلاوون : ٢٢٨

(ض)

ضرغام : ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
ضياء الدين بن الأثير : ١٦٧ ، ١٧٦ ،
١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢١٨ ،
٢٦٠ ،
ضياء الدين الشهر زورى : ١٧٧

(ط)

طغتكين (السلطان السلجوقى) : ٤٦ ،
طغتكين سيف الاسلام أخو صلاح الدين :
١٤٩ ، ١٦١

(ظ)

ظهير الدين طغتكين : ٣٣ ، ٣٤

(ع)

العادل أبو بكر بن أيوب سيف الدين :
(آخر صلاح الدين) : ١٠٩ ، ١٢٠ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٨ ، ١٦١ ،
العادل الثانى بن الملك الكامل : ١٧٠ ،
العاقد (الخليفة الفاطمى) : ٥٠ ، ١٢٠ ،
عبد الرحمن بن جبر : ٢٢٤ ،
عبد الرحمن الحلحول : ٤٦

شرف الدين بن عنين : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،
١٦٧ ، ١٧٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،
شعيب (عليه السلام) : ١٣١ ،
شمايل : ١٥٠ ،
شمس الخلافة (الشاعر) : ١٤٧ ،
شمس الدين أبو عبد الله بن محمد المقدسى : ٢٤٨ ،
شهاب الدين بن عصرون : ١٠١ ،
شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى
(أبو شامة) : ٢٢ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٦٠ ،
٦٧ ، ٦٨ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨١ ،
٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٤ ،
١٢٧ ، ١٤٦ ،
شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن مجاور
١٦٨ ،
شهاب الدين أحمد بن محمد المقدسى : ٢٤٦ ،
شهاب الدين فتیان الشاغورى : ١٣٩ ،
شيركوه بن أسد الدين شيركوه : ١٤٩

(ص)

الصائى : ٢١٨ ،
الصاحب بن عباد : ٢١٨ ،
الصالح بن زريك : ٥٧ ، ٥٨ ، ٨١ ،
٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٤ ،
١١٢ ،
صبيح المعظمى الطواشى : ١٥٦ ، ١٧٢ ،
صلاح الدين الأيوبي : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ،
٢٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٩١ ،
٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦ ، ٩٥ ، ٩٤ ، ٩٣ ،
١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
١١٠ ، ١١٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،
١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠

٢٦١ ، ٢٦٠ ، ٢٥٥ ، ٢٠١ ، ١٩٣
 عماد الدين زنكي : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٣٤ ،
 ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ،
 ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٦١ ،
 ٢٠٩
 عمارة النخعي : ١٠١
 عمر بن الخطاب : ٩ ، ١١ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٦
 عمر بن عبد العزيز : ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٨
 عمرو بن عنبسة : ٢٢٥ ، ٢٣٢
 عموري (أما لربك) ٩١
 عيسى الهكاري ١٢٠

(ف)

فاتك الاسدي ٢٤٧
 فخر الدين بن لقمان ١٥٦
 فخر الدين قرا أرسلان ٥٣
 فردريك الثاني امبراطور الدولة الرومانية
 ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،
 ٢٠٣
 الفرزدق ٣٦ ، ٣٧ ، ٨١
 فضالة بن عبيد الله ٢٢٧
 الفونسو (صاحب صقلية) — الفنس ٤٥

(ق)

القاسم بن عساكر ٢٤٢ ، ٢٤٥
 القاضي الفاضل (أنظر عبد الرحيم البيهقي)
 قراقوش (بهاء الدين) ١٠٣
 قطب الدين مورور ٣٤ ، ٤٤
 قلاوون ١٤٨ ، ٢٣٧

(ك)

كافور الاخشيدي ١٠٠
 الكامل محمد بن الملك العادل ١٥٠ ، ١٥١

عبد الرحيم بن علي البيهقي (القاضي الفاضل)
 ١٩ ، ٥٧ ، ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١٢ ،
 ١٢٧ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٧٥ ،
 ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦٠ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦
 عبد الله بن حوالة : ٢٤٦ ، ٢٤٧
 عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥١
 عبيد الله بن أسعد الموصلی (أبو الفرج)

٨٩ ، ٩٠
 عثمان بن عطاء الخراساني : ٢٤٤
 عثمان بن عفان : ٢٠٧
 العرقلة حسان بن تمير الكلبي (أبو الندى)
 ٥٨ ، ٩٥ ، ١٠٠
 عز الدين بن أبي الحديد : ٢١٩
 عز الدين بن عبد السلام : ٢٢١ ، ٢٢٥
 عز الدين فروخشاه : ١١٥
 العزيز عثمان بن صلاح الدين : ١٤٩ ، ١٦١
 عقبة بن عامر : ٢٣٢
 علم الدين الشافعي : ٩٨ ، ١١٩
 علي بن أبي طالب : ٢٠٧ ، ٢١٩ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٠

علي بن الجعد : ٢٣٣
 عماد الدين الاصفهاني : ١٨ ، ٥٨ ، ٨١ ،
 ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ،
 ٩٥ ، ٩٦ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،
 ١٠٣ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣١ ،
 ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٦ ،
 ١٦٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠

مسلم بن الوليد ٤٣ ، ٢٦٢
المسيح (عليه السلام) ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
١٠٨ ، ٢٠٨ ، ٢٣٠
معاذ بن جبل ٢٤٦
المعظم عيسى بن الملك العادل ٢٥١ ، ٢٦١ ،
١٦٢ .

معين الدين أنر ٤٦
المقريزي ٢٢
المنصور محمد بن تقي الدين عمر ١٤٩
المهذب بن أسعد الموصلی (أنظر مهذب الدين)
المهذب بن الزبير ٥٨ ، ٨٥ ، ٨٧
مهذب الدين بن أسعد الموصلی ٥٧ ، ٥٨ ،

١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦
المهلب بن أبي صفرة ١٩٨

(ن)

نجم الدين أيوب (الملك الصالح) ٩٢ ، ٩٩
١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
٢٣٨ .

نجم الدين يوسف بن الحسين بن المجاور
الوزير العزيزي ١٣٨

النسائي ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٣٢
نشو الدولة احمد بن نقادة ١٢٢
نقفور ٩ ، ١٢

النواس بن سمعان ٢٢٩ ، ٢٣٠
نور الدين (محمد بن قرا أرسلان) ١٢٧

نور الدين محمود (الملك العادل) ١٧ ، ١٩ ،
٢١ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ،
٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
٦٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ،

١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ،
١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٧٠ ،

كريو غا ١٣٠
كسرى انوشروان ٢٥٠
كعب بن مرة ٢٢٥ ، ٢٤٤
كمال الدين بن النبيه ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٧٤
كمال الدين الشهرزوري ٥١ ، ٥٢
كونت أوف ارتوا ١٥٦

(ل)

لونيس التاسع ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٧١ ،
١٧٢ .

(م)

المأمون (الخليفة العباسي) ٢٣٧
المؤيد (داعي الدعاة) ٢٦٣
محمد الدين بن جهيل ١٣٠

مجير الدين (الأمير) ٣٦ ، ٧٠ ، ٧٦
مجير الدين ملكشاه السلطان السلاجوقي ٣٣
محمد (صلى الله عليه وسلم) ٢٧ ، ٥٤ ، ٦٥ ،
٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٧ ، ١١٨ ، ١٢٤ ،
١٣١ ، ١٥٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ،
٢١٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ،
٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

محمد بن سعيد ٢٤٤
محمود بن الحسن بن نهان العراقي ١٢٤
محي الدين بن زكي الدين ١٣٠ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

المسترشد (الخليفة العباسي) ٤١
المستظهر (الخليفة العباسي) ٣٠
المستضيء (الخليفة العباسي) ٩٩ ، ١٠١ ،
مسعود (السلطان) ٤١
مسلم (المحدث) ٢٢٣ ، ٢٢٤

المهرثني ٢٣٧
هرقل ٩

٨٠ ، ٧٩ ، ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦ ، ٧٥
٨٩ ، ٨٨ ، ٨٧ ، ٨٥ ، ٨٣ ، ٨٢ ، ٨١
١٠١ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٩٤
١٣٤ ، ١٠٥ ، ١٠٤ ، ١٠٣ ، ١٠٢

(و)

وحيش الأسدي ١١١
الوليد بن عبد الملك ٢٢٨
وليم مارسية ٢٦٤
الوهراني ٥٦

٢٥٩ ، ٢٣٨ ، ٢١٣

النووي ٢٢٥

(هـ)

(ي)

يوسف الفندلاوي ٤٦
يلبغا ٢٢٨

هاشم بن احمد الحلبي ٣٦
هبة الله بن القفطي ٢٢٥
هبة الله بن محاسن ١٦٠

كلمة شكر

تفضل أستاذي وزميلي مصطفى السقا بك فعاونتي
أصدق معاونة وأخلصها في مراجعة الأصول الخاصة بهذا
الكتاب ، وفي تحقيق نصوصه ، وتصحيح أخطائه
وتجاربته .

فليأذن لي الأستاذ الجليل أن أقدم له أصدق الشكر
وأخلصه على هذه المعاونة العظيمة ، تقديرًا مني لأخلاقه النبيلة ،
وعلمه الغزير ، وتملكه ناصية العربية نحوا ولغة . بارك
الله لنا في علمه ونفع به .

المؤلف

تصويب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١٨	متى	إلى متى
٣٦	١١	ابن صغير	ابن صغير
٣٦	٢٠	ابن صفة	ابن صغير
٥٨	١٦	الفرقة	الفرقة
٧٧	١٤	مبيد الدين	مبيد الدين
١١٩	١١	ابن سعدون	ابن سعدان
١١٩	١٧	تقى الدين عمرو	تقى الدين عمر



كتب أخرى للمؤلف

طبع فعلا :

- ١ - ابن المقفع .
- ٢ - صلاح الدين .
- ٣ - حكم قراقوش .
- ٤ - الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول .
- ٥ - تراث الاسلام : ترجمة بالاشتراك مع لجنة الجامعيين لنشر العلم .

ويصدر قريبا إن شاء الله :

- ٦ - الحركة الأدبية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي الأول .
- ٧ - أساليب الصحافة المصرية في القرن الماضي .
- ٨ - كيف نقرأ - رسالة في التربية التجريبية محفوظة بمكتبة معهد التربية للبنين .





